AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
4 NOV 1972
Tel. 260458

892.78
Z39abc2A
c.1

عبد الرحمن الناصر

رواية تاريخية غرامية

وهي الحلقة الرابعة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

تشتمل على وصف بلاد الاندلس وحضارتها وعادات اهلها
في زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر الاموي
(من سنة ٣٠٠ــ٣٥٠ هـ) وما بلغت اليه دولته
من المنعة والسيادة وما بناه من القصور
الفخيمة وكيف كان يحتفل باستقبال وفود
ملوك أوربا بالهدايا وما كان من
خروج ابنه عبد الله يطلب ولاية
العهد لنفسه دون اخيه الحكم الخ

تأليف

جرجي زيدان

منشيء الهلال

طبعت بمطبعة الهلال بالفجالة بمصر

سنة ١٩١٠

المقدمة

هذه هي الحلقة الرابعة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام والثالثة منها في تاريخ الاندلس . فان الاولى رواية « فتح الاندلس » تتضمن فتح هذه البلاد على يد طارق بن زياد سنة ٩٢ هـ مع بيان حالها السياسي والاجتماعي والديني قبل الفتح . والثانية رواية « شارل وعبد الرحمن » وتشتمل على فتوح العرب في فرنسا الى ضفاف نهر لوار في اوائل القرن الثاني للهجرة حتى ردهم شارل مارتل . وهذه رواية « عبد الرحمن الناصر » تحتوي على وصف حال الاندلس في ايام عبد الرحمن الناصر اول من سمي خليفة من بني مروان هناك (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) وما بلغت اليه دولته من المنعة والحضارة والعمارة

فمن طالع هذه الروايات جميعاً يستطلع تاريخ الاندلس السياسي والاجتماعي من فتحها في اواخر القرن الاول للهجرة الى ايام الخليفة الناصر الاموي باوائل القرن الرابع وقد بلغت هذه الدولة في ايامه ابان مجدها يوم كانت الدولة الاسلامية يتنازعها ثلاثة خلفاء عبد الرحمن الناصر الاموي هذا في الاندلس والخلفاء العبيديون او الفاطميون في افريقية والخلفاء العباسيون في بغداد وكان هو أعزهم جانباً واطولهم اياماً وأوسعهم حضارة

فنطلب اليه تعالى ان يأخذ بيدنا لاتمام هذه السلسلة انه السميع المجيب

الفصل الاول

قُرطُبة والخليفة عبد الرحمن الناصر

قُرطُبة عاصمة الامويين في الاندلس واقعة شمالي نهر يعرف باسم الوادي الكبير في جنوب اسبانيا . وقد بلغت ابان حضارتها واوج مجدها في زمن عبد الرحمن الناصر (تولى سنة ٣٠٠ — ٣٥٠ للهجرة) وهو اول من تسمى خليفة من ملوك الاندلس . تولى الملك والاحوال مضطربة والبلاد قائمة قاعدة لاختلاف الاحزاب وكثرة المطالبين من العرب والبربر غير الافرنج المجاورين له في اشتوريا وغليكية ونافار وبمبلونة وغسكونية وغيرها . فما زال يحارب ويناضل ويجد ويجتهد حتى دانت لهُ الرقاب واستقرَّ لهُ الملك واستتب الامر . فتقرَّب اليهِ ملوك عصره بالهدايا واوفدوا اليهِ الوفود من القسطنطينية ورومية وفرنسا وروسيا (ملك الصقالبة) وغيرهم

ولما أحسَّ من نفسهِ بالقوَّة ورأى الخلافة العباسية قد تضعضعت واستولى الجند التركي على خلفائها سمى نفسهُ امير المؤمنين فلم يلقَ معارضة . واتفق في اثناء ذلك قيام الدولة الفاطمية (العبيدية) في المغرب وهم شيعة يطلبون الخلافة باسم علي فاصبحت الخلافة الاسلامية يدعيها ثلاث دول : العباسيون في العراق والفاطميون في المغرب والامويون في الاندلس

وزهت قرطبة في ايام الناصر واستبحر عمرانها وكثرت قصورها ومتنزهاتها — يكفي من ذلك قصرها الكبير لانهُ آية من آيات الزمان كان مؤلفاً من ٤٣٠ داراً بينها قصور فخيمة لكل منها اسم خاص كالكامل والمجدد والحائر والروضة والمعشوق والمبارك والرشق وقصر البديع وقد غالوا في زخرفها واتقانها وانشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والاحواض وجلبوا اليها الماء في قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال حتى اوصلوهُ اليها ووزعوهُ فيها وفي ساحاتها ونواحيها في تلك القنوات تؤديها الى المصانع صوراً مختلفة الاشكال من الذهب الابريز والفضة الخالصة والنحاس المموَّه الى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في احواض الرخام الرومية المنقوشة ينصب فيها الماء من انابيب الذهب أو الفضة بصور الحيوانات الكاسرة أو الطيور الجميلة على اشكال بديعة

ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير ولم يكن في بلاد الاسلام أعظم منهُ ولا أعجب بناء . وكان في مكانهِ كنيسة للنصارى شاطرهم عليها المسلمون عند الفتح كما فعلوا بالجامع الاموي بدمشق ثم اخذوا بتوسيعهِ والزيادة فيه حتى بلغت سعتهُ في ايام الناصر ٢٢٥ ذراعاً في ٢٠٥

اذرع . واغرب مافيهِ المأذنة لم يكن في مساجد المسلمين مأذنة تعدلها طولها الى موقف المؤذن ٥٤ ذراعاً والى أعلى الرمانة ٧٣ ذراعاً وعرضها ١٨ ذراعاً

ومما ابتدعه الناصر من القصور قصر الزهراء ذكروا انه بناه اجابة لطلب جارية له اسمها الزهراء على مسافة اربعة اميال من قرطبة . وهو عبارة عن بلد كبير طوله من الشرق الى الغرب ٢٧٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠٠ وعدد اعمدته او سواريه ٤٣٠٠ سارية بعضها حمل الى قرطبة من رومية وافريقية وتونس وبعضها اهداه صاحب القسطنطينية . وفيها الرخام الابيض والاخضر والوردي والمجزع . وكان في الزهراء مسجد فخيم وعدة قصور وحدائق على نحو ما تقدم في وصف القصر الكبير . وفيها البحيرات تسبح فيها الاسماك بالوانها وانواعها واحواض الرخام المنقوش على اشكال شتى بين مذهب وغير مذهب في جملتها حوض منقوش بتماثيل الانسان جيء به من القسطنطينية ونصبه الناصر في بيت المنام بالمجلس الشرقي المعروف بالمؤنس وجعل عليه ١٢ تمثالاً من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي مما صنع بدار الصناعة في قرطبة بصورة اسد بجانبه غزال الى جانبه تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل . وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحداة ونسر وكلها من ذهب مرصع بالجوهر يجري الماء من افواهها وقد انفق في بناء هذا القصر ما يزيد على ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار (١)

ناهيك بما كان في دولة الناصر من رواج العلم فقد كانت قرطبة كعبة العلم ومجتمع العلماء ومقصد باعة الكتب . وكان اقتناء الكتب من جملة ضروريات الحياة عندهم — كانوا يفعلون ذلك اقتداء بخليفتهم وابنائه

الفصل الثاني

مكتبة في قرطبة

قال جوهر خادم المكتبة « مالي أرى الناس في شاغل عن النسخ والمطالعة اليوم يا سيدي »

فاجابهُ صاحبها سعيد « انهم في شاغل عن كل شيء بالتشوف الى رسل قيصر الروم الذين جاؤا بالهدايا من قسطنطين بن ليون صاحب القسطنطينية الى مولانا امير المؤمنين

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ٩٧ ج ٥

الناصر فخرجوا من قرطبة لمشاهدة الوفد قبل وصوله . « كأنك كنت غائباً عن قرطبة ؟ »

قال الغلام « لم اكن غائباً ولكنني لم ابرح هذه الدار منذ اسبوع يا سيدي »

فانتبه سعيد وقال « صدقت . . فالخليفة لما بلغه قدوم رسل ملك الروم امر ان يتلقوا احسن تلق و بعث جماعة من خاصته يلاقونهم في بجاية وان يحسنوا خدمة الطريق فوصلوا امس الى مقربة من قرطبة فامر بارسال الجند والعدة والتعبية لملاقاتهم . فاشتغل اكثر الناس بالوقوف لهم في الطرق ومشاهدة موكبهم فلم يأتنا احد منهم »

فقال « وكيف هم رسل ملك الروم ؟ »

فاستغرب سعيد سذاجة خادمه فقال « انهم أناس مثلنا هل تحب ان تراهم ؟ »

قال « كيف لا ؟ »

قال « ولكن ذلك غير ميسور لاحد لان الخليفة الناصر امر ان ينزلوا في الربض خارج المدينة بمنية الحكم ولي العهد وان يمنعوا من ملابسة الناس وان يقام الحجاب على ابوابهم حتى لا يخاطبوا احداً ولا يراهم احد »

فقال « يا للعجب وهل يخافهم على دولته ؟ »

قال « كلا ولكن للملوك سياسات لا تفهمها . . هذا الفقيه ابن عبد البر قادم اعدد له المسند وضع له الدواة على المنضدة في غرفة المطالعة »

ولم يتم سعيد كلامه حتى وصل ابن عبد البر وهو من كبار الفقهاء في قرطبة وقد شب في حاشية الحكم ولي العهد ثم لازم اخاه عبد الله بن الناصر . وكان عبد الله يحب العلماء واهل الادب و يكثر من مجالستهم

وكان ابن عبد البر هذا يتردد على هذه المكتبة مثل كثيرين من الادباء ومحبي المطالعة . وقرطبة يومئذ في اوج مجدها واقتناء الكتب فيها من لوازم الرخاء كما تقدم بل هي كالاثاث لا يستغنى عنها في بيت من البيوت لان الخليفة نفسه كان محباً للعلم مقرباً للعلماء، وشب اولاده على ذلك وخصوصاً الحكم ولي العهد واخوه عبد الله واقتدى بهم سائر اهل الدولة — والناس على دين ملوكهم . فاصبحت تجارة الكتب من اروج التجارات عند الوجهاء واهل الرئاسة فكثر الوراقون وهم الذين يشتغلون ببيع الكتب ونسخها

وكان سعيد صاحب هذه المكتبة قد انشأها في الربض خارج قرطبة في بيت على ضفة الوادي الكبير (نهر قرطبة) فهي تطل على قرطبة عن بعد و بينهما النهر وقد جعلها اشبه بنادي مطالعة منه بمستودع كتب او دار نسخ . فكان ادباء قرطبة يتوافدون اليها للمطالعة والشراء او النسخ فيرون من سعيد مؤانسة ولطفاً وتساهلاً و يلتذون بمعاشرته لسعة اطلاعه ودماثة

اخلاقه . وكان كثير الاحتفاء على الخصوص بابن عبد البر . وهذا يحسب احتفاءه به مبنياً على انتفاعه منه بكتاب بيعه على يده لولي العهد او لاخيه عبد الله بن الناصر . لان الفقيه كان معدوداً من خاصة عبد الله وكان هذا مغرماً باقتناء الكتب فاذا سمع بكتاب بذل في سبيله الاموال الطائلة حتى يقتنيه . وكثيراً ما كان يبتاعها من عند سعيد بواسطة ابن عبد البر — ولكن احتفاء سعيد كان لغرض آخر يقصر ابن عبد البر عن ادراكه

فلما اطل الفقيه من باب الحديقة خف سعيد لاستقباله في الدار ورحب به فدخل وعلى وجهه امارات العجلة فتجاهل سعيد وهش له وقال « ما بال الفقيه قد ابطأ علينا اليوم العله كان في جملة الذين خرجوا لمشاهدة رسل القسطنطينية ؟ »

فقال وهو يخرج يده من جيب جبته وفيها لفافة من الورق « كلا لم اذهب معهم ولكني شغلت بالمطالعة .. هل في مكتبتك كتاب البيان والتبيين للجاحظ ؟ »

قال « كيف لا .. اظنك تشتغل باعداد خطبة لتلوها في يوم الاحتفال باستقبال اولئك الرسل في حضرة الخليفة »

ففحك ضحكة اعجاب بنفسه ولم يجب وظل ماشياً وهو يصلح عمامته ويخرج منها قلماً كان قد غرسه فيها لما قام مسرعاً من منزله لمراجعة شيء في كتاب البيان والتبيين — ومشى سعيد أمامه الى خزانة الكتب وهي عبارة عن غرفة واسعة فيها رفوف مسمرة بالحائط وعليها الكتب مرتبة حسب مواضيعها واكثرها من كتب الادب ولم يكن يتجاسر على التظاهر بكتب الطبيعيات والفلسفة لان اصحابها كانوا متهمين بالكفر . وبدلاً من ان يأمر الخادم الموكل بحفظ الكتب ان يستخرج كتاب البيان ويقدمه للفقيه اسرع سعيد بنفسه وحمله اليه مبالغة بالاكرام . فتناول ابن عبد البر الكتاب وجلس على المسند المعد له وهو يقول « ان هذا الكتاب عندنا منه عدة نسخ في مكتبة مولانا الامير عبد الله ولكنني احببت ان اخلو به هنا بجوارك ياصاحبي »

فقال سعيد « ان ذلك من حسن حظي يا مولاي » وتركه وانصرف الى ناحية من المنزل تشرف على النهر وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل فرأى الناس في القوارب عائدين من ملاقاة الوفد . وفهم من حديثهم ان الرسل وصلوا الربض ونزلوا في منية الحكم . فوقف هنيهة ساكناً واستغرق في تأملاته حتى نسي موقفه ولم ينتبه حتى ناداه جوهر الخادم فالتفت فاذا هو يشير اليه ان يأتي واسرع نحوه وهو يقول والدهشة بادية في وجهه « ان ياسراً نفى امير المؤمنين ... » وتلعثم لسانه من الدهشة

الفصل الثالث

ياسر كبير الخصيان

فاستغرب سعيد قدوم ياسر في ذلك اليوم وكان قد سمع بخروجه هو وتمام الفتى الآخر لاستقبال رسل الروم مبالغةً في اكرامهم. لان ياسراً وتماماً كانا كبيري الخصيان في القصر بما يشبه الباش آغا الآن وكان للخصيان في ذلك العهد سطوة ونفوذ لانهم اصحاب الخلوة مع الناصر وحرمه و يدهم القصر السلطاني . فارسال كبيري الخصيان لملاقاة اولئك الرسل يعدُّ من المبالغة في الاكرام

وكان ياسر طويل القامة ابيض الطلعة لانهُ من الصقالبة البيض ازرق العينين غائرهما عريض ما بينهما بارز الوجنات اجرد الوجه مثل سائر الخصيان

فاستقبلهُ سعيد وهشَّ لهُ ورحب بهِ فرأى في وجههِ انقباضاً فتجاهل وقال « اهلاً بالاستاذ ياسر .. » ودعاه للدخول الى قاعة المطالعة للاستراحة

فردَّ ياسر التحية بصوت رفيع كصوت الاحداث مثل اصوات سائر الخصيان ولم يبتسم كعادتهِ ولكنهُ اطاع سعيداً ومشى معهُ حتى جلس على كرسي قدمهُ لهُ فجلس وهو يتلفت فقال سعيد « هل يأمر مولاي بشيءٍ اقدمهُ ؟ من كتاب أو قلم أو ورق ؟ »

قال « لا .. ولكنني حسبت الفقيه محمد بن عبد البر دخل هذا المكان »

قال « نعم ياسيدي وهو يطالع في الغرفة الاخرى هل ادعوه ؟ »

قال « كلا .. دعهُ في عملهِ »

فاراد سعيد ان يستجسهُ فقال « ألم يخرج الأستاذ لملاقاة رسل صاحب القسطنطينية اليوم .. ؟ »

قال « بلى خرجت وانا عائد الآن وقد وصل القوم الى الربض فاقمنا عليهم الحرس حتى يأمر امير المؤمنين باستقدامهم اليهِ » قال ذلك وفي خاطره شيءٌ يكتمهُ

فقال سعيد « سيكون يوم استقبالهم حافلاً .. اين يكون ذلك يا ترى ؟ »

قال « في القصر الزاهر من قصور الخلافة انهم يهيئون المكان منذ ايام »

قال « كنت احسبه يستقبلهم في قصر من قصور الزهراء الفخيمة »

قال « ولكنهُ امران يهيئوا القصر الزاهر لهذهِ الغاية »

قال « انهُ سيكون مشهداً جميلاً في داخل القصر »

فادرك ياسر انه يعرض برغبته في الحضور فقال « اذا شئت الحضور فادخل برفقة

الفقيه ابن عبد البر فلا يعارضك احد . وان كنت انا في جملة المرحبين فلا بأس عليك »
قال ذلك و بلع ريقه كانه يخفي امتعاضاً خامره . وكان سعيد يراقب كل حركة تبدو منهُ فلما لحظ امتعاضهُ قال وهو يظهر الاستغراب « أرى الاستاذ يشك في كونه احد المرحبين وهل يتقدمهُ احد في ذلك .. ؟ لا ريب انك ستكون في مقدمة المستقبلين »

فقال ياسر وفي صدره شيءٌ يودُّ التصريح به ليشفي ما في نفسه من الغيظ ولكنه امسك وقال « من الممكن ان لا اكون انا هناك »

فضحك سعيد واظهر انه لم يصدق كلامهُ وقال « كلا انك ستكون في صدر البهو... أنا اعرف منزلتك عند امير المؤمنين »

فنهض ياسر فجأة ووضع انامله على فم سعيد كانه يتلطف في اسكاته وابتسم وقال « كانت تلك المنزلة ... ولكن » وخاف ان يخونهُ لسانهُ فيقول ما يندم عليهِ فتظاهر بتغيير الحديث وقال « اني أرى اناساً قادمين اليك ولا احب ان يعلم احد بمجيئي الى هنا اليوم.. استودعك الله » قال ذلك وخرج وغادر سعيداً يفكر في سبب مجيئه وفي ما بدر منه من الالفاظ القليلة العدد الكثيرة المادة وقد همهُ الاطلاع على ما في نفس ياسر

وبعد قليل أخذ الناس يتوافدون الى منزل سعيد وكل منهم يشتغل بشيءٍ من كتابة أو نسخ أو مطالعة واذا احوجهم الاستفهام عن امر اشكل عليهم عمدوا الى سعيد وهو يرشدهم الى ما يريدون . وكانوا يعتقدون الصدق في ما يقوله ولو خالف المعقول لانه كان قوي الحجة قوي العارضة وكان في عينيهِ شيءٌ كالمغناطيس اذا نفرس في عيني جليسهِ تغلب عليهِ كأنهُ نوَّمهُ بالمغنطيسية الحيوانية فلا يشعر الجليس الا وهو طوع ارادته

وكان سعيد الوراق هذا في نحو الاربعين من عمره صحيح البنية عريض الكتفين قوي العضل كبير الدماغ تتجلى الرزانة في جبينه والذكاء في عينيه والثبات حول شفتيه . ولا يكفي التعبير عن حدة عينيه بالذكاء فان فيهما قوة ارقى من ذلك فيهما قوة الاقناع او هي المانتزم لانهُ لا يباحث احداً الا اقنعه . وكان خفيف العارضين واللحية قلما يضحك ولكن الابتسام خلقة في وجهه . وقد مضى عليه بضع سنين يشتغل بالوراقة في قرطبة او يتجر بالكتب ولم يعامله احد الا اعجب باخلاقه العالية وذكائه المفرط . فكان الادباء من الفقهاء واهل الدولة يترددون الى منزله كما يجتمع الناس في ناد للمطالعة والاستفادة ولكنه كان يشترط ان يكون ذلك في النهار فاذا غربت الشمس اقفل الباب

فلما رأى الناس يتوافدون في ذلك اليوم امر خادمه وليس هو خصياً مثل سائر خدم قرطبة فان اهلها قلدوا اميرهم باقتناء الخصيان — على اختلاف اجناسهم وهي كثيرة يومئذ

وكانوا يحملونهم من اطراف العالم الى دار الاسلام وخصوصاً الاندلس لانها كانت اكثر الممالك الاسلامية رخاء في ذلك العهد — وانما كان خادم سعيد بربرياً من اهل المغرب في نهاية السذاجة

الفصل الرابع

تليد خازن كتب الحكم

اشتغل جوهر بتقديم ما يحتاج اليه القوم . وتوجه سعيد الى الغرفة التي فيها ابن عبد البر فرآه منهمكاً بالمطالعة يكتب في كاغد بيده وهو يتأمل بما يكتبه وقد نزع عمامته واستغرق في التفكير . وبينما هو ينظر اليه سمع وقع خطوات وراءه فالتفت فرأى تليداً صاحب خزانة كتب الحكم ولي العهد قادماً على عجل — وهو خصي وجيه . فتحول سعيد للترحيب به فرآه يشير اليه بسبابته على شفته ان يسكت فسكت . وتقدم تليد حتى اطل على ابن عبد البر خلسة فلما رآه مستغرقاً بالكتابة همس في اذن سعيد « ان الفقيه يهيئ خطاباً ليتلوه بين يدي امير المؤمنين غداً فينال منصب قاضي القضاة » قال ذلك وهز رأسه استخفافاً ورجع وهو قابض على يد سعيد حتى دخلا غرفة اخرى وابن عبد البر لم ينتبه

فمشى سعيد معه وهو ينتظر ما يبدو منه فاذا هو يقول له « بلغني ان رجلاً من بني امية اسمه ابو الفرج الاصفهاني الف كتاباً في الاغاني هل سمعت عنه شيئاً ؟ »

قال « سمعت انه يؤلف هذا الكتاب من عهد بعيد ولا ادري اذا كان قد اتمه الآن »

قال « سمعت انه احسن كتاب في الادب »

قال سعيد « نعم وقد بلغني انه قضى معظم حياته في جمعه وتأليفه وهو يغني عن سائر الكتب »

قال « بلغ مولاي الحكم خبر هذا الكتاب وان مؤلفه اموي مثله فاحب اقتناءه وهو يبذل ما تشاء للحصول عليه »

قال « سأبعث في طلبه من العراق لان صاحبه مقيم هناك »

قال « افعل ... ولا تذكر خبر قدومي اليك ولا خبر هذا الكتاب ... فهمت ؟ »

فاجاب « نعم » وقد ادرك انه يريد ان يخفي ذلك خصوصاً عن ابن عبد البر لاتصاله بعبد الله شقيق الحكم وكان عبد الله ينافس اخاه الحكم في اقتناء الكتب فاذا سبق احد هما

الى اقتناء كتاب جديد عد ذلك فخراً له

وودع تليد سعيداً بالاشارة وهم بالخروج فتبعه سعيد الى الباب وقال له « هل كنتم في جملة الخارجين لملاقاة رسل الروم .. ؟ يا حبذا لو كنت معكم »

قال « لا لم اكن »

فقال « لو كنت لم يحدث شيء يغضب ياسراً » قال ذلك وهو لا يعرف شيئاً عما اغضبه وانما اراد الاستطلاع

فقال تليد « وهل بلغك ماحصل ؟ اني أرى ياسراً محقاً في غضبهِ لان تمامَ مع انه اقرب عهداً في خدمة القصر نراه قد شمخ بانفه عليهِ و يريدان يتقدمهُ في المجالس وفي الاحتفالات. ولكن ياسراً عاقل لااظنه يحاسبه عَلَى هذه الجسارة » قال ذلك وودعه وهو يقول لاتذكر خبر قدومي لاحد

فادرك سعيد سبب غضب ياسر واستبشر بهِ وكتمه وعاد الى عمله

ولما دنت الشمس من المغيب اخذ الزوار في الانصراف وابن عبد البر مستغرق في درسهِ وكتابتهِ ولم يشأ سعيد ان ينبهه .. خرج الجميع ولم يبق هناك غيره فانتبه لنفسهِ لما غابت الشمس وخيم الظلام وهمَّ بالنهوض فرأى جوهر الخادم يحمل اليهِ سراجاً مضيئاً وهو يقول « ان مولاي قد بعث اليك هذا السراج تستضيئ بهِ حتى يتم عملك »

الفصل الخامس

عابدة

فشكر له اختصاصه بهذا الاكرام وظلَّ جالساً يكتب وقد خفت الضوضاء . وهو في ذلك سمع وقع اقدام خارج غرفته فالتفت فلمح شبحاً مرَّ بها يشبه ان يكون امرأة حاسرة الوجه جميلة الطلعة . فاستغرب ذلك وانصت لعلهُ يستطلع شيئاً فسمع سعيداً يرحب بالقادم بصيغة التأنيث فحملهُ حب الاستطلاع عَلَى رؤية الفتاة فنهض واطلَّ من الباب وهو يتجاهل فرأى فتاة كالقمر طلعة والخيزران قواماً تخاطب سعيداً بلسان فصيح يدلُّ عَلَى علم وأدب . وسعيد يقول لها « اتيتِ اهلاً ووطئتِ سهلاً ياعابدة لقد طال انتظاري قدومك »

فقالت « لم يكن تأخري عن عمد ولكنني شغلت بمطالعة كتاب العقد الفريد لابن عبد ربهِ ونسخهِ فان هذا الرجل قد جمع فيهِ ما لامثيل لهُ في سواه من العروض والشعر والاخبار والامثال والتاريخ ناهيك بالفوائد الصحية والعظات الدينية وقد نظم اعمال امير المؤمنين شعراً وتوفي وهو ينظمها منذ ثماني سنوات (توفي ابن عبد ربه سنة ٣٢٨ هـ) » قالت

ذلك واخرجت من تحت ردائها صرّة كبيرة وقالت « وهذه هي النسخة التي نسختها »

فتناولها سعيد وهو يقول « انت نسختها بيدك ؟»

قالت « نعم نسختها بيدي و ارجو ان تعجبك »

فاخذ سعيد يقلب فيها و يتصفحها وهو يقول « ان هذا الكتاب نادر المثال ومع ان صاحبهُ توفي في هذه المدينة منذ بضعة اعوام فاني لم اجد نسخة منهُ بمثل هذا الخط وهذا الضبط » قال ذلك وهمّ بالمسير نحو غرفة ابن عبد البر وهو يقول « اظن هذه النسخة تليق بخزانة الامير عبد الله بن امير المؤمنين »

فلما رآه ابن عبد البر يتقدم نحوه عاد الى مجلسه واظهر انه كان مشتغلاً بالكتابة فلما وصل سعيد الى الباب قال « هل يأذن الفقيه بالدخول »

قال « تفضل وادخل »

فدخل والكتاب بيده واشار الى الفتاة ان تدخل فدخلت وهي حاسرة الوجه والذكاء يتجلى في عينيها فدهش الفقيه لرؤيتها واستغرب كشف وجهها عَلَى هذه الصورة وظنها لاول وهلة نصرانية او يهودية لان اليهود كانوا يعنون بالادب العربي . والتفت الى سعيد وهو ينتظر ما يبدو منه فاذا هو يقدم له الكتاب و يقول « جاءتني هذه الاديبة بهذا الكتاب مكتوباً بخط يدها وهو العقد الفريد لابن عبد ربه واظن في مكتبة مولانا الامير عبد الله عدة نسخ مثله »

فتناول الفقيه الكتاب وهو ضخم واخذ يقلبه عَلَى ضوء السراج و يعجب بجمال خطه وضبطه وقال « نعم فيها منه عدة نسخ ولكن لا مثيل بينها لهذه النسخة واظن مولانا الامير يرغب في اقتنائها اذا ارادت هذه الحسناء بيعها .. وهل هي خطها بيدها ؟ » ورفع بصره اليها

قال سعيد « نعم .. وهل تستغرب ذلك ؟ فكيف اذا عرفت انها تعي هذا الكتاب وعشرات مثله في ذهنها .. فلا تسألها عن شعر جاهلي او اسلامي الا قالته »

فقال ابن عبد البر « ما شاء الله .. ان ذلك نادر في النساء »

فقال سعيد « وفوق ذلك فهي تحسن الغناء والضرب عَلَى العود »

فدهش الفقيه وجلس وهو يفكر بما يسمعه وقال « واغرب من ذلك انها نصرانية او اسرائيلية عَلَى ما اظن »

قال « كلاّ بل هي مسلمة »

قال « ولكني اراها مكشوفة الوجه ... واظن بهذا الجمال ان تبتذله العيون »

فالتفت سعيد الى الفتاة كانه يطلب اليها ان تجيب عن نفسها فقالت بالفاظ رخيمة

لها وقع على النفس اشد من وقع معانيها «لا ارى داعيا الى تغطية الوجه الا ضعف النفس. واني على رأي عائشة بنت طلحة. فقد كانت تجالس الرجال ولا تحجب وجهها عنهم ولما سئلت عن ذلك قالت: ان الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال احببت ان يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم فما كنت لاستره ووالله ما فيّ وصمة يقدر ان يذكرني بها احد»

فلما سمع الفقيه كلامها زادت دهشته والتفت الى سعيد وقال همساً «من هي؟»

قال «هي جارية من مولدات بغداد»

فهز الفقيه رأسه اعجاباً وقال «لله در بغداد كم يخرج منها.. ان مثل هذه الجارية جديرة ان تكون في دور الخلفاء. او الامراء»

فقطع سعيد كلامه قائلاً «الا تظن مولانا الامير عبد الله يجب اقتناء هذه النسخة من العقد الفريد» واشار الى الكتاب بيده

ففهم الفقيه ان سعيداً لا يجب ان يذكر خبر اقتناء الجارية بين يديها فاجابه «لا اشك في ذلك.. فاذا قدمته اليه بعد الفراغ من الاحتفال القادم اخذه واكرمك وانا اذكر له خبرك قبل قدومك واذا رأيت ان تأخذ هذه الحسناء معك ليراها ويسمع حديثها كان ذلك باعثاً على رضاه وسروره»

قال «سنفعل.. والآن متى يكون الاحتفال باستقبال رسل القسطنطينية؟»

قال «اظنه لا يكون قبل بضعة عشر يوماً على عادة امير المؤمنين من تأجيل المقابلة زيادة في الارهاب»

قال «اني شديد الرغبة في حضور ذلك الاحتفال»

قال «ساصطحبك معي. ومتى آن الوقت اتيأتك وذهبنا معاً»

فشكر له وهم بالخروج فقال الفقيه «قد آن لي ان انصرف فاذن لي اذا شئت»

قال «لك الخيار يا سيدي. ولا بأس عندي من بقائك هنا في عملك واذا اردت كتباً اخرى غير البيان والتبيين قدمته مع السرور. وهذا كتاب العقد الفريد بين يديك ولعله يفيدك في ما تحتاج اليه في خطبتك من الشواهد التاريخية او الحكم او الامثال.. تفضل اجلس»

فشكر ابن عبد البر احتفاءه وقال «يكفي الآن ما قرأته»

قال سعيد «اظن خطبتك ستكون جامعة واعية وارجو ان تنتفع بها فاذا انتفعت بها عاد ذلك بالنفع على اصحابك ولكن لا ادري اذا كنت تعدني من الاصحاب..»

فخجل ابن عبد البر من هذا الاطناب وقال «انك من اعز الاصدقاء يا سعيد واذا

وفقني المولى ونلت المنصب الذي اتوقعه بعد هذا الاحتفال رأيت مني ما يسرك فادع لي »

قال « اني ادعو لك بكل خير واراك اهلاً لاكبر المناصب العلمية . فمن اولى منك برئاسة القضاة او الخطباء ؟ »

الفصل السادس

المانيتزم

فتظاهر ابن عبد البر بالتواضع واسرع فوضع اوراقه في جيبهِ وخرج . فشيعه سعيد الى الباب ثم امر خادمه ان يوصد البـاب وراءه فلما سمع ايصاده تنهد تنهداً طويلاً وعاد الى موقف الجارية فاذا هي لا تزال واقفة في انتظاره . فلما استقبلها نظرت اليـه بعينين براقتين تكادان تنطقان وقالت « هل تأذن بانصرافي ايضاً ؟ »

فاشار اليها ان تجلس وتلفت حتى يتحقق خلو المكان من الرقباء فجلست عَلَى وسادة في غرفة ليس فيها غير بساط ومناضد صغيرة لوضع الاقلام أو الكتب أو ادوات الكتابة وسراج قائم عَلَى مسرجة يخفق لهيبهُ فيتطاير سناجهُ في تلك الغرفة همساً كما تتصاعد زفرات عابدة ولا يشعر سعيد بها أو لعلهُ شعر وتجاهل

فلما تمددت قعد أمامها وهي تنظر اليـهِ فلما وقع بصرها عَلَى بصره بادرت الى الاطراق لانها لا تطيق النفرُّس في عينيهِ لحظة فاذا فعلت أحست كأن سهاماً تخترق بصرها الى احشائها أو هي اشعة كهربائية تنفض لها جوارحها . ولم يكن هو يجهل ذلك ولكن مطالبهُ غير مطالبها فلما اطرقت قال لها « ما بالكِ لا تنظرين اليَّ »

قالت « ألا تعلم اني لا استطيع النظر الى عينيك ؟ »

قال « كنت احسبك تفعلين ذلك حياء »

قالت « لم يبقَ باعثاً عَلَى الحياء بيننا وقد اطلعتك عَلَى مكنونات قلبي وتفاهمنا ملياً »

قال « يسرُّني انكِ فهمتِ مرادي وذهب سوء الظن »

قالت « نعم فهمت . ولكن يظهر لي ان هذا الانتظار لا آخر لهُ وانت قانعٌ ببيع الكتب ونسخها ومقابلة الناس ومحاسنتهم » قالت ذلك وابرقت عيناها وظهر الارتباك في شفتيها كأنها تخفي شيئاً تريد ان يفهمهُ سعيد بدون ان تقولهُ

أما هو فاحسَّ بحدة ذلك التوبيخ فتغيرت سحنته وقال « لست ورّاقاً ولا ناسخاً كما تعلمين وانما انا . . » والتفت خوفاً من ان يسمعهُ احد وسكت وهو يحرق اسنانهُ

فقالت « لا تغضب ياسيدي . ولا تحسبني أُعاتبك ولكني استبطئُ النجاح .. ان شبابنا كاد ينقضي في هذه الديار مستترين .. »

فرفع بصرهُ اليها وقال « يعجبني منك حماسك في سبيل الامر الذي جئنا هذه الديار من اجله ولا تظنيني جاهلاً مرادك فانا اعلم انكِ ارقى نفساً من ان يكون مطلبك مني مثل مطلب سائر النساء الجاهلات . وقد تعاقدنا وتعاهدنا عَلَى ذلك . وأما استبطاؤك النجاح فقد يكون في محله وقد تكونين مخطئة فان لكل اجل كتاباً .. وهل تحسبينني غافلاً ... ولكن اعلمي يا عابدة ان الساعة دنت وفتح باب الفرج الآن .. واصبح اتمام العمل عليكِ » قال ذلك ونفرس في وجهها

فتحمست وقالت « عليَّ أنا ؟ . اني طوع اشارتك ... متى بلغ من الامر ان يكون قضاؤه عليَّ فقد انقضى »

فاعجب بذلك القول الدال عَلَى قوة العزيمة والحزم وقال « اتطيعينني ؟ »

فتنهدت وقالت « وهل اقدران اعصاك .. لا اعلم ما بعينيك من التأثير في خاطري .. اني لا يقع بصري عَلَى بصرك الا شعرت كانك غلبتني عَلَى امري وقيدت ارادتي بارادتك فاشعر كاني عضو من اعضائك يخضع لارادتك ويعصاني . فكيف تسألني اذا كنت اطيعك؟ »

قالت ذلك واطرقت حياء

فقال « تطيعينني حتى الموت ؟ . »

قالت « حتى الموت وبعد الموت »

قال « لا اعني ان تعرضي نفسك للموت بل اعني اذا اقتضت الحال ان تقتلي احداً بيدك هل تفعلين .. ؟ »

قالت « اذا كان ذلك في امكاني افعلهُ » قالت ذلك وقد احست بقشعريرة خفيفة وسكتت

فتحفز للوقوف وهو يقول « اني ذاهب الساعة الى الاجتماع »

فتنهدت وقالت « ألا يزال القوم يجتمعون كالعادة »

قال « نعم وهم يزدادون عدداً وقوة حتى دخل في جمعيتنا هذه كل رؤساء القبائل الناقمة عَلَى الناصر وفيهم آل حفصون الذين غلبهم عَلَى امرهم وجماعات كتامة وغيرهم من البربر وانما نحن نترقب الفرص »

قالت « وهل هم يعتقدون حتى الآن انهم يجتمعون لاصلاح داخلية بلادهم »

قال « ان المفهوم من اغراض هذه الجمعية عند اعضائها انها تشكو من إيثار الناصر

للخصيان الصقالبة على ابناء العرب أو غيرهم من الاحرار . وتنتقد بذخه واسرافه . هذا كل مايفهمونه من الاغراض . وليس في هذه البلاد من يفهم حقيقة الغرض الاصلي الا انت وانا فابقي على الكتمان »

فاطرقت لحظة وقد بدا الاهتمام في جبينها وقالت « دعني اذهب معك »

قال « ولماذا ؟ »

قالت « افعل كما تفعلون .. لعلي استحث القوم على العمل »

قال « احسنتِ هيا بنا » ونهض فنهضت معه وقد التفت بردائها فامسك بيدها وخرج من باب آخر في المنزل ومشيا في الظلام وهي لا ترى شيئاً ولو مشى بها الى الجحيم وهو قابض على يدها لمشت ولم تبالِ لانها اسيرة ارادته كما يخضع من ينام نوماً مغنطيسياً لارادة منومه بالاستهواء

مشيا مدة بين صعود وهبوط وقد بعدا عن الابنية حتى وقف بها في مكان سمعت فيه عنين ساقية وخرير ماء فقال « وصلنا »

الفصل السابع

الاجتماع

فنظرت الى ما حولها فرأت بين يديها ماء يجري في نهر عرفت ذلك من لمعان سطحه في الظلام فقالت « نحن على ضفة الوادي الكبير (نهر قرطبة) »

قال « اصبري » وأخذ بيدها وادخلها دهليزاً شديد الظلام بجانب الساقية فتلمسا الحائط حتى اطلا على باب فاستخرج سعيد من جيبه مفتاحاً فتحه به ودخل واقفله وراءه وعابدة تحملق بعينيها من شدة الظلام فاذا هي ترى شعاعاً ضعيفاً ما زال يشتد حتى ظهر فرأت نفسها عند باب مقفل المقدم سعيد وقرعه قرعاً مخصوصاً ففتح له ونظر الى عابدة على النور فرأى سحنتها قد تغيرت لشدة القلق في اثناء الطريق فاشار اليها ان ترخي النقاب ففعلت ودخل أمامها . ثم امرها ان تدخل ومشى بها الى مجلس في صدر القاعة فاجلسها على وسادة الى جانبه وتفرست في الوجوه فرأت شيوخاً وشباناً عرفت بعضهم ورأت أناساً بينهم من رجال الدولة المروانية انفسهم فتهيبت برهة ثم سمعت سعيداً يتكلم فقال « ياقوم نحن الآن في جلسة مقدسة وقد اتيت بهذه الاديبة من اهل دعوتنا لتعلموا ان النساء يشاركننا في النقمة على الحالة الحاضرة .. فالى متى نحن صابرون ؟ »

فنهض رجل من الحضور وهو في عنفوان الشباب وقال « نحن صابرون لصبرك . قم بنا فاننا قائمون »

قال « صدقت .. ولكنني لا أرى العجلة تنفع . ان الامر الذي نحن ساعون فيهِ يحتاج الى إعمال الفكرة . نحن ساعون في المطالبة بحق ضائع . ان هذا الرجل الذي سمى نفسهُ خليفة وتلقب بامير المؤمنين قد استبد بالاحكام واخرج المناصب من اهلها فسلمها الى جماعة من الخصيان والعبيد حملوا اليهِ حمل الاغنام من اقصى الشمال فاشتراهم كما يشتري الماشية ثم اختصهم بقربهِ واغفل اهله وابناء عترتهِ . ولم يبقَ الا ان يولي القضاء فتى من فتيانهِ الصقالبة أو الافرنج .. انهُ ينفق الاموال في بناء القصور واقامة التماثيل ويصنع حجارة البناء من ذهب وقد نهى الله عن ذلك [1] ان الذين فعلوا هذا قبلهُ اضاعوا الدولة والمملكة فتبصروا في امركم »

فنهضت عابدة والنقاب لا يزال على وجهها وقالت « اني فتاة لا اعلم علمكم ولكنني اعلم ان طول الصبر عجز وان المبادرة حزم — ان عبد الرحمن صاحب هذا البلد قد افرط بالاسراف وحط من قدر العرب وغيرهم من المسلمين الذين هم اصل هذا الدين وعماده فعهد باكثر مناصب الدولة الى الخصيان والعبيد واستكثر من هؤلاء حتى غصت بهم قصوره وابتنى قصر الزهراء عَلَى اسم جاريتهِ وملأهُ بالخصيان والجواري والعبيد . ان في هذا القصر وحده ١٣٧٥٠ فتى من الخصيان وفيه من الصبيان الصقالبة ٣٧٥٠ وعدد النساء الصغار والكبار فيه ٦٣١٤ ما فائدة الدولة من هؤلاء وهو ينفق عليهم الوف الوف الدنانير من مالها .. اتعلمون كم مقدار النفقة ؟ ان احصاءها فوق طاقتي ولكنني اذكر لكم مقدار ما ينفق لاطعام اسماك احدى بحيرات الزهراء .. علمت ان مبلغ ذلك في اليوم ١٢٠٠٠ خبزة وستة انفزة من الحمص — تلك هي نفقة طعام اسماك احدى البحيرات فكم يكون مقدار النفقة عَلَى سائر حيوانات لتلك القصور من الخيل والاسود والكلاب بل كم هي نفقة اولئك الالوف من الخصيان والعبيد . واغا البلية من كثرة النساء لان كثرتهن تكثر الخصيان .. هل فيكم من يقدر ان يعرف مقدار النفقة ؟ كلا .. ولكنكم تعرفون جميعاً انها باهظة »

كانت تقول ذلك بصوتها الرخيم فلما وصلت الى هنا بلعت ريقها وسكتت هنيهة ثم عادت الى الكلام فقالت « وهؤلاء الخصيان المجلوبون بالشراء اصبحوا الآن كبار رجال الدولة كصاحب الخيل وصاحب الطراز وقد اتخذ منهم جنده وحاشيته وجالسهم وقربهم .

(١) المقري ج ١

واصبح اذا اراد ان يكرم وافداً بعث اليه خصياً يستقبله كما نفعل اليوم بانفاذه ياسراً وقاماً لاستقبال رسل ملك القسطنطينية . وقد اتخذ من العبيد ايضاً جنداً وحاشية واهمل العرب والبربر الذين فتحوا هذا البلد وجاهدوا في سبيل الاسلام — ان اعماله هذه دليل على قرب سقوط هذه الدولة . ولا يغرنكم ما تسمعون به من الذهب ولا ما تشاهدونه من اسباب الرخاء والترف فقد كان مثل ذلك او اكثر منه في الدولة العباسية على عهد الرشيد والمأمون ولكنهم اهملوا اهل عصبيتهم فاستقووا بالاتراك يتحاربون بهم . فصار النفوذ الى الاتراك وهو صائر هنا الى الخصيان ان لم تمنعوه بمبادرتكم . ويكفي لفتاة مثلي ان تقول ذلك واذا رأيتم اني استطيع عملاً اندبوني له والسلام »

وكانت تتكلم والحضور كأن على رؤوسهم الطير وقد احسوا بتهاملهم فنهض شاب متحمس وقال « اني افدي الامة بنفسي اندبوني للقتل او الفتك . . ان اهلي وعترتي يعدون بالمئات وهذا دمي بين ايديكم »

وصاح صائح بمثل ذلك وعلت الضوضاء فوقف سعيد وقال « لا حاجة بنا الى العجلة انظروني فاخبركم بالوقت المناسب . لكنني اقدم اليكم ان تجعلوا نصب اعينكم ان هذه الدولة لا بأس من بقائها وانما العيب في اميرها ولا نرى ولي عهده الا مثله فان اقرب المقربين اليه خصي صقلبي هو جعفر . فاذا صارت الخلافة اليه هل يرجى منه غير ما نراه من اميه ؟ لقد اعمى عبد الرحمن ابصار الناس بالابهة والزخرف . . . اعماها بالقصور التي بناها لجاريته . وابنه الحكم سيكون مثله . . ولا بد من النظر في من يصلح للملك سواهما . . . على اني اشكر لهذه الفتاة التي اتتنا الليلة وبثت فينا روح النشاط والهمة وهي نفسها سيكون لها شأن في هذا العمل الجليل »

وبعد قليل انفضت الجلسة وقد اقسم كل منهم على الكتمان والثبات وعاد سعيد ومعه عابدة من حيث اتيا حتى اذا وصل منزله قال لها « لقد اعجبتني لانك لم تذكري دولة العبيد بين ولا قلت شيئاً عن الشيعة لئلا يستغشونا »

فقالت « الم اقل لك اني اشعر كأني عضو من اعضائك انما اقول ماتوحيه اليّ ويكفي ان تريد ذلك وان لم تقله والآن اسمح لي بالانصراف »

قال « موعد اللقاء يوم الذهاب الى الامير عبد الله نقدم له العقد الفريد وانا ابعث اليك بالخبر في حينه »

فحنت راسها ايجاباً وابتسمت وانصرفت وهي تلتفت اليه وكان خادمها الخصي في انتظارها خارجاً ليمشي في خدمتها الى منزلها

الفصل الثامن

المناجاة

انصرفت عابدة وسعيد يشيعها ببصره ثم وقف حيناً وهو غارق في بحار الهواجس ينظر الى الارض وهو تارة يحك ذقنه بسبابته واُخرى يتشاغل باصلاح قبعة كان يلبسها على رأسه كالعرقية والخادم واقف و بيده المصباح ينتظر امره ولا يجسر ان يخاطبه تهيباً مما في وجههِ من ملامح الاهتمام والارتباك . ثم انتبه سعيد لنفسه ومشى الى غرفة الرقاد واشار الى الغلام ان يضع المصباح هناك و يمضي

ثم نهض سعيد واغلق باب الغرفة واستلقى على فراشه ولم يبدل شيئاً من ثيابه كأنه لا ينوي الرقاد في تلك الساعة لما قام في ذهنه من التذكارات المقلقة . ظل مستلقياً برهة وهو غارق في التفكير ثم جلس فجأة واخذ يناجي نفسه قائلاً « ماذا اعمل ؟ انها تحبني ... تحبني كثيراً ولكنني لا اشعر اني احبها .. بل لا اقدر ان احبها مع انها جميلة وذكية و .. لماذا لا احبها وارتاح قلبي من التفكير بسواها ؟ .. » ولطم كفه على جبينه وحرق اسنانه ونهض واخذ يمشي في الغرفة ثم وقف وقال « مسكينة عابدة انها جميلة واديبة وذكية وهي تحبني بل هي تعشقني وتستهلك في سبيل مرضاتي ... فلماذا لا احبها ؟ . لماذا لا احبها وانزع صورة تلك القاسية القلب الشامخة الانف من ذهني .. نعم ينبغي لي ان ابغض هذه وارذلها واطرد خيالها من خاطري .. آه اني اذا فعلت ذلك فانا سعيد البطل الحازم واكون اهلاً للامر الذي يحسبني هؤلاء اسعى فيه واني انما قمت هنا نصرة للمظلومين ودفعاً لظلم الظالمين .. نعم ينبغي ان يكون هذا غرضي الوحيد نعم اذا طردت ذلك الخيال من خاطري خيال تلك المتكبرة القاسية .. اذا نزعتها من فكري واحببت عابدة — اذا فعلت ذلك يرتاح قلبي واتفرغ للعمل العظيم الذي يتوقعه الناس مني .. نعم هكذا يجب ان اعمل هكذا يجب ان يكون سعيد القائد الحكيم الحازم .. »

قال ذلك واخذ يخلع ثيابه فخلع الفراجية وعلقها بوتد في الحائط ثم نزع القبعة ودار وهو لا يدري اين يضعها لاضطراب خاطره فرمى بها الى الارض واطفأ المصباح واستلقى فعادت اليه هواجسه وهجره النوم وتراكمت عليه الخيالات . فجعل الغطاء فوق رأسه كأنه يختبئ من الخيالات فلم يرها الا تزداد وازداد تنبهه حتى سمع دقات قلبه باذنه فصبر عليها فاخذته سنة الوسن هنيهة فرأى حلماً ازعجه فوثب من الفراش كالمجنون

وهو يقول « لا لا ... يجب ان احب عابدة التي تكاد تعبدني .. وانزع تلك الصورة من خاطري . والاَّ فما انا سعيد كما يسمونني .. ما بالي لا اشعر اني قادر عَلَى ذلك .. ما هـذا الخيال الذي يتردد امام عينيَّ ؟ .. اذهب عني ... دعني وشأني اني قد عزمت عَلَى السلو .. كيف لا ... اني أشعر بقوة أقدر ان ازحزح بها الجبال واغالب اعقل الناس وأدهاهم افلا اقدر عَلَى امتلاك قلبي .. ماذا ارى .. هذا خيالها ..» واطبق كفيه عَلَى عينيهِ كأن امامه شبحاً لا يريد ان يراه وقال « اذهبي عني .. دعيني وشأني قد آن لي ان ارجع الى رشدي وقد ادركت الاربعين .. فيجب ان انسى عواطف ابناء العشرين والثلاثين .. نعم يجب ان انساها لانها نسيتني وعلقت بسواي ... علقت بسواي ؟ اذاً هي احتقرتني فيجب ان انتقم منها .. انتقم منها ؟ لا لا ... لعلها معذورة واذا رأتني تتذكر الماضي وتعود اليَّ .. هل يكون ذلك .. وافرحتاه اني اراها تبتسم لي مبتهمةً بعانقتي ... آه ما اجمل رضاها .. انهُ ينسيني عابدة وسائر العباد ... هل يجود عليَّ الزمان بذلك . ؟ نعم لا بدَّ ان يجود .. سأجعلهُ يجود رغم انفه .. سأضحي كل شيء في سبيل الوصول الى تلك الحبيبة فاما انالها او أنتقم منها ومن ... » وسكت لانهُ سمع حركة توهم ان عابدة قادمة نحوه فوقف والظلام حالك وهو يتوقع ان يسمع قرع الباب فلم يسمعهُ فعلم انهُ واهم ولكنهُ عاد الى تذكر عابدة فقال « وعابدة المسكينة أهملها . ؟ لا ... بل أجعلها سعيدة مع سواي .. او .. ولكن بعد ان تخدمني في غرضي .. »

الفصل التاسع

السحر والتنجيم

قضى سعيد معظم الليل في امثال هـذه الهواجس ولم ينم الاَّ عند الفجر بعد ان تعب وخارت قواه وأصبح في اليوم التالي وعاد الى عملهِ فشغل عن هواجسه بمقابلة الزائرين وهو عَلَى أحر من الجمر في انتظار يوم الاحتفال وقد أخذ في التفكير والتدبير لينتفع من الاجتماع في ذلك اليوم

والتتهُ عابدة في اثناء الانتظار تتذرع الى رؤيتهِ بالسؤال عن وقت الاحتفال فاجابها انهُ لا يزال ينتظر الخبر بذلك . فمكثت عندهُ حيناً تتشاغل بتقليب الكتب وهو يبدي السرور برؤيتها وفي خاطره تردد لم يظهر لها لانهُ كان قوي الارادة كبير المطامع لا يبالي بما يقف في طريقهِ الى غرضهِ ولا بما قد يرتكبه في ذلك السبيل من الكبائر فاتخذ ساعات

اجتماعه بعابدة في اثناء تلك الفترة فرصة لتوطئة المعدات التي ينوي اعدادها لتنفيذ غرضه وهي توافقه ولا ترى غيرما يراه . وفي جملة تلك المعدات كتاب قديم استخرجه من خزانة وأخذ يقلب صفحاته وفيها رسوم واشكال من قبيل الطلاسم واستخراج المخبآت وهي لاتزداد بذلك الاَّ تعلقاً به وانقياداً له حتى صارت تعتقد انه قادر عَلَى كل شيء

وهما في ذلك أنبأهما الخادم بقدوم الفقيه ابن عبد البر فخف سعيد لاستقباله فلما دخل ورأى عابدة فرح بها ووافق وجودها غرضاً جاء من أجله . فحياً وسلم عَلَى عابدة سلام من يعرفها فردت التحية بأدب وحشمة زادتها رفعة في عينيه فوجه كلامه الى سعيد قائلاً «أظنني أتيت في غير الوقت المناسب»

فأظهر سعيد الاحتفاء الكثير وقال «بالعكس ياسيدي فقد جئت في ابان الحاجة اليك»

فنظر الى الكتاب الذي بين يديه وقال «العلك عثرت عَلَى كتاب جديد ؟»

قال «كلاَّ يا مولاي .. ان هذا الكتاب قديم» وجعل يقلب فيه فوقع بصر الفقيه عَلَى رسوم واشكال تعوَّد ان يرى مثلها في كتب السحر فقال «وساحرٌ ايضاً ؟ .. انك رجل نادر المثال»

فقال «لا تستغرب شيئاً ايها الفقيه فان الانسان اذا جدَّ وجد ولا أراني أعرف شيئاً لا يستطيعه سواي .. وفي كل حال فليس لي ما للفقيه من العلم الواسع في الفقه واصوله وهو الخطيب المفوه ..»

فقطع ابن عبد البر كلامه عَلَى كيفية يوهمه بها ان خاطراً خطر له في تلك اللحظة ولم يكن في باله من قبل مع انه جاء من اجله فقال «ليس فيَّ شيء من ذلك ... وقد أذكرتني أمر الخطاب»

فأدرك سعيد ما في نفسه فسبقه الى القول «انما قلت ما قلته لأتدرج الى سماع خطابك هل أتممته ؟»

فمدَّ ابن عبد البر يده الى جيب قفطانه واستخرج منديلاً فيه لفافة فضها وهو يقول «هذا هو الخطاب .. ولم يأتِ كما كنت احب .. ولكن لا بأس به»

فأومأ سعيد الى عابدة فقالت للفقيه «لا اظننا نستحق ان نسمعه قبل مولانا أمير المؤمنين»

قال وقد أثر قولها فيه «كيف لا ؟ اذا شئت تلوته عليك ولكنني لا أراه أهلا لاعجاب اديبة مثلك ..»

فابتسمت وأشارت اليه ان يقرأ اذا شاء فقال «أتلوه عليكما عَلَى سبيل التجربة واذا بدا لكما انتقاد قولاه»

فأشار سعيد بعينيهِ وشفتيهِ انه يجل الفقيه عن ان يكون موضع نقد ضعيف مثلهِ . ثم أصلح الفقيه موقفه وأخذ يتلو الخطاب كما يتلى في حضرة الخليفة وسعيد وعابدة صامتان مصغيان يبديان الاعجاب عند بعض المواقف وهو يجود وما أتى على آخر الخطاب حتى امتلأ اعجاباً بنفسه وسعيد وعابدة يطنبان ويعجبان حتى قال سعيد « ان هذا الخطاب اذا قدره امير المؤمنين قدره جعلك قاضي القضاة او شيخ اهل الفتوى »

فحنى الفقيه رأسه تواضعاً وهو بالحقيقة يعتقد في نفسه اضعاف ما سمعهُ ولكنهُ خاطب سعيداً قائلاً « ان ذلك يرجع الى التوفيق فاذا وفقت الى ساعة سعيدة ووازرتني بدعائك نجحتُ ان شاء الله .. ولكن هذا كتاب الطوالع بيدك اخبرني عما سيكون من حظي بعد تلاوة الخطاب »

فقال وهو يفتح الكتاب « ذلك يتوقف على اليوم الذي سيعقد فيه الاحتفال اذ لكل يوم طالع قد يوافق نجمك وقد لا يوافقهُ .. هل تعرف متى يكون الاحتفال ؟ »

قال « عينوا له يوم السبت القادم الواقع في ١١ ربيع الأول »

فأخذ سعيد يقلب صفحات الكتاب ويقرأ ويعيد القراءة ويعيد التقليب وقد بدت البغتة في عينيه وهو يقول « أنت مؤكد انه سيكون يوم السبت من كل بدّ ؟ . لعلك واهم »

فاختلج قلب الفقيه في صدره خوفاً وقال « العل ذلك اليوم لا يوافق طالعي ؟ »

قال « لا اعني ذلك ولكنني أحب أن أعرف الذين سيحضرون ذلك المحل فان الطالع يتغير بتغير الجواذب والدوافع من الطوالع الأخرى » ثم وصل الى صحيفة وقف عندها طويلاً وقال « ان طالعك اذا استقلّ لا خوف عليه في اي يوم كان اما اذا زاحمهُ طالع آخر أرى صفته في هذا الكتاب وكان ذلك في يوم للسبت قد يصيبهُ ضرر .. ولكن ذلك غير مؤكد فتوكل على الله واعلم انك أحسنهم جميعاً وانا أتقدم اليك متى احرزت ذلك المنصب الرفيع ان لاتنسى صاحبك سعيداً »

فاقلقهُ ذلك الارتياب لكنهُ اطمأن للعبارة الاخيرة فضحك وهز رأسهُ استخفافاً بتلك التهمة ولسان حاله يقول « كيف انساك ؟ » وزاد ذهنهُ تعلقاً بنيل هذا المنصب

وهم في ذلك دخل ياسر كبير فتيان الناصر وكان قد اكثر من التردد على سعيد بعد مقابلتهِ الاخيرة وأسرّ اليهِ اموراً فرّحهُ بها وزادت الروابط بينهما سرًّا وارتفعت الكلفة . وأما بين يدي الفقيه فاحتفل سعيد بياسر وبالغ في تبجيلهِ واكرامهِ وقدم لهُ كرسياً ليقعد عليهِ وابن عبد البر لا يزال قابضاً على اللفافة فهمّ بوضعها في جيبهِ وأخذ بالسلام على ياسر فآنس منهُ احتفاء واكراماً فوق العادة فآنس بهِ فقال سعيد لياسر « هل يرغب الاستاذ في خدمة ؟ »

قال « كلاَّ ولكنني تذكرت سؤالك عن وقت الاحتفال باستقبال رسل القسطنطينية لانك تحب حضوره وكنت قد جئت عَلَى بغلتي الى هذه الجهة لغرض لي فرأيت ان أمرَّ بك وأُخبرك ان الاحتفال يكون يوم السبت القادم وقد سرَّني اني لقيت الفقيه هنا لاوصيه بمرافقتك الى القصر الزاهر حيث يكون الاحتفال »

قال « اشكرك ياسيدي عَلَى هذه العناية » والتفت الى الفقيه وسأله عن الملتقى فقال « نلتقي في المسجد قرب باب الجنان المطل عَلَى الرصيف فوق الوادي الكبير وهو اقرب ابواب القصر الينا عَلَى ما اظن »

قال « حسناً سأُوافيك الى هناك صباح يوم السبت القادم ان شاء الله »

وهمَّ ياسر بالانصراف فاستوقفه الفقيه بقوله « هل كنت تعرف قبل الآن ان لسعيد معرفة بالنجامة والطوالع »

قال « واعرف فوق ذلك انهُ طبيب وكيماويٌّ »

فبغب الفقيه وهز رأسهُ وقال « وكيماويٌّ ايضاً انهُ كل شيءٍ »

وكانت عابدة في اثناء ذلك مشتغلة بكتاب في يدها تقلب صفحاته وكلما سمعت اطنابًا بسعيد اختلج قلبها فرحًا بهِ وتنهدت تنهداً عميقاً

وانتبه الفقيه لها في تلك اللحظة فقال لياسر « وهل عرفت هذه الفتاة الادبية ؟ لا أظن في قصور أمير المؤمنين فتاة في مثل ادبها وتعقلها »

فالتفت ياسر الى الفتاة وقد خجلت من ذلك الاطراء وعلت وجهها حمرة وابرقت عيناها فقال « هل تعرف الشعر والأدب ؟ »

قال سعيد « نعم ياسيدي انها تحفظ الوفا من اشعار العرب وامثالهم واخبارهم »

قال « ليس بين نساء قصر أمير المؤمنين من يحفظ الشعر الا الزهراء ولذلك فانها أقرب جواريه اليهِ كما تعلمون لان مولانا الناصر كثير الشغف بالادب واهله . عَلَى ان معرفتها قليلة في جانب ماتذكره عن هذه الحسناء »

فندم الفقيه عَلَى توجيه نظر ياسر الى عابدة مخافة ان يسعى في اخذها الى الخليفة وهو يحب ان تكون للامير عبدالله فيكون لهُ حظ من ادبها فغير الحديث واستأذن في الانصراف عَلَى موعد اللقاء يوم السبت . وبعد قليل انصرف ياسر بعد ان ودع سعيداً وقد تفاهما

الفصل العاشر

الاحتفال

وأخذ اهل قرطبة يتأهبون لاستقبال رسل ملك القسطنطينية في البناء المعروف بالقصر الزاهر أحد ابنية القصر الكبير. لان هذا القصر كان مؤلفاً من عدة قصور كما تقدم وهو واقع في الطرف الغربي من قرطبة يطلُّ على الوادي الكبير وهو نهرها الذي يجري من الشرق الشمالي الى الغرب الجنوبي. والقصر يشغل مساحة كبيرة تتخللها البساتين والحدائق والاحواض والبرك والبحيرات والقصور ونحوها. ويحيط بها جميعاً سورٌ لهُ بضعة ابواب منها بابان في الجنوب يطلاّن على النهر هما باب الجنان وباب السطح وواحد في الشمال اسمهُ باب قورية وآخر في الشرق هو باب الجامع. والاخير في الغرب ويقال لهُ باب الوادي. والاثنان الاولان يشرفان على النهر وبينهُ وبينهما رصيف عريض يفصل قرطبة عن النهر يخرج اليهِ الوجهاء واهل الدولة للتنزه بقرب الوادي الكبير (النهر)

وفوق النهر جسر فخيم (كوبري) يصل بين قرطبة وارباضها الجنوبية طولهُ ٨٠٠ ذراع وعرضهُ ٢٠ ذراعاً وارتفاعهُ ٦٠ ذراعاً وعدد قناطره ١٨ ذراعاً وفوقهُ ابراج عددها ١٩ برجاً وهو يعد من مفاخر قرطبة ولا يزال الى اليوم من آثارها الفخيمة

وكان منزل سعيد في الارباض الجنوبية ولا بد لهُ في ذهابهِ الى القصر من العبور على ذلك الجسر. فلما كان اليوم المعين لبس لباساً فاخراً على شكل يستلفت انتباه اهل قرطبة وفيهِ مشابهة للباس العلماء والاطباء مع فخامة واتقان وكبر العمامة على الخصوص مع ان اهل الاندلس قلما كانت لهم عناية بالعمائم. وغرس في عمامته قلم الكتابة وتمنطق فوق القفطان بمنطقة من جلد غرس فيها دواة من الفضة واكتحل بالاثمد اكتحالاً كثيفاً. وركب بغلته وساقها يطلب باب الجنان من ابواب القصر ومشى خادمهُ في ركابه. وكان ركوب البغال في الاندلس من دلائل الجاه والثروة. فقطع سعيد مسافة وهو يطلب الجسر فعرف قربه من الوادي مما سمعهُ من دوي الرحى بجواره — فقد ذكروا انهُ كان في ذلك الوادي ٥٠ رحى[1] تطحن الحنطة وغيرها وكلها تدور بمجرى الماء

وبعد قليل اشرف سعيد على الجسر فرأى الاقدام قد تزاحمت فيهِ لكثرة الوافدين على القصر أو على الرصيف للتفرج باحتفال اولئك الرسل. ورأى ما على الجسر من الابراج في الجانبين بين البرج واخيهِ ثمانون ذراعاً وعليها الاعلام منصوبة تخفق مع الريح. فقطع

(١) المقري ج ٢

الجسر بين الجماهير والشمس لم تنكبد السماء بعد فوصل الرصيف وقد تجمهر فيه الناس رجالاً ونساء واطفالاً بين راكب وماش وواقف على طول الرصيف وخصوصاً بقرب الجسر . لان الرسل سيمرّون عليه بانتقالهم من منزل ولي العهد في الربض بعدوة قرطبة الى القصر الكبير . وقد تفرّقت الاجناد في الطرق لمنع الزحام وخصوصاً على الجسر

فظلّ سعيد سائقاً بغلته في الرصيف الى الجامع فلم يجد ابن عبد البر فيه ولكنه وجد خادماً صقلبياً واقفاً بانتظاره فلما رأى سعيداً قال له « ان مولانا الفقيه سبقك الى السطح المشرف فوق الباب وراء هذا الجامع و يرغب اليك ان تذهب الى هناك لتشرف من ذلك السطح على النهر والجسر والرصيف والقصر جميعاً »

فساق بغلته الى ذلك الباب وعليه سطح مشرف لا مثيل له في العالم[1] فتحوّل وترك البغلة للخادم وصعد الى السطح من سلم بجانب الباب فرأى الفقيه جالساً في انتظاره فوقف له ورحب به وقال « اظنني اتعبتك بالمجيء الى هنا ولكنني اعلم انك تسرّ بهذا المنظر الجميل ... »

فوقف سعيد الى جانبه وتلفت الى ما يشرف عليه فاذا هو يرى النهر وفيه القوارب من جهة الجنوب وفوقه الجسر وعليه الاعلام تخفق فوق الابراج وقد تزاحم الناس وتحاكت مناكبهم وفيهم العربي والصقلبي والبربري والمستعرب (وهو في اصطلاحهم الاسباني الذي يتكلم العربية) من الرجال والنساء والاطفال يتخللهم الباعة بالاطباق على رؤوسهم وفيهم من يحمل طعاماً أو فاكهة أو نقلاً والسقاة يحملون الجرار على ظهورهم ينادون سبيل ياعطشان وبين هذه الاخلاط من الناس رجال الجند تتشابه ملابسهم وفيهم الصقالبة البيض والرجالة العبيد وقد رتبوا صفوفاً حسب رتبهم واجناسهم . فوقف صفّ من العبيد عليهم الجواشن والاقبية البيض وعلى رؤوسهم الخوذ الصقلبية وفي ايديهم التراس الملوّنة على طول الجسر الى باب الجنان من ابواب القصر يتخللهم فرسان منهم

(١) المقري ج ١

الفصل الحادي عشر

القصور

وأومأ الفقيه الى سعيد ان يلتفت شمالاً غربياً نحو ابنية القصر وبساتينه فرأى مابهره من القصور المختلفة الاشكال وبينها الحدائق والبساتين تتخللها البرك والبحيرات والاحواض من الرخام المنقوش وعليها تماثيل من الرخام أو الفضة على اشكال مختلفة يجري ماؤها من انابيب بعضها كافواه الحيوانات . اكثرها من الرخام وبعضها من الفضة والبعض الآخر من الذهب تتلألأ عن بعد في اشعة الشمس . وبعض الاحواض عليها التماثيل من النحاس المموّه على اشكال جميلة والماء ينبثق من جوانبها فيتلون رشاشه في هبوطه بالوان قوس القزح . فانبهر سعيد من تلك المناظر ولم تسبق له رؤيتها من ذلك السطح المشرف فقال « يا لحقيقة ان الخليفة الناصر قد ابدع في تدبير هذا القصر واتقانه . واغرب ما فيه هذه الاحواض المنقوشة وعليها التماثيل يتفجر الماء من جوانبها أو رؤوسها أو افواهها . هل هو ماء النهر حمل اليها ؟ »

فضحك الفقيه وقال «ماء النهر ؟ .. وهل يصعد الماء من هذا الوادي الى هذه المصانع؟. انما هو ماء مجلوب من هذه الجبال العالية على المسافات البعيدة . . وقد أنفقوا في سبيل جلبه ما لا يقدر من الاموال . يكفي ان تتصور اجراء هذا الماء من تلك الجبال الى هذه القصور في قنوات من الرصاص . فكم نقروا من الصخور وبنوا من القصاب لتدبير الماء في جريه بالانابيب المذكورة . ثم تصور توزيع الماء بعد وصوله الى هذه القصور في البحيرات والبرك والصهاريج حتى ينصب من تماثيل الفضة او الرخام او النحاس المموّه وبعضه يجري من أنابيب الذهب . غير ما أنفقه في نقش هذه التماثيل الرخام فوق الأحواض »

فكان ابن عبد البر يتكلم وسعيد مطرق يفكر حتى فرغ الرجل من كلامه فقال له « لا يدهشني مقدار ما أنفق من الاموال اكثر من اتخاذ هذه التماثيل . . . فهل افتيتم له باتخاذها وهي محرمة على ما أعلم »

فهز الفقيه رأسه وقال « من افتى له ؟ انه أفتى لنفسه »

ثم استوقفهما صوت النفير فالتفتا نحو الجسر فرأيا الناس يتسابقون نحوه لمشاهدة اولئك الرسل وقد أقبلوا على أفراسهم وعليهم الألبسة المذهبة تتألق بضوء الشمس فوق السروج المفضضة وقد أحاطت بهم كوكبة من الفتيان الوصفاء من شبان الصقالبة عليهم الدروع السابغة والسيوف الحالية وقد امتطوا الافراس الجياد عليها اللجم المحلاة بالذهب . وقد بالغ عبد الرحمن

باظهار الابهة واعظمة ارهابًا للاعداء

فأراد سعيد ان ينزل عن السطح فقال لهُ « والى أين ؟ ان الطريق مسدود بالناس ولا سبيل لنا الى القصر الآن فالافضل ان نمكث هنا ريثما يمرُّ الركب ثم ندركهُ على عجل او نسبقهُ من طريق مختصر أعرفهُ . . انظر الى ما أراده أمير المؤمنين من الارهاب بايقاف أحاسن رجاله في طريق أولئك الرسل . ان رجالته العبيد مصفوفون على الجسر وهذه كوكبة من الفتيان الاصاغر تحيط بالرسل . . ألا ترى هؤلاء الروم قد أحنوا رؤوسهم خوفًا ورهبة . انظر الى باب الجنان كم نصب عليهِ من الاعلام وكم وقف بجانبيهِ من الفرسان وعليهم الألبسة الثمينة . هؤلاء ذو والاسنان من الفتيان الصقالية وقد لبسوا البياض وبأيديهم السيوف ووراءهم من هذا الباب في الداخل الى الباب الثاني من ابواب القصر صفٌّ من الرماة وقد تنكبوا قسيهم وجعابهم . واذا أمعنت نظرك في الوقوف بالباب الثاني وما وراءه رأيت طائفة أخرى من الصقالبة الاكابر في أثمن من ذلك وأبهج . . لا ريب عندي ان أولئك الاروام قد دهشوا من هذه المناظر . وسترى اغرب من ذلك متى اتيت القصر ورأيت ما أعدوه هناك من الرياش والاثاث ومظاهر الملك والبهة الدولة . . »

قال سعيد « اخاف ان يبدأ الاحتفال قبل وصولنا فيذهب تعبنا سدًى »

فهز راسهِ استخفافًا وقال « لا يبدأون قبل وصول الخطباء . . ومع ذلك فاني آخذك من طريق مختصر نصل منهُ الى القصر قبل وصول الناس اليهِ »

قال « افعل اذا شئت »

فتحوَّل الفقيه وتحوَّل سعيد معهُ فلما صارا في الطريق اشار الى سعيد ان يترك بغلته ويسير معهُ ماشيًا لان ذلك اسهل عليهما

فاشار سعيد الى خادمهِ ان يحتفظ بالبغلة ومشى مع الفقيه . فسار بهِ في البساتين بين الاشجار والرياحين وقد سرَّه المشي هناك بدل الركوب ليتمكن من رؤية كل شيء فكثيرًا ما وقف عند بعض الاحواض الرخامية يتأمل انصباب الماء من جوانبها او من اواسطها في الانابيب المختلفة الاشكال والالوان وحولها البستانيون يتعهدونها بالاصلاح والري والتنظيم . ولحظ الفقيه اعجابه بما يشاهده هناك فقال لهُ « اراك قد دهشت مما تراه في هذا القصر من البذخ فكيف اذا دخلت الزهراء ورأيت قصورها وقاعاتها وحدائقها وقبابها كيف اذا رأيت القبة التي قرميدها من الذهب . . »

فصاح سعيد « قرميدها من الذهب ؟ . اني استغرب ذلك من امير المؤمنين بعد ان اتخذ الخلافة فصار نائبًا عن النبي صلى الله عليهِ وسلم وهو الناهي عن اتخاذ ذلك . . »

فأومأ الفقيه بسبابتهِ على شفته السفلى ان « دع هذا الآن »

الفصل الثاني عشر

القصر الزاهر

وما زالا يتصلان من بستان الى بستان ومن حديقة قصر الى حديقة قصر آخر وقد سبقا الموكب حتى اطلاً عَلَى القصر الزاهر . وهو من اجمل ابنية القصر الكبير فانتبه سعيد عَلَى الخصوص لواجهتهِ فرأى عليها نقوشاً كالوشم عَلَى المعصم في اشكال جميلة بين اقواس منحوتة باشكال هندسية عربية تتخللها الابواب في الاسفل وهي في غاية مايكون من اتقان النقش . ويزينها في الطبقة العليا النوافذ والاحنية والقناطر كالرواق القائم عَلَى اساطين الرخام . وعَلَى تيجانها نقوش وكتابة وفوق التيجان الاقواس قد تقطعت سقوفها مربعات متداخلة ورسمت فيها الآيات والدعوات حفراً او تصويراً . وعَلَى افاريز الشبابيك ابيات من الشعر مذهبة والافاريز من الشكل المقرنص . وتنتهي تلك الطبقة بطنف بارز هو امتداد السطح الى الخارج وعليه نقوش في غاية الجمال . وحول النوافذ زجاج ملون مصنوع عَلَى اشكال هندسية في اجمل زينة

لم يستطع سعيد التفرس في ذلك البناء طويلاً لما رآه ببابه من الحرس وقوفاً وهم من خاصة الفتيان الاكابر والمقدمين . عليهم الالبسة القصب وعَلَى اكتافهم الظهائر المذهبة وعَلَى رؤوسهم القلانس الهرمية الشكل يزينها الطراز المذهب وقد تقلدوا السيوف المذهبة وهم نخبة الرجال قامةً وجمالاً وهيبة مما يستوقف الابصار . فتهيب سعيد من تلك العظمة ولم يكن يتصور ابهة الملك تبلغ الى هذا الحد فقال في نفسهِ كيف يكون البهو الداخلي الذي اعدوه لاستقبال الرسل . ولم يستطع دخول القصر الاَّ بعد ان رأى الحرس رفيقه الفقيه ابن عبد البر وتحققوا انه من حاشية الامير عبد الله وصنيعة الحكم فدخل وتبعه سعيد . فمشيا في طرقات بين الاشجار مفروشة بالازهار والرياحين حتى اتيا الباب الخارجي وقد فرش من عتبته الى الدهليز وصحن الدار وهو البهو الخارجي بعتاق البسط وكرائم الدرانك وظللت ابواب الدار وحنايا بظلل الديباج ورفيع الستور

وصعدا من ذلك الصحن عَلَى بضع درجات من الرخام المذهب الى بهو واسع قد نقش سقفه وافاريزه بالذهب والالوان الزاهية اكثرها الاحمر والازرق والاصفر . وقد جللت جدرانه بالديباج وفرشت ارضه بالسجاد الثمين ونصبت المقاعد والكراسي في جوانب البهو عَلَى حسب الرتب والمناصب

وفي صدر البهو سرير الخليفة من الذهب مرصع بالزمرد والياقوت فوقهُ قبة فيها

نقوش وابيات على ابدع تصوير . وقد فاحت رائحة العنبر من مبخرة مذهبة نصبت في بعض جوانب البهو . ولم يؤذن بدخولها هذا المجلس لان الخليفة لم يكن قد وصل بعد . فوقفا حائرين وسعيد يتأمل كل شيء ويعمل فكرته في كل شيء . ثم لاحت منه التفاتة فرأى ياسراً ينظر اليه فاشار سعيد انه يريد الدخول فتقدم ياسر وقال له « لايجوز الدخول قبل قدوم الخليفة ولكن لا بأس من دخولكما خلسة من باب سري تجلسان في مكان لا ضرر منه وتريان الناس عند دخولهم ومتى انتظم عقد الجلوس تجلسان في هذا المكان مع جماعة الفقهاء » وأشار الى المكان

فسرّ سعيد لهذه الفرصة ودخل ومعه ابن عبد البر حتى وقفا وراء بعض الاساطين في آخر البهو بحيث يريان كل قادم ولا يراهما احد

ولم تمض هنيهة حتى سمعا لغطاً ورأيا الخصيان في حركة فعلم ابن عبد البر ان الناصر قادم فتهيب وبانت الدهشة في وجهه . فادرك سعيد ذلك فالتفت اليه وقال « اظن مولانا امير المؤمنين قادماً »

فاشار الفقيه برأسه ان « نعم »

ثم رأياه مقبلاً وقد تزيا بزي الخلفاء فنظر سعيد الى الفقيه كانه يستفهمه فقال له بصوت خافت « لو دخلت على امير المؤمنين منذ بضع عشرة سنة لرأيت لباسه يختلف عنه الآن ولم ترهذا القضيب بيده فانه قضيب الخلافة ولم يكن خليفة الامنذ بضع عشرة سنة . ولذلك رأيته الآن يلبس العمامة المرصعة بالجوهر ويحمل القضيب بيده . وهذه بردته مثل بردة سائر الخلفاء لكنه جعلها بيضاء تشبهاً بلباس اقربائه بني أمية بالشام . وترى تحت البردة قباء من الوشي وهو لباس الامويين في أيام دولتهم بالشام »

كان الفقيه يتكلم بصوت منخفض يحاذر ان يسمعه أحد لخلو القاعة من الناس وهدوء المكان وسعيد شاخص ببصره الى الناصر يتبين ملامحه ويستطلع فراسته فرآه ابيض اللون مشرباً حمرة ازرق العينين وفي محياه هيبة وقوة وقد مشى ويده قضيب الخلافة والجلال يتجلى في جبينه والذكاء ينبعث من عينيه وقد وخطه الشيب . وشغل سعيد على الخصوص بما على عمامته من الجواهر والتفت نحو الفقيه فرآه يبالغ في الانزواء خوفاً من وقوع بصر الخليفة عليه فقال له « ان امير المؤمنين فوق ما كنت اتصور ويظهر لي مع كون والدته امة نصرانية ان هيبة الخلفاء لم تنقص شيئاً »

الفصل الثالث عشر

استقبال الرسل

فقال الفقيه « لا اظنك تجهل ان اكثر الخلفاء في الدولتين الاموية والعباسية امهاتهم من الآماء وبعضهن من الجواري اما أُم مولانا فهي نصرانية جميلة وكان اسمها مرية »[1]

وفي اثناء هذا الحديث كان الخليفة قد جلس على السرير في صدر البهو فوق عرش مرتفع ووقف بين يديه جماعة من كبار الفتيان يتلقون اوامره وعليهم البسة تأخذ بالبصر لما فيها من الطراز المذهب والالوان الزاهية . وسعيد لا يرفع بصره عن الناصر وقد همه امره كثيراً

فرآه ينظر الى باب البهو ويبتسم ويشير برأسه مرحباً فالتفت سعيد فرأى الحكم ولي العهد داخلاً في لباس فاخر ونضارة الشاب تتجلى في وجهه وقد فاحت منه رائحة المسك ومن يره يعرف انه ولي العهد لانه كان يلبس القلنسوة الخاصة بذلك . فلما اقترب من ابيه ناداه اليه واجلسه الى يمينه وهو يبتسم له

ثم دخل ابنه الثاني الامير عبد الله وكان البهو قد تكاثر فيه الناس فلم يعد الفقيه يخشى ان يسمع صوته فلما دخل الامير عبد الله استلفت نظر سعيد اليه وقال « هذا مولانا الامير عبد الله كيف تراه ؟ »

قال سعيد « أراه أحسنهم جميعاً ... اني أرى التقوى ظاهرة في وجهه واظنهم لو خيروه في اللباس لاختار الجبة والعمامة الساذجة وكان في غنى عن هذه الملابس الفاخرة بما يزينهُ من الخلال الحميدة »

فقال الفقيه « لقد اصبت بفراستك كبد الحقيقة ان الامير عبد الله يفعل ذلك في منزله فانه من الزهد والتقوى على جانب عظيم حتى تكاد لا تجد عنده من الخصيان احداً وهو على غير رأي والده من هذا القبيل ولذلك سموه الزاهد . ولهُ شعر حسن ..[2] »

فقطع سعيد كلامه قائلاً « هذا هو الرجل المطلوب .. انه اذا تولى الخلافة اعادها الى رونقها ونقاها من الادران الخارجية »

فهمس الفقيه في اذنه « دعنا من هذا الآن »

---

١ كوندي — رواه رومي ج ٤ (٢) المقري ج ٢

وجاء بعد عبد الله اخوته عبد العزيز فالاصبغ فمروان . ثم اشار الخليفة الى الخصيان الاكابر الموكلين باستقبال الناس وادخالهم الى مجالسهم وفي جملتهم ياسر ان يدخلوا سائر بني مروان فدخل المنذر ثم عبد الجبار ثم سليمان فجلسوا عن يسار الخليفة . ثم دخل الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالاً . واخيراً دخل الفقهاء فاندس ابن عبد البر وسعيد في جملتهم وجلسوا في اماكنهم المعدة لهم

ودخل الشعراء فاقاموا في مصافهم . واصطف الحجاب من اهل الجندية من ابناء الوزراء والموالي والوكلاء وغيرهم وقوفاً في اطراف البهو وراء جدار قصير يفصل البهو عن شبه الرواق حوله . فكان من ذلك منظر يتهيب له الشجاع وقد زاده هيبة سكوت الناس حتى الخليفة وأولاده

وجاء ياسر بعد قليل فوقف بحيث يعلم الخليفة اذا وقف هناك ان عنده امراً يريد عرضه عليه فاستقدمه فاخبره « ان الرسل في البهو الخارجي هل يأمر بادخالهم » فقال « ادخلهم »

فعاد وقد علم الحضور ان الرسل قادمون فاتجهت الابصار نحو الباب واذا بياسر قد عاد ثم تنحى فتقدم الرسل خاشعين وهم بضعة عليهم رئيس منهم وقد لبسوا لباس كبار الروم فتقدم الرئيس وكان عليه القلنسوة والبرنس فخامهما قبل دخوله فتناولها بعض الخدم . وفعل مثل ذلك رفاقه من الرسل

فمشوا اولاً بين صفين من الجند في البهو الخارجي حتى انتهوا الى البهو الداخلي فحالما وقع بصرهم على سرير الخليفة خروا سجداً سويعة ثم نهضوا ومشوا بضع خطوات وعادوا الى السجود . فعلوا ذلك مراراً الا رجلاً منهم كان في آخرهم يحمل جعبة من الديباج على كتفيه باحترام فاكتفى باحناء رأسه ولما دنوا من سرير الخليفة تنحى الوفد الا رئيسه تقدم وهوى على يد الخليفة يقبلها فامتنع الناصر من ذلك وأشار اليه ان يجلس هو ورفاقه على وسائد من الديباج مصوغة بالذهب أعدت لهم على نحو عشرة اذرع من السرير[1] . فجلسوا الا حامل الجعبة

(١) المقري ج ١

الفصل الرابع عشر

الهدية

وبعد هنيهة أذن لهم الخليفة بالكلام وكان يخاطبهم عَلَى يد التراجمة . فنهض رئيس الوفد وتقدم الى السرير باحترام وقدم للخليفة تلك الجعبة بعد ان تناولها من حاملها . فأشار الخليفة الى من يفتحها ففتحها احد الخصيان فوجد داخلها درجًا من الفضة عليهِ غطاء من الذهب قد نقشت فيهِ صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملوّن البديع . ففتح الدرج فوجد فيهِ كتابًا من رقٍّ مصبوغ لونًا سماويًا مكتوبًا بالذهب بالخط الاغريقي (اليوناني) . هو كتاب صاحب القسطنطينية قسطنطين بن ليون اليه . وداخل هذا الكتاب مدرجة (رسالة) مصبوغة ايضًا ومكتوبة بالفضة بالحرف اليوناني [1]

فتناول الخليفة الكتابين وأخذ يقلب فيهما فوجد عَلَى الكتاب الاول طابع ذهب وزنهُ اربعة مثاقيل عَلَى الوجه الواحد منه صورة المسيح وعَلَى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده . وأما المدرجة ففيها وصف هدية قسطنطين للخليفة الناصر التي كان قد ارسلها مع الوفد وعددها [2]

وكانت انظار الجلوس متجهة الى ما يتضمنهُ ذلك الكتاب فاشار الخليفة الى من يترجمه فقرأوا العنوان عَلَى ظاهره ماترجمهُ « قسطنطين ورومانين المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم » في سطر ثم « العظيم الاستحقاق والفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم عَلَى العرب بالاندلس اطال الله بقاءه » في سطر آخر . فامر الخليفة من يتولى الاحتفاظ بالكتاب ويستلم الهدية ولكنه احب ان يعرف مفردات الهدية فاستوقف انتباههُ منها اسم كتاب فرح بهِ اكثر من سائر الهدية . وهو كتاب الحشائش تأليف ديسقوريدس العالم النباتي المشهور . فامر الخليفة باحضار الكتاب لتقليبه والنظر فيهِ فأتوهُ بهِ . فاذا هو مكتوب بالخط الاغريقي وقد صورت فيهِ الحشائش كلها بالتصوير الرومي العجيب . وجاء مع هذا الكتاب ايضًا كتاب هرشيوس صاحب القصص وهو تاريخ للروم فيهِ اخبار الدهور وقصص الملوك باللغة اللاتينية وكان في جملة ما كتبهُ اليهِ [3] « ان كتاب ديسقوريدس لاتجتني فائدته الا برجل يحسن العبارة باللسان اليوناني ويعرف اشخاص تلك الادوية فان

(١) المقري ج ١ ٢) المقري ج ١

(٣) طبقات الاطباء ج ٢

كان في بلدك من يحسن ذلك فزت ايها الملك بفائدة الكتاب . وأما كتاب هروشيوس فعندك في بلدك من اللطينيين من يقرأه باللسان اللطيني . وان كشفتهم عنه نقلوه لك من اللطيني الى اللسان العربي »

فلما اطلع الناصر على ذلك الكتاب انبسطت نفسه وسر سروراً كثيراً بتلك الهدية واعتز بسلطته وجلالة قدره . وكان سعيد في اثناء اشتغال الخليفة بمشاهدة الهدية يحادث جاره الفقيه . ولما كاد الخليفة يفرغ من مشاهدة الهدية آنس سعيد اضطراباً على وجه الفقيه فعلم انه يتهيب من الوقوف للخطابة وهم بسؤاله فسبقه الفقيه الى السؤال قائلاً « ها نحن في المجلس ولا يلبث الخليفة ان يدعوني للخطاب فما رأيك هل انجح ؟ . استطلع لي الطالع » فاستخرج سعيد الكتاب من جيبه خلسة وفتحه وأخذ يقلب فيه وينظر الى الحضور حوله ويعيد النظر في الكتاب وابن عبد البر ينتظر ما يقوله . ولما طال سكوته شغل باله وارتبك في امره مخافة ان يسمع ما يحزنه . وهو في ذلك الاضطراب سمع صوتاً ينادي من صدر البهو عرف انه صوت الحكم ولي العهد يقول « يسمعنا الفقيه محمد بن عبد البر الكسيباني كلمة في وصف هذا المجلس الحافل »

وكان الخليفة هو الذي طلب الى ولي العهد ان يختار من يرى من الفقهاء أهلاً للخطابة قبل ان يتقدم الشعراء للنشيد فاختار ابن عبد البر لانه كان صنيعته وكان يدعي القدرة على تأليف الكلام ماليس في وسع غيره — فلما سمع ابن عبد البر ذلك النداء اجفل وزاد ارتباكه وذهب الخطاب من خاطره لكنه وقف وقد امتقع لونه وأخذت لحيته ترقص في وجهه وشفتاه ترتجفان وزادته ابهة المقام وجلالة فارتج عليه ولم يهتد الى كلمة يقولها . فغلبه الخجل القنوط فاغمي عليه وسقط الى الارض فاشتغل سعيد باقاظه والاهتمام بامره حتى افاق فاجلسه وأخذ يخفف عنه

ونهض في اثناء ذلك اسماعيل القالي صاحب الامالي وكان حاضراً فخطب وخطب ايضاً منذر بن سعيد أحد الفقهاء فاجاد كثيراً وآل ذلك الى توليه القضاء بعد حين . ثم انشد الشعراء قصائدهم الى ان انفض الاحتفال وتفرق الناس ومضى كل منهم الى سبيله

الفصل الخامس عشر

تغيير

أما سعيد فشارك رفيقه الفقيه في اسفه الى ان قال لهُ « والله اني كنت خائفاً هذا الفشل من قبل ولذلك رأيتني ارتبكت في الجواب لما سألتني عن الطالع »

فقال « لا أدري ما الذي انساني الخطاب كأني لم اخط منهُ حرفاً ولعلَّ ذلك من سوء الطالع — اظن وجود القالي افسد عليَّ طالعي »

قال « لا بل هو منذر بن سعيد .. يالله انما الدنيا حظوظ وطوالع . أيريح عَلَيَّ الفقيه ابن عبد البر ويفلح المنذر بن سعيد ! .. » قال ذلك بنغمة الآسف وهز رأسه وعمد ان يتم غرضهُ فاظهر اسفه الشديد عَلَى ما انفق لابن عبد البر وقال « والامر الذي ساءني عَلَى الخصوص .. » وسكت

فابتدره الفقيه قائلاً « لابدَّ ان يكون ساءك ارتباكي مع اعتقادك الاكيد اني قادر عَلَى الكلام وقد سمعت خطابي واعجبت بهِ »

فقطع سعيد كلامه قائلاً « ان ارتباكك ساءني طبعاً ولكن هناك امراً آخر كدرني .. دعنا من ذلك الآن »

فازداد الرجل رغبة في الاستطلاع فقال « وماذلك ؟ .. قل »

قال « ساءني اني سمعت ولي العهد ... ولكن اخاف ان اكون مخطئاً .. »

فقال « لا لا .. قل ماسمعتهُ .. »

قال « اظنني سمعته يقول لما رآك وقعت مغشياً عليك ووقف منذر بن سعيد وخطب ما خطبهُ ـ سمعت ولي العهد يقول « هذا صاحبها والاولى بها وليس الكسيباني » فلا أدري ماذا يعني »

فقال الفقيه « ألا تدري وانت تستطلع الغيب ؟ .. أظنك تخاف تكديري ... قل ولا تخف »

قال « اظنهُ يعني منصة القضاء »

قال « قد اصبت وسينال هذا المنصب المنذر بورك له فيهِ .. »

فقال سعيد وهو يضحك قائلاً « لك اسوة بالامير عبدالله العالم الزاهد . ألم تكن الخلافة اولى بهِ .. »

فاحس ابن عبد البر من تلك الساعة بنقمة عَلَى الحكم رغم ما كان غارقاً فيهِ من نعمهِ . فان فشله وفوز زميله منذر بن سعيد هاج حسده واعماه عن الحقيقة وزاده اغتراراً بنفسهِ

فنسب سقوطه الى تصادم الطوالع وكان لقول سعيد تأثير كبير على اعتقاده فتوهم انهُ مظلوم وان الحكم هو السبب في ظلمهِ فاحس بالنقمة ضده ولم يكن سعيد غافلاً عما جال في خاطر الفقيه وهو الذي أثار كامن حقده وهاج عاطفة الحسد فيهِ من منذر والنقمة على الحكم فمالَ الى افضلية عبد الله في نيل الخلافة على اخيه الحكم نظر الى الفقيه فرأى في ملامحهِ قبولاً للاقتناع ولكن الخوف يمنعه من التصريح فابتدره قائلاً بصوت ضعيف لئلا يسمعهُ أحدٌ سواه « لعلي تطوحت في قولي الى ابعد مما يجوز لي . . . ولكنني قلت ذلك مدفوعاً بالانتصار للحق . . . وانا ورّاق ابيع الكتب واعرف ما يقتنيه وليّ العهد منها ولكن مالي ولهُ . » قال ذلك واظهر انهُ يريد الافتراق عنه

فتوسم ابن عبد البر من ذلك التلميح شيئاً يهمهُ الاطلاع عليهِ فعمد الى استخراج ذلك السر من سعيد و يزعم انه يفعل ذلك بمهارة ودهاء فقال « مهما يكن من اطلاعك على ذلك فاني اعلم منك به وأنا كما تعلم قد عاشرت الحكم طويلاً »

قال « مهما عاشرته فانك لا تعرف عنه ما اعرفه انا فانه يستحيي ان يعرف الناس وخصوصاً الفقهاء انه يطالع الفلسفة فتقل ثقتهم بدينه »

فبغت الفقيه وقال « يطالع كتب الفلاسفة ؟ . نعوذ بالله من خليفة فيلسوف . ان الخلفاء يقاومون الفلاسفة و يضطهدونهم خوفاً على عقائد الناس فكيف يكون الخليفة نفسه من اهلها »

فتجاهل سعيد عن مقدار ما اثره ذلك الخبر في الفقيه واظهر انه قد آن له ان يفارقه . وكان الفقيه اكثر رغبة في الافتراق لخاطر خطر له يريد ان يسعى فيهِ

وكانا قد خرجا من القصر حتى اتيا باب السطح حيث تركا البغلتين فقال الفقيه « سنفترق الآن . . . لا تزعل يا صاحبي ان الزمان يدور وسوف يعلو الحكم وابوه . . . » وسكت وتظاهر سعيد بالتجاهل وقال « متى آتي بكتاب العقد الفريد الى الامير عبد الله؟ »

قال « بعد يومين هل تعرف منزله ؟ »

قال « اين هو »

قال « في قصر مروان خارج قرطبة بالارباض »

قال « اعرفهُ . . استودعك الله . . لا تزعل يا فقيه . . . »

قال « سنتكلم بعدئذ . . . لا تنس ان تجلب عابدة معك لاني كلمت الامير بشأنها وهو يحب ان يراها »

قال « سمعاً وطاعة » وركب بغلتهِ وذهب بطلب منزلهِ

الفصل السادس عشر

الفقيه في طريقه

فارق الفقيه ابن عبد البر سعيداً وهو يتمنى لو طال الحديث بينهما في مسألة الامير عبدالله لانهُ رأى في الطعن عَلَى الحكم وابيه شفاء لما تولاه من الخجل في تلك الحفلة . وهو من تربيته الدينية ميال الى التعصب للتقاليد القديمة ورفض كل جديد فرأى في انتقاد الناصر لاقتنائهِ الخصيان والتوسع في البذخ والترف باباً للنقمة عليه . ولكنه كان غضباً عَلَى الحكم فلما سمع ماقاله سعيد من حبه الفلسفة حلل لنفسهِ الطعن فيه . ولم يشأ ان يتثبت الخبر مخافة ان يكون كاذباً فيضعف الباعث عَلَى الطعن وهو يبحث عما يقويه

قضى معظم الطريق الى بيته في امثال هذه الهواجس وهو لا ينتبه للبغلة كيف تسير ولا الى رأسها اين يتجه . ولولا الخادم الذي كان يديرها او يزجرها او ينبه المارة لمسيرها لعثرت او تاهت . وخصوصاً عَلَى الجسر لانه كان غاصاً بالراجعين بعد انقضاء الاحتفال . ولما قطع الجسر قل الازدحام . وما زال راكباً حتى اقترب من قصر مروان وهو منزل الامير عبد الله ولم ينتبه الا وهو بالقرب منه فاستوقف الدابة واشار الى السائس ان يحوّل زمامها نحو منزله لعلمهِ ان عبد الله لم يعد الى قصره بعد لاشتغاله بالحديث مع ابيه او اخيه . وهو مع ذلك يخجل ان يقابله

ساق البغلة الى بيته وهو عَلَى مقربة من قصر مروان فترجل ودخل غرفة نزع فيها فراجيته واتكأ للاستراحة فجاء الطاهي يدعوه الى المائدة فتذكر انه جائع فنهض فأكل وعاد الى مجلسه واوعز الى الخادم ان لا يدخل عليه احداً التماساً للراحة وهو بالحقيقة يطلب الانفراد خجلاً من الناس بسبب فشله في الخطاب حتى تصور الناس كلهم عيوناً تتغامز عليه او تهزأ بهِ لتلجلجه او تلعثم لسانه . واصبح اذا رأى الخصي ابطأ بتنفيذ امره توهم انه يفعل ذلك احتقاراً له بسبب ذلك الفشل — وما ذلك الا من ضعف النفس او الجبن . ولو كان قوي النفس لم يبال بفشل قد يصيب كل انسان ولكان له من تظاهره بمواهبه الأخرى مايذهب بدهشة ذلك الفشل . اما هو فانه أعظم ذلك عند نفسهِ ولو اطلع الآخرون عَلَى مافي ضميره لاستصغروه

تناول الطعام وهو منقبض النفس فعسر هضمه فزاده ذلك تلبكاً في افكاره وتعظيماً لمصيبته . فلما خلا بنفسه اخذ يفكر في ما يشفي غليله ويبرره بين يدي الامير عبد الله وهو ما انفك منذ انضم اليه يفتخر بفصاحته وقوة عارضته فكيف يظهر منه هذا الضعف ؟ فلم يجد خيراً من ان يجعل السبب ارتباكاً طرأ عليه لشيء شاهده في تلك الجلسة ويشرك

عبد الله معه في المصيبة ويجرّه الى مشاركته في الانتقام . ولما خطر له هذا الفكر انبسطت نفسه . وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب فنهض ولبس ثيابه وصفق فجاءه الخصي فامره ان يسرج البغلة فاسرجها فركب وسار يطلب قصر مروان منزل الامير عبد الله

وكان هذا الامير شاباً في مقتبل العمر قد تثقف كما تثقف سائر اولاد الناصر وشب على حب العلم والادب مع تقوى وتدين اصم . لم يكن حرّ الفكر مثل اخيه الحكم ولذلك فانه لم يكن يستدني غير الفقهاء المتعصبين الذين ينكرون النظر في غير علوم الدين ولم يكن يقتني غير كتب الادب والدين . ولو فتشت مكتبته كلها ما وجدت فيها ورقة في الفلسفة او المنطق او الطب او غيرها من كتب الطبيعيات . واما اخوه الحكم فربما وجدت عنده كتباً في هذه المواضيع لكنه لم يكن يظهرها مجاراة للعامة في اميالهم

وكان الامير عبد الله صادق الطوية بغير دهاء او تعقل . ونظراً لتقواه وتدينه فكل من يأتيه من جهة الدين يغلبه او يتسلط على افكاره . ولذلك كان يحترم الفقهاء ويقربهم وخصوصاً ابن عبد البر لما سبق الى ذهنه من سعة علمه ومقدرته على حل المشاكل — ليس لدليل محسوس وانما اعتقد ذلك بناء على دعوى الفقيه لنفسه

الفصل السابع عشر

الامير عبد الله

ولم يكن قصر مروان بعيداً عن منزل ابن عبد البر وكان يمكنه ان يأتيه ماشياً ولكنه أحب المحافظة على مظاهر الابهة بركوب البغال لئلا يقول قائل ان فشله في ذلك اليوم حط من قدره أو اذله . ولولا ذلك الفشل لذهب الى منزل الأمير ماشياً ولم يبال لوثوقه باحترام الناس له . وأما فشله اليوم فقد صغر نفسه فاصبح يخاف العار من أقل الامور

وصل ابن عبد البر الى باب حديقة القصر وحالما رآه البواب نهض وفتح له الباب فدخل على بغلته الى الحديقة والسايس يمشي في أثره . حتى اذا اقترب من باب القصر تقدم الحاجب — وهو خصي جميل الصورة أصله من خصيان الزهراء جارية الناصر أهدته الى الامير عبد الله فاعجب به وجعله كالحاجب أو المباشر . وقرّبه لما آنسه من لطفه وخفة روحه . واسمه (ساهر) — فلما رأى ابن عبد البر مقبلاً اسرع اليه وساعده في الترجل عن بغلته وهو يرحب به . فسأله عن الامير عبد الله

فقال « هو في مكتبته يطالع »

فطلب اليهِ ان ينبئهُ بقدومه فقال « ليس على الفقيه حجاب »

فاستأنس ابن عبد البر ومشى في أثره حتى دخل القاعة وهي مفروشة بالطنافس والمساند فجلس وخرج ساهر ليعلم مولاه بقدوم الفقيه . ومكث هذا والهواجس تتقاذفهُ في ما سيراهُ في وجه الامير من التغير . ولم تمض لحظة حتى اقبل الامير عبد الله و بيده كتابٌ يظهر من نظافة اطرافه انهُ كُتب من عهد قريب فوقف الفقيه وتأدب في السلام . فلم يجد في وجه الامير تغيراً فانبسطت نفسهُ واقبل يتخير عبارات اللطف يغطي بها فشله وعبد الله يسايره حتى جلس الى جانبهِ والكتاب لا يزال في يده

فقال ابن عبد البر « أرى في يد الامير كتاباً جديداً »

قال « نعم هو كتاب جديد ومؤلفهُ حيٌّ يرزق »

فنظر الفقيه في ظاهر الكتاب وقال « لا اذكر اني رأيت هذا الكتاب بين كتب مولاي قبل الآن »

قال « لانهُ أتاني في هذه الساعة »

قال « في هذه الساعة من أين ؟ »

قال « بعث بهِ اليَّ أخي الحكم ولي العهد . وكان قد خاطبني بشأنه ونحن في البهو اليوم »

فلما سمع اسم الحكم والبهو تذكر اشياء كثيرة وكاد يظهر التأثر في وجهه لكنهُ تجلد وقال « يقول مولاي ان مؤلفهُ حيٌّ »

قال « نعم وهو الآن في قرطبة وقد شاهدته في هذا الصباح وسمعت خطابه »

فاتبه الفقيه وقال « اظنهُ كتاب الأمالي لاسماعيل بن القاسم القالي فقد علمت انهُ ألف هذا الكتاب لمولانا ولي العهد وطاف البلاد في البحث والتنقيب من اجله . . انه كتاب نفيس »

قال « نعم هو بعينه وقد قدمهُ لأخي فذكره لي في صباح هذا اليوم وارسله اليَّ لاطالعه واذا اعجبني كلفت احد الوراقين بنسخهِ »

فأطرق الفقيه حيناً وهو يتأمل ثم قال « ولماذا لم يقدمهُ القالي للامير عبد الله ؟ وهو يعرف قدر العلم »

فضحك عبد الله وقال « لا أدري . . . وهل تزعم ان اخي لا يعرف قدر العلم ؟ »

فاجاب وهو يهزُّ كتفيهِ « هو يعرف كل شيء طبعاً ولولا ذلك لم يجعلهُ ابوه ولي العهد » وظهر من ملامح وجهه انهُ يضمر شيئاً آخر

فقال عبد الله بسذاجة وصدق نية « ربما كان هذا من اسباب ولاية العهد . ولكن الولاية آلت اليهِ لانهُ اكبر اخوته »

فقال الفقيه « ليس الكبر شرطاً من شروط الولاية فان الخليفة يجب ان يلتفت في من يوليه بعده ان يكون اهلاً للحكومة وتكون شروط الخلافة متوفرة فيهِ . . . ولذلك رأينا كثيرين من الخلفاء عدلوا عن اكبر اولادهم الى من هم دونهم في السن او بايعوا غير ابنائهم رغبة في مصلحة المسلمين »

الفصل الثامن عشر

الوشاية

فتوسم عبد الله في ذلك الكلام خروجاً عن المألوف سماعهُ من هذا الفقيه . ولكنه كان حسن الظن فيهِ فقال « لم يعدل الخلفاء عن اكبر اولادهم الى سواهم الا لاسباب تخالف شروط الخلافة »

قال « هل يذكر مولاي الامير شروط الخلافة ؟ »

قال « اعرف لها عشرة شروط »

قال « هل وجدت بينها ان يكون الخليفة اكبر اخوته ؟ »

قال « كلا .. ولا ان يكون ابن الخليفة السابق . فاذا عملنا بذلك وجب اختيار ولي العهد من جمهور المسلمين . وانما هي قواعد اصطلح عليها الخلفاء بعد جعل الاسلام ملكاً عضوداً »

قال الفقيه « مالنا ولهذا دعنا منه وقل لي اذا شئت ما هي اهم شروط الخلافة واولها »

قال « اولها حفظ الدين على اصوله المستقرة وما اجمع عليهِ سلف الامة فان ظهر مبتدع او زاغ ذو شبهة عنهُ اوضح له الحجة وبين لهُ الصواب واخذه بما يلزم من الحقوق » (١)

قال الفقيه « يكفي هذا الشرط .. فهل هو متوفر في مولانا ولي العهد ؟ »

فاستغرب عبد الله سؤالهُ وقال « كيف لا . . دعنا من هذا البحث الآن »

قال « دعنا منهُ اذا شئت ولك الامر يا سيدي . ولكنني لم يعد يمكنني كتمان ما في نفسي من الغيظ . . بعد ان كتمتهُ اعواماً . . »

فتفرس عبد الله في وجهه فرأى الجد فيهِ فقال « وما ذاك ؟ »

قال « اقول ما في نفسي ؟ »

---

(١) الاحكام السلطانية

قال « قل . . لا باس عليك »

قال « ما برحتُ منذ أُسندت ولاية العهد الى مولانا الحكم وأنا اقول في سرّي لما ذا لا تكون لسيدي الامير عبد الله علمي ان شروط الخلافة اوفر فيك مما فيهِ . ينبغي لسيدي ان يعتقد صدق نيتي في خدمة المسلمين . ولا يخفى عليهِ اني صنيعة مولاي الحكم وانا اعرف الناس بهِ . وقد خدمت مولاي الامير أيضاً واطلعت عَلَى الحقيقة في الاميرين . فكنت كلما خطر لي هذا الخاطر اشعر بانقباض وانا اكتم ذلك عن مولاي . واما الآن فلا اجد بدّاً من التصريح بعد ان كدت افتضح او افتضحت في ذلك الموقف بالامس . . فلم استطع كلمة اقولها ولا اظن الامير ينسب ذلك الى جهلي فما هذه اول مرة وقفت فيها خطيباً كما تعلم . ولكنني اعترف لك اني لما شاهدت مجلس امير المؤمنين وابنائهِ الى جانبيه ورأيت تمييز الحكم بالولاية والشارة والمجلس مع علمي بفضل الامير عبد الله وما ترجوه الامة عَلَى يده لم املك عن الغضب وانقبضت نفسي وشغل خاطري حتى اضعت رشدي . فلما طلب اليَّ الكلام لم استطعهُ كما رأيت » قال ذلك وقد بدا الاهتمام في محياه وعينيهِ وتندى جبينهُ بالعرق

فلما سمع عبد الله كلامه اعتقد اخلاصه لكنه لم يقتنع بانتقاده فقال « اراك تقول ما تقوله من غضبك لنفسك فلا ينبغي لك ان تجعل ذلك ذريعة للطعن عَلَى ولي العهد . ولولا اعتقادي صدق طويتك لم اصبر عَلَى سماع كلامك — ان الحكم اجدر مني بهذا المنصب من كل وجه انهُ اكبر مني سناً واوسع علماً واكثر دراية »

فخاف الفقيه عاقبة تصريحه وكاد يُغلب عَلَى امره بين يدي عبد الله فعمد الى التخلص فقال « قد اسأت فهم مرادي ياسيدي فما انا طاعن عَلَى ولي العهد ولكنني اقول ما اعرفه . ومع ذلك فانت صاحب الرأي وكنت احسبك تعتبر صدق نيتي في خدمة المسلمين . . انت اعلم مني بما صارت اليهِ الخلافة من الانغماس بالترف والانحراف عن خطة الخلفاء الراشدين الم ترَ ما يأتيهِ امير المؤمنين من تقديم الخصيان دون سواهم حتى كادت السلطة تأول الى غير اهلها — لا اخاف ان يقع ذلك في زمن الناصر لتعقله وتقواه ولكنني اخاف منه في ايام الحكم وهو لا يبالي . . »

فقطع عبد الله كلامهِ وقال « دع هذا الحديث ايها الفقيه وحدثنا بما يفيد — اني اراك تطاولت في طعنك الى والدنا الناصر صاحب هذه الدولة وهو الذي اقام بنيانها وكبت الكفار وغلب الاعداء . ونصر الدين »

فابتدره الفقيه قائلاً « حاشا لله ان انكر ذلك عليه وانما انا اخاف ممن يخلفه — الا نخاف عَلَى الاسلام اذا كان خليفته يقرأ كتب الفلسفة ؟ »

فصاح عبد الله « كتب الفلسفة . ؟ تعني ان اخي يقرا هذه الكتب . .؟ معاذ الله.. واذا فرض انه يقرأها فما علينا الا النصيحة له ان يتركها . »

فابتسم ابتسامة اغتصابية وقال « ننصحه .. هل تظنه يقبل النصح ؟ فلنتركه عساه ان يهتدي »

وشعر الفقيه انه فشل بوشايته ولم يجد في نفسه قوة عَلَى الاقناع . وكانت الشمس قد توارت وراء الافق واقبل الظلام . ولم يشعر الفقيه بذلك الا لما رأى احد الخدم دخل و بيده مسرجة اضاء مسراجها ووضعها عَلَى دكة في بعض جوانب القاعة . فتذكر الفقيه سعيداً الوراق وما سمعه من تعريضه بالامر الذي باحث الامير عبد الله به فاخذ الخوض في الموضوع ريثما يأتي وكان عَلَى موعد من مجيئه في تلك الليلة

الفصل التاسع عشر

سعيد وعبد الله

وهما في ذلك جاء الحاجب يقول « ان سعيداً الوراق بالباب ياسيدي ؟ »

فالتفت عبد الله الى الفقيه كأنه يستفهمه عن سبب مجيئه فقال الفقيه « اظنه قادماً بالكتاب الذي اخبرت مولاي عنه »

فقطع عبد الله كلامه قائلاً « العقد الفريد . مرحباً بكل قادم علينا بمثل هذه التحف »

فخرج الحاجب ثم عاد ورفع الستارة عن الباب حتى دخل سعيد وقد ابرقت عيناه وتجلت الهيبة في محياه فحيا ووقف . فدعاه عبد الله الى الجلوس فجلس عَلَى وسادة وهو لا يحمل شيئاً .. »

فقال عبد الله « انت سعيد الوراق .. اظنني رأيتك قبل الآن .. مرحباً بقدومك . اين العقد الفريد ؟ »

قال « هو خارجاً ياسيدي هل ادخل بهِ عليك »

قال « كيف لا ؟ »

فنهض وعاد والكتاب بيده ملفوفاً بملاءة من الحرير فوضعه عَلَى وسادة بين يدي الامير عبد الله فاخذ يقلب فيهِ و يتأمل نظافة خطه وحسن تبويبه وضبط كتابته وسعيد صامت ثم قال عبد الله « انه خط جميل .. »

فقال الفقيه « الم اقل لمولاي انه خط فتاة ؟ »

فالتفت عبد الله الى سعيد كانه يستشهده فقال « نعم ياسيدي وقد رآها الفقيه بعينه وسمع كلامها »

فقطع الفقيه كلامه وقال « الم اقل لك ان تاتي بها معك الليلة ليراها مولانا الامير اين هي ؟ »

قال « قد اتيت بها وهي في دار الجواري »

قال « عبد الله سنستقدمها بعد قليل . . . هل جاءك كتب جديدة غير هذا ؟ »

قال « سمعت بكتاب لا يزال صاحبه يعمل في تأليفه وهو احسن كتب الادب على الاجمال لانه يغني عنها جميعاً »

فتطاول عبد الله عند ذلك وقال « اظنك تعني كتاب الامالي للقالي » وتناوله من جانبه وقدمه اليه ليراه

فاخذه سعيد وفتح اول صفحة منه فوجد عليها علامة الحكم فقال « هذا لمولاي ولي العهد . . قد علمت ان الامام ابا علي اسماعيل القالي ألفه له . . بالحقيقة ان مولانا الحكم يبذل الاموال في اقتناء الكتب ويرغب اهلها في التأليف »

فاحس عبد الله بغيرة من هذا الاطراء وقال « هل هذا هو الكتاب الذي اشرت اليه الآن ؟ »

قال « كلاَّ يا سيدي »

قال « واي كتاب هو ؟ »

فتظاهر سعيد بالتردد وقال « كتاب آخر اهم من هذا ربما زاد على خمسة اضعافه . . »

قال « وما اسمه او ما اسم مؤلفه ؟ »

فنظر سعيد الى الفقيه كانه يوسطه في استعفاء الامير من ذكر اسم الكتاب . ولم يكن الفقيه عالماً بشيء من ذلك فظهر الاستغراب فيه . فملَّ عبد الله الانتظار فقال « ما بالك يا صاحب ؟ العلك ندمت على كلامك ؟ »

فاظهر التلطف والاستعطاف وقال « نعم ندمت وكان ينبغي لي ان احفظ ما اؤتمنت عليه سرًّا ولكن لساني سبقني »

فازداد عبد الله رغبة في معرفة ذلك السر وقال وقد بان التغير في عينيه فسبقه الفقيه الى الكلام قائلاً « تحفظ ذلك سرًّا عن مولانا الامير . . وممن تخاف افشاءه ؟ »

قال « اخاف ممن لا يفضله في الحكم غير امير المؤمنين »

ففهم عبد الله انه يعني اخاه ولي العهد فقال « اذا كان الامر يتعلق باخينا الحكم ماعليك

اذا قلتهُ لي من باب العلم بالشيء ؟ »

قال « يسمح لي مولاي الامير ان اقول كلمة »

قال « تفضل قل »

قال « ان الكتاب من كتب الادب و يليق بالامير عبد الله اكثر مما يليق باخيهِ ولي العهد لعلمي بامیال كل منهما الى اي صنف من الكتب .. »

فاستبشر الفقيه انهُ سيذكر ميله الى كتب الفلسفة فلما رآه سكت اتمَّ كلامه من عند نفسهِ فقال « اظنك تعني ان الحكم يميل الى اقتناء كتب الفلسفة »

فعض سعيد عَلَى شفتهِ السفلى واظهر انهُ استاء من تصريح الفقيه وتصدى للدفاع عن الحكم فقال « من قال لك ذلك ؟ . ربما اقتنى ولي العهد بعض كتب الفلسفة لكنهُ ارغب في كتب الادب والشعر واللغة . اليس هو الذي حمل القالي عَلَى جمع هذا الكتاب وهو من كتب اللغة .. وهذه مكتبته وفيها الوف من هذه الكتب ... دعنا من هذا الآن »

فقال الامير عبد الله « لم اعد اصبر عَلَى كتمان اسم ذلك الكتاب واسم مؤلفه بعد ما تقدم .. قل من هو ؟ » قال ذلك بلحن الأمر

فاظهر سعيد انه يقول ذلك اذعانًا لامرهِ وقال « ان الكتاب ياسيدي في الغناء واسمه الاغاني »

فقطع الامير كلامه قائلاً « الاغاني للموصلي ؟ »

قال « كلاَّ يا سيدي انَّ مؤلفه ابو الفرج الاصبهاني الاديب المشهور وهو من بني امية .. ان الكتاب لم يخرج للناس بعد ولكنني سمعت عنه شيئًا كثيراً واطلعت عَلَى بعض اوراقه في بغداد ... ولكن لا فائدة لنا من القول فقد علمتَ ان مولانا ولي العهد بعث من يشتري الكتاب من مؤلفهِ واوصاه ان يبذل له ما شاء من الدنانير .. »

فالتفت الفقيه الى سعيد وقال « فاذا اراد مولانا الامير عبد الله اقتناءه من يمنعه ؟ »

قال لا اعلم ولكنني اعلم ان ولي العهد بعث من يشتريه ثم انا عرفت ذلك سرًّا وانما بحت بهِ هنا صدقة واذعانًا للامير »

فتنحنح عبد الله ليشغل نفسه عما جال في خاطرهِ من الغيرة عَلَى تقدم اخيه عليه حتى في الامور الادبية كاقتناء الكتب ونحوها واخذ يقلب صفحات العقد الفريد بين يديه فابتدره سعيد وهو يظهر انهُ يستجلب استغرابه فقال « هل رأيت اجمل من هذا الخط ياسيدي . » واستأذنه في تناول الكتاب ففتح الفصل الاول منه وهو يبحث في مايصحب

السلطان فوضع يده على فقرة من ذلك الفصل وقال « اظن مولاي انتبه لهذه القاعدة من الخط انها خط ابي علي ابن مقلة الكاتب الشهير في بغداد وقد توفي من بضع سنين (٣٢٨ هـ) »

فصاح عبد الله « ابن مقلة ؟ هذا خطه ؟ خطه بيده ؟ »

قال « كلا يا مولاي ولكن الجارية التي نسخته من مولدات بغداد وقد اخذت الخط عن ابن مقلة نفسه . . »

فجعل عبد الله يتفرس في الخط وسعيد يوجه نظره الى فقرة أخرى من ذلك الفصل وفيها حكاية قدوم عمر بن الخطاب الى الشام . واخذ يظهر انه يقرا هذه القطعة اعجاباً بخطها فقرا منها « ان عمر بن الخطاب لما قدم الشام قدم على حمار ومعه عبد الرحمن ابن عوف على حمار فتلقاهما معاوية في موكب ثقيل فجاوز عمر حتى أخبر فرجع اليه . فلما قرب منه نزل اليه فأعرض عنه فجعل يمشي الى جنبه راجلاً فقال له عبد الرحمن ابن عوف اتعبت الرجل . فأقبل عليه عمر فقال يا معاوية أنت صاحب الموكب آنفاً مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك ؟ قال نعم يا امير المؤمنين . قال ولم ذاك . قال لانا في بلد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو ولا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان فان امرتني بذلك اقمت عليه وان نهيتني عنه انتهيت . فقال لئن كان الذي تقول حقاً فانه راي أريب وان كان باطلاً فانها خدعة اديب » (١)

ثم قرا بعده ببضعة عشر سطراً حكاية قدوم ابي موسى الاشعري على عمر بن الخطاب وفيها من المبالغة بالزهد والرغبة عن الملذات ما فيها فقرأ منها قول عمر « قال يا ربيع انا لو نشاء لملأنا هذه الرحاب من صلائق وسبائك وصناب ولكني رأيت الله تعالى نعى على قوم شهواتهم فقال أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها . ثم امر أبا موسى أن يقرني وأن تستبدل بأصحابي »

وكان سعيد يقرأ ذلك ويوقع النبرات في اماكنها بحيث يتضح المعنى المراد . وكان عبد الله يسمع ويعتبر لقرب عهده بكلام الفقيه عن بذخ ابيه ولحظ الفقيه ذلك فقال « لله در ابن الخطاب وسائر الخلفاء الراشدين فقد كان احدهم يلبس الثوب من الكرباس الغليظ وفي رجله نعلان من ليف وحمائل سيفه ليف ويمشي في الاسواق كبعض الرعية واذا كلم ادنى الرعية أسمعه أغلظ من كلامه وكانوا يعدون هذا من الدين الذي بعث به النبي صلوات الله عليه وسلامه (٢) اين هم واين الخلفاء بعدهم ؟ »

(١) العقد الفريد ج ١ (٢) الفخري

فقال سعيد « صدق الفقيه ان الجديرين بالخلافة قليلون وقد تغير الناس وتقلبت احوالهم بعد الراشدين فانغمسوا في الابهة والترف ولم يفعل ذلك احد منهم الا دل على قرب ذهاب دولته كما اصاب العباسيين في بغداد لاواخر دولتهم واخاف ان يتطرق ذلك الى هذه الدولة . والحق يقال لا ارى بين ابناء امير المؤمنين اقرب باخلاقه وتدينه من الراشدين غير مولانا الامير عبد الله فهو التقي الزاهد [1] . . لا اقول ذلك للفتنة وقانا الله منها فان الامر قد استتب الآن لمولانا الحكم ولكنني اقول ما يخطر لي . . »

فنظر الفقيه الى عبد الله من طرف خفي واشار بعينيه كأنهُ يستشهد بما قالهُ سعيد على صحة قولهِ

الفصل العشرون

عابدة

وخاف سعيد ان يقول الفقيه شيئاً يضجر منهُ عبد الله لانهُ كان لحدة ذهنهِ يكاد يستطلع ضمير مخاطبه فحوّل الحديث وقال « مالنا ولهذا الآن . هل يأذن الأمير بانصرافي ؟ »

فأظهر عبد الله الاستغراب وقال « انصرافك ؟ الى اين ؟ . . اين هي الجارية التي ذكرتها ؟ . هل هي جاريتك ؟ »

قال « هي جارية لي ولكنها جارية ادب وشعر ومنادمة وليست لشيء غير ذلك . فانها تثقفت وحفظت الشعر واتقنت الخط والغناء والضرب على الآلات . . هل يأمر مولانا باستقدامها الساعة ؟ »

فصفق عبد الله فأتى ساهر الحاجب فأمره ان يستقدم الفتاة فخرج وعاد فأدخل عابدة وانصرف فدخلت وهي ساعتئذٍ في اجمل حالاتها لانها هيأت نفسها لملاقاة ابن الخليفة الناصر حسب وصية سعيد او استهوائه . فلبست ثوباً لطيفاً واصلحت شعرها ونظفت اسنانها فضلا عما في وجهها من الهيبة والذكاء

فلما وقع نظر عبد الله عليها شعر بميل اليها واستلطفها واشار اليها ان تقعد فقعدت متأدبة وقد اطرقت حياء فابتدرها الامير قائلاً « ما هو اسمك يا حسناء ؟ »

قالت « عابدة يا سيدي »

(١) المقري ج ٢

فاعجبته رخامة صوتها فقال « قد انبأنا سعيد انك تحفظين الشعر واخبار العرب فاي الشعر تحفظين ؟ »

قالت « ماشئت ياسيدي . . من شعر الجاهليين او الاسلاميين او المحدثين كما تشاء »

قال « هل اطلعت على جمهرة اشعار العرب لابي زيد ؟ »

قالت « نعم وحفظت نوادره وديوان الحماسة للبحتري وطبقات الشعراء لابن قتيبة وقرأت اكثر دواوين المحدثين وكثيراً من كتب الادب وآخرها كتاب العقد الفريد هذا . . انهُ كتاب جميل »

قال « لقد زدتهِ جمالاً بخطك الانيق . . » قال ذلك وتناول كتاب الامالي بيده ولم يكد يفتحهُ حتى قالت « اليس هذا كتاب الامالي للقالي ؟ »

فاستغرب معرفتها اياه وهو يحسبهُ لم يتصل بسواه بعد اخيهِ الحكم فقال « وهل قرأتهِ ؟ »

قالت « تصفحتهُ على عجل فحفظت منهُ شيئاً علق بذهني اتلو عليك منهُ اذا شئت ما يتعلق باخبار اجدادكم بني امية في الشام »

فابرقت اسرتهُ اعجاباً وسروراً وقال « هات مايخطر لك »

قالت « هل اقص عليك حديث عبد الملك بن مروان لما خرج لقتال مصعب بن الزبير ؟ ان عبد الملك كان رجلاً شديداً استخاص الخلافة لنفسه وطالبوها كثيرون حاربهم واستقل بها — يعجبني من حماسه وعلو همته خروجه لمحاربة مصعب من الشام الى العراق وقد ارادت ام يزيد ابنهِ (امرأته) منعهُ عن المسير فقالت « يا امير المؤمنين لو اقمت وبعثت اليهِ لكان الرأي » فقال لها « ما الى ذلك سبيل » فلم تزل تمشي معهُ وتكلمهُ حتى قرب من الباب فلما يئست منهُ رجعت فبكت وبكى حشمها معها . فلما علا الصوت رجع اليها عبد الملك فقال « وانت ايضاً ممن يبكي ؟ قاتل الله كثيراً كأنهُ كان يرى يومنا هذا حيث يقول :

اذا ما اراد الغزوَ لم تثنِ همهُ حصانٌ عليها نظم درٍ يزينها
نهتهُ فلما لم ترَ النهي عاقهُ بكت فبكى مما شجاها قطينها

ثم عزم عليها بالسكوت وخرج [1] — ان عبد الملك ايها الامير رجل طلاب معالٍ الم تره لم ينفك عن الخلافة حتى نالها فقال فيهِ كثير :

احاطت يداه بالخلافة بعد ما اراد رجال آخرون اغتيالها »

(١) امالي القالي ج ١

وكان الامير عبد الله في اثناء كلامها ينظر الى ما يبدو في وجهها من ملامح الاعجاب بعلو همة عبد الملك وتقع كلماتها في اذنيه وقوع النغم الشجي على قلب الصب المتيم واحس بشيء استفزهُ للحماس فقال « لقد احسنت يا عابدة وهل تحفظين لغير بني امية ؟ »

قالت « ويعجبني من الشعر يامولاي ما يستحث المروءة ويهيج الاريحية كقول زهير بن ابي سلمى من معلقة :

ومن لم يذد عن حوضهِ بسلاحهِ يهدَّم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يجعل المعروف من دون عرضهِ يفره ومن لا يتقِ الشتم يشتم
ومن يجعل المعروف في غير اهله يعد حمدهُ ذماً عليهِ ويندم
ومن لا يزل يستحمل الناس نفسهُ ولا يعفها يوماً من الدهر يسأم
ومهما تكن عند امرىء من خليقةٍ وان خالها تخفى عَلَى الناس تعلم

فلما بلغت الى هنا صاح الفقيه « لله درّ هذا الجاهلي ما ابلغهُ ان كلامهُ يحرّك الهمم » أراد استنهاض همة الامير عبد الله . أما عبد الله فأخذه الطرب من حسن القاء عابدة وتجاهل امر الحماس . وكان كتاب الامالي في يدهِ فقلبهُ حتى أتى عَلَى ابيات اشار باصبعهِ عليها وقال « ان احسن مما ذكرت قول علي بن عباس هذا :

وحديثها السحر الحلال لو انهُ لم يجنِ قتل المسلم المتحرزِ
ان طال لم يملل وان هي اوجزت ودَّ المحدث انها لم توجز
شرك العقول ونهزة ما مثلها للمطمئن وعقلة المستوفز

فالتفت سعيد الى عابدة وقال « قللي يا عابدة من الحماس »

فقال عبد الله « اظنك تخاف عليَّ الخروج . . والله لا مطمع لي بشيء من ذلك والفقيه يعلم رأيي »

فقال سعيد « اذا لم يكن ذلك باعث فالخروج مظنة سوء »

فقالت عابدة « ويعجبني قول عمرو بن كلثوم من معلقته :

اذا ما الملك سام الناس خسفاً ابينا ان نقرَّ الخسف فينا
ألا لا يجهلن احدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فطرب الفقيه لهذا المعنى واستخفهُ السرور حتى ضحك وهو ينظر الى عبد الله . فقال عبد الله وهو يقلد انشادها « فنجهل فوق جهل الجاهلينا . . »

قال ذلك وقد بان الجد في عينيهِ فرأى سعيد الوقوف عند هذا الحد فقال « ألا يأمر الامير ان تغني لهُ شيئاً ؟ »

فقال « وهل تحسن الغناء . وعلى من تعلمت ؟ »

قال « تعلمت على مغني بغداد خلائف الموصلي وحفظت اغانيه »

قال « غني لنا ما تعرفينه »

قالت « هل اغني غناء ابراهيم بن المهدي الذي شغله الغناء عن طلب الخلافة فقضى عمره كأنه من العامة ؟ انه كان طروبًا وله غناء حسن »

فقال الفقيه « غني يا عابدة انه غناء ابن خليفة يسمه ابن خليفة ولكن شتان بينهما »

فاخذت تغني

هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تدفعون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبيّ فقالها »

الفصل الحادي والعشرون

الانصراف

فطرب عبد الله واخذت عابدة بمجامع قلبه واحس بميل نحوها غير ميل الناس الى الاماء لانه آنس فيها عزة وقوة وادبًا ورقة فاحب ادبها وبلاغتها وذكاءها فامر بمائدة من الفاكهة والاطعمة والاشربة المنعشة لانه لم يكن يمس الخمر ولا النبيذ ولا يطيقهما

فلما مدت المائدة وليس عليها شيء من الخمور نظر سعيد الى الفقيه كأنه يساره وقال له « هذا اولى بها » واشار الى المائدة وخلوها من الخمور . ففهم عبد الله انه يشير الى الخلافة . ولكنه حسب نفسه فهمها خلسة مع انها مقصودة . لكنه تجاهل واستعاد الفتاة صوتًا آخر فغنته وغنت غيره حتى طربوا فقال الامير عبد الله « الا تعرف عابدة الضرب على العود أو غيره »

فالتفت سعيد اليها فمدت يدها الى جيبها فاستخرجت عيدانًا واوتارًا واخذت تركبها وتشدها فصارت آلة كالقانون واقبلت تضرب عليها ضربًا متقنًا اسكر الامير بلا مدام فقال لسعيد « ما اسم هذه الآلة ؟ »

قال « هذه القانون يا سيدي »

قال « لا اذكر اني رأيتها من قبل »

قال « ان مخترعها لم يزل حيًا وهو عالم كبير لكنه من رجال الفلسفة . وقد تعمق بابحاثها والف فيها كتبًا »

فقطع كلامه قائلاً « اظنك تعني الفارابي التركي الفارسي الذي نشأ في الشام »

قال « نعم هو بعينه »

فتصدى الفقيه للكلام فقال « أليس هو صاحب القصة مع سيف الدولة يوم حضر مجلس غنائه وهو لا يعرفه وسأله اذا كان يعرف الغناء فاستخرج آلة ضرب بها فبكى من في المجلس ثم فكها وركبها وضرب ضرباً آخر فنام من في المجلس ؟ »

قال عبد الله « بلى هو نفسه وهذه هي الآلة التي ضرب عليها وقد تمكنت عابدة من اخذها عنه »

فازداد الامير عبد الله اعجاباً بالفتاة وتعلق بها فقال « الا تبيع هذه الحسناء ؟ »

قال « اجلها عن وصمة البيع والشراء ياسيدي ولكنني اكون أنا وهي في خدمة الامير ايده الله »

قال « أما انت فاود ان تعدل عن الوراقة للناس وتختصني بفضلك فتكون خازن كتبي فتبقى انت وعابدة . هل تستطيع ذلك ؟ »

فاشار عبد الله برأسه مطيعاً وقال « اني أعد من اسباب سعادتي ان اكون في خدمة مولاي الامير فابذل جهدي في مصلحته . . وقد كنت أهم بان اقول له ان عابدة لا اتخلى عنها لانها ألفتني واني احفظها اشياء من الادب والشعر لم تعرفها وكان علي ان اتردد عليها حيناً بعد آخر . . »

فقطع عبد الله كلامه قائلاً « لاحاجة الى التردد انك تقيم في هذا القصر وتتولى ترتيب الكتب في اماكنها وتسعفني في التفتيش عن الكتب في مظانها فاني لا أريد ان تكون في قرطبة مكتبة خيراً من مكتبتي »

فاشار سعيد برأسه مطيعاً وسكت

فصفق الامير عبد الله فجاء ساهر فقال له « أعدوا داراً خاصة لنزيلنا سعيد وادخلوا عابدة دار النساء مكرمة »

فوقف سعيد يريد الانصراف فدعاه الامير عبد الله للبقاء هناك فقال « لابد لي من الانصراف لتدبير اموري والتفرغ لخدمة مولاي »

ونهض الفقيه وهو يقول « وانا انصرف بامر الامير الى منزلي »

اما عابدة فلما أحست ببقائها وحدها نظرت الى سعيد وقد توردت وجنتاها من الحياء لبقائها وحدها هناك . فتقدم سعيد اليها وربت على كتفها وقال « لا تخافي يا عابدة انك في حياطة الامير عبد الله وستكونين معززة مكرمة » والتفت الى الامير وقال « بأمر مولاي

ان تأتي القهرمانة لمرافقتها الى دار النساء فتأنس بها »

فأمر فأتت القهرمانة الى باب القاعة . فخرجت عابدة معها وهي تلتفت الى سعيد وقد شقّ عليها فراقه

أما سعيد والفقيه فودعا الامير عبد الله وركب كلٌّ منهما بغلته وانصرفا . ولما خرجا من الحديقة قال الفقيه « لا نلبث ان نصل الى منزلي . . ألا تتحوّل معي نمكث هنيهة وتبيت عندي الليلة ؟ »

قال « لا بأس من ذلك » وتحوّلا ودخلا وقد سرّ الفقيه بنزوله لانهُ عزم على الاستعانة بهِ في اقناع الامير عبد الله بما ارادهُ على الحكم . ولم يعلم ان سعيداً اكثر رغبة منهُ في ذلك ولكنهُ اكثر دهاء واوسع صدراً

دعاه الفقيه الى غرفة واسعة فيها سراج مضيء وقد فرشت ارضها بالحصر والبسط في في ابسط مايكون . وأمر الفقيه خصيه ان يعدّ فراشين يفرشهما في تلك الغرفة ففعل . واخذ الفقيه في تخفيف ثيابه ودعا لسعيد بثوب خفيف لتبديلهِ . فبدّلا الثياب وجلس كلٌّ منهما على فراشه وسعيد يقرأ كل حركة من حركات الفقيه كأنهُ في ضميره . والفقيه يحسب نفسه يحتال في اغرائهِ على عبد الله

الفصل الثاني والعشرون

المؤامرة

فلما جلسا قال الفقيه « اننا عملنا اشياء كثيرة في هذا اليوم »

قال سعيد « ولكنهُ انتهى بالخير . ان الامير عبد الله فاضل عاقل واظنك تتردد عليهِ كثيراً فليتك تقيم عندنا فنسكن معاً ونتعاون على الدرس ونتساعد في خدمته اني اشعر بميل شديد اليهِ ولا اذخر وسعاً في كل ما يرضيه بعد ما آنسته من لطفه وتواضعه »

فقال الفقيه « كثيراً ما دعاني للاقامة في قصره وانا اتردد واما الآن فاني مجيب وسانتقل » ثم اعتدل في مجلسه والتفت الى سعيد والسراج وراء ظهره فوقع نوره على عيني سعيد فزادهما لمعاناً واشراقاً وتخيل فيهما قوة كادت تغلب عليه فقال « ان من يحب الامير عبد الله يجب ان يعرفهُ حقيقة مركزه . »

فقال سعيد « ظهر لي انه كثير التواضع راغب في العزلة والتقاعد عن السياسة ولولا ذلك ما ظننت أخاهُ الحكم ينال الخلافة دونه »

فاشرقت اسارير الفقيه فرحاً بهذا التصريح وقال « وقد تعبت وانا اشرح له ذلك وهو ينكره عليَّ فاذا ساعدتني اقتعناه فاني ارى في عينيك الاقناع »

قال « انا لا التمس اقناعه بالقوة ولا اظنه يحتاج الى اقناع في افضليتهِ عَلَى اخيه ولكنه يخاف الظهور بذلك فاذا تحقق ووثق بخاطبه صرّح بما يدور في خلده . ثم هو لا يكفيه ان يفضل نفسه عَلَى اخيه بالقول ولا بدَّ من العمل »

قال « نبدأ اولاً بالقول . . هل تقنعه انه اولى بالخلافة من اخيه ؟ »

قال « يجب ان تبدأ انت بذلك . . اقنعه اولاً ان اخاه الحكم متكبر يظن نفسه فوق اخوته وسائر اهله وبين له ان في قرطبة وسائر الاندلس احزاباً كبيرة غير راضين عن بذخ الناصر واسرافه في البناء وغيره وانهم ناقمون عَلَى الحالة الحاضرة وربما بايعوا واحداً من غير ابناء الناصر فهو اولى بهذه المبايعة فهذا يهون عليهِ القبول ... »

وكان الفقيه مصغياً بكليته الى ما يقوله سعيد وقد ادهشه دهاؤه وشعر بالفرق العظيم بين رأيهما وتحقق انه اذا اتى الامير من هذه الوجهة أقنعه . ولكن كبرياءه منعته من التصريح بفضل سعيد بهذا الرأي فقال « بورك فيك من رجل عاقل وهذا ما خطر لي ان اقوله للامير ولكنني اخاف اذا سألني اين هذه الاحزاب ان اعجز عن الجواب »

فاشار سعيد بسبابتهِ الى صدره وقال « اسألني عند الحاجة فادلك . واحذر اذا ذكرت ما تقدم للامير ان تشير اليَّ او تذكر اسمي الا اذا سألك عن الاحزاب قل له سنسأل سعيداً الوراق لعله يعرف لانهُ كان كثير الاختلاط بالناس . فهمت ؟ »

فسرَّه طلب سعيد ان لا يذكر اسمه في ذلك فيحسبهُ عبد الله هو صاحب تلك الآراء فيعلو في عينيه فقال « فهمت . . انت لا تريد ان اروي شيئاً من ذلك عنك »

قال « نعم . لان الغرض تقديم النصيحة للامير ولا عبرة في من يقدمها »

ففرح الفقيه بذلك واراد ختام الحديث فقال « سأفعل كما امرت . . اظنك في حاجة الى الرقاد الآن . . استودعك الله الى صباح الغد »

وصفق فجاء الخصي فقال له اخرج السراج من هذه القاعة » فاخرجه وتوسدا للرقاد فنام كلاهما ملءَ عينيه والآمال ملءُ صدره وا كثرها رجاء الفقيه فانه تصور الفوز طوع ارادته وانه متى هاج عبد الله عَلَى اخيه ملك ناصية الدولة ولم يقدر ما يعترض ذلك من العوائق وما يقتضي تغلب عبد الله من المشقة ولكنهُ كان من اصحاب الاوهام يقنعهم الخيال ويكتفون بالقواعد النظرية أو التمنيات القلبية وقلما ينظرون في ذلك من الوجهة العملية فيغلب الفشل عَلَى مشاريعهم

الفصل الثالث والعشرون

عبد الله بنفسه

اما الامير عبد الله فلما خلا بنفسه بعد ذهاب سعيد والفقيه مكث برهة وافكاره تائهة والكتاب في يده يقلبه كانه يتصفحه ولكنه لم يكن يرى شيئاً لاستغراقه في ما كانوا فيه وقد جاش في صدره امر لم يخطر بباله من قبل — لم يخطر له منذ اسندت ولاية العهد لاخيه ان في الناس من يراه اولى بها منه ولا هو خطر له شيء من ذلك. ولكن الانسان لا يبرح ضعيفاً متقلباً ما دام محبا لنفسه يؤثرها على غيرها ويرى فيها من الفضائل ما ليس في سواها. فهو ضعيف من هذا القبيل فاذا اردت اغراءه او تحريضه على امر لا تجده راغباً فيه بين له علاقته به وعائدته عليه فلا تلبث ان تراه يهتم به

وعبد الله لم يكن يخطر له مناظرة اخيه الحكم على الخلافة ولذلك فانه استغرب تعريض الفقيه بشيء من هذا الشان وانتهره. لكنه ما لبث ان اختلى حتى اخذ يناجي نفسه ويحدثها بما لا يمكن ان يكاشف به احداً — وافكار الانسان من حيث مكاشفة الاخرين بها ثلاث طبقات: الاولى اسرار يطلع عليها اصدقاءه ومعارفه والثانية اسرار لا يطلع عليها الا الاخص اصدقائه او امراته ولا يتجاوز بها غيرهم وهو حريص على كتمانها عن سواهم. وهناك خواطر لا يطلع عليها احداً ولو علم انها تتصل بسواه لتنغص عيشه وافتضح امره. وفي هذه الخواطر حقيقة ضمير الرجل وكنه طبيعته وقد يكون الفرق بينها وبين ما يظهر للناس من افكاره تناقض عجيب — وقد تتقاربان ولا تختلفان الا قليلاً واكثر الناس دهاء ابعد ما بين ظاهرهم وباطنهم

ولم يكن عبد الله من اهل الدهاء ولكن ما سمعه تلك الليلة هاج في قلبه حسد اخيه على ولاية العهد وبالغ في كتمان ذلك حتى ودَّ لو يكتمه عن نفسه. وفكر في حاله وعجزه عن مناواة اخيه فاخذ يتعلل بما يغنيه عن ابهة الدولة ويفضل على متاعب الملك فقال في نفسه « ان متاعب الحكومة كثيرة وما الذي يرجوه الانسان من دنياه غير التمتع بالحياة على الذ الطرق وانفعها وانا لا ينقصني شيء من لوازم الحياة وتوابعها وليس عليَّ من واجبات الخليفة ما يشغلني عن مطالعة الكتب والتبحر في العلم ولا ينقصني شيء من الوسائل التي للخلفاء لاقتناء اسباب الراحة والنعم » وخطر بباله حالاً ما سمعه تلك الليلة من عابدة فاحس براحة ولذة وقال في نفسه « ان جلوسي مع هذه الجارية اطارحها

الاشعار واحاديثها واسمع غنائها خير من الامر والنهي وما يشوبهما من تعب القلب وخوف الفتنة او الحذر من اهل الدسائس وغيرهم »

وكان يفكر في ذلك وهو واقف امام منضدة عليها كتاب العقد الفريد واخذ يقلب صفحاته والحاجب واقف بالباب ينتظر امره في ما يريد من امر الرقاد. ثم انتبه عبد الله لنفسه فالتفت فراى المائدة لا تزال هناك وعليها الفاكهة فتناول تفاحة وقطعها والتقم بعضها وهو غارق في بحار الهواجس ولم يشرح خاطره لانه لم يستقر على رأي يعوّل عليه فاخذت تتقاذفه الخواطر بين ان يصغي لقول الطاعنين على اخيه او يبقى على ما كان عليه من حسن الظن فيه

واخيراً راى حسن الظن ادعى الى السلامة والوفاق فطرد تلك الخواطر من باله وصفى نيته من جهة اخيه وذهب الى فراشه . فعادت الى ذهنه صورة عابدة وتذكر ما سمعه من حديثها فاحسّ بلذة واصبحت بعد وجودها في منزله من اكبر اسباب التعزية ووعد نفسه بمجالستها والتمتع بادبها

بات تلك الليلة على عزم الاخلاص لاخيه الحكم والتسلم له بحق ولاية العهد فلما اصبح دخل مكتبته وهي عبارة عن قاعة كبيرة في جدرانها رفوف فيها الكتب على غير نظام فوضع كتاب العقد الفريد في صدر كتب الادب بحيث يقرب تناوله عند الحاجة واخذ يقلب ما بين يديه من كتب الفقه والحديث ويعود الى الادب والشعر فكان يرى مشقة في الوصول الى الكتاب المطلوب فاخذ يعلل نفسه بترتيبها متى عاد سعيد

الفصل الرابع والعشرون

رسول ولي العهد

مضى معظم النهار ولم يعد سعيد ولا الفقيه فلما كان الاصيل ملّ الانتظار فتذكر عابدة فامر حاجبه سراً ان يأمر القهرمانة بارسالها اليه في القاعة للتمتع بحديثها ريثما يأتي الرجلان او أحدهما وقد احس باشتياق الى لقياهما ليرجع الى حديث الامس و يظهر لهما ماعول عليه من إغفال امر ولاية العهد و يتوقع ان يوافقاه على رأيه فيزداد رسوخاً في الامر

عاد الحاجب وقال « ان جارية تدعى عابدة آتية » فامره ان يعد مائدة من الفاكهة والحلوى وبعض الاشربة المنعشة فاعدها في غرفة الامس وجلس عبد الله وبيده كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة يقلب فيه

وبعد قليل جاءت عابدة وهي في أجمل مما كانت بالامس فتلقاها بالترحاب وامرها بالجلوس وسألها اذا كانت تحسن الضرب عَلَى العود

فاجابت « نعم »

فامر باحضاره فتناولته ولحظ فيها خجلاً او انقباضاً فظن ذلك ناتجاً عن استيحاشها لغياب سعيد فابتدرها قائلاً « كيف وجدت نفسك عندنا ياعابدة »

قالت « بخير يا سيدي وكيف لا اكون سعيدة وانا في ظلك »

قال « لكن يظهر انك استبطأت سعيداً كما استبطأته انا ولكنه لايلبث ان يأتي ولا يعود الى الغياب »

فلما سمعت ذكره توارد الدم الى وجهها فظن عبدالله ذلك من الخجل وما درى مايختلج في قلبها من الهيام بسعيد فقال « لايلبث سعيد ان يأتينا وقد شعرت بالحاجة اليه في هذه الساعة لما دخلت مكتبتي ووجدت الكتب فيها مبعثرة وسيتولى ترتيبها .. انه رجل حكيم وقد وقع من نفسي موقعاً حسناً . ويكفي من فضله انه كان وسيلة في قربك »

فازداد تورد وجنتيها وعمدت الى التخلص فقالت « لعل هذا السبب الاخير اقل حسناته بالنظر الي مولاي الامير واما بالنظر الى هذه الجارية فهو فضل كبير »

ففرح عبدالله بلطف اسلوبها وتحقق انها راضية بالمقام عنده فقال « لابل الفضل لعلي بذلك وارجو ان نستطيع مكافأته على هذا الصنيع .. »

فتنهدت وقالت وهي تصلح العود في حجرها « ان سعيداً يستحق ثقة مولاي الامير واذا جربه وجده حكيماً عاقلاً صاحب رأي وهمة يتفانى في خدمته »

فقطع عبد الله كلامها بلطف وقال « لا نريده الا سالماً معافىً ولنا بخبرته خير مساعد يرتب مكتبتنا ويهدينا الى مظان الكتب النفيسة »

قالت « نعم ولكنه يفيد في كل امر يقترح عليه » قالت ذلك وهي تتشاغل باصلاح وتر مشوش واظهرت عند الفراغ من هذه الجملة ان العود قد تم إصلاحه وضربت عليه صوتاً من الاصوات المطربة وغنت فطرب عبدالله . وتقدم اليها ببعض الفاكهة والحلوى واخذ في تقريظ الصوت الذي سمعه وإطراء صناعتها فيه وهي تتواضع وتجود في الضرب والغناء وعبدالله متكئ على وسادة لايزداد في الفتاة الا اعجاباً وطرباً وقد صوب رأيه بالاكتفاء بها عن سائر مطامع الخلافة

وهما في ذلك دخل الحاجب ووقف بحيث يعلم عبدالله انه يريد ان يخاطبه فالتفت اليه واشار بيده يستفهمه عن غرضه فقال « ان في الباب رسولاً من مولانا ولي العهد يحمل

كتاباً الى مولاي الامير»

قال « ولي العهد ؟ » وقد ساءه الرجوع الى شيء من امره

فقال « نعم يا سيدي »

فقال « اين الكتاب ؟ »

فخرج وعاد والكتاب بيده فسلمه الى الامير فتناوله وهو يجلس وفضه ووجّهه نحو نافذة يدخل منها النور واخذ يقرأه وقد توقفت عابدة عن الغناء واخذت تراعيه فرأت في وجهه تغيراً وهو يتفرس في الكتاب ويعيد قراءته ثم اعتدل في مجلسه وطوى الكتاب وجعله تحت الوسادة واراد التظاهر بعدم الاكتراث ولم يخف على عابدة ما تولاه من الاضطراب ولكنها لم تعرف السبب فرأت من الادب ان تبقى صامتة تنتظر امره

أما هو فبعد الاطراق هنيهة وقف وتظاهر انه يطلب حاجة في الغرفة الاخرى فمشى الى الباب ثم رجع كأنه تذكر شيئاً يستدعي رجوعه وقعد في مكانه وعاد فاستخرج الكتاب من تحت الوسادة واعاد قراءته ثم شعر بما ظهر من قلقه بين يدي عابدة فاراد ان يوهمها غير الواقع فقال « مابالك لا تغنين ياعابدة ؟ »

فتناولت العود وقالت « خفت ان اشغل مولاي عن قراءة الكتاب ولعل فيه ما يهمه او يدعو الى اعمال الفكرة فيشوش عليه عودي »

قال « ليس فيه شيء » وبدا الانقباض في وجهه ثم قال « غني يا عابدة .. غني ما شئت »

فاخذت العود وغنت صوتاً آخر فاوقفها وقال « غني قول عمرو بن كلثوم الذي ذكرته بالامس :

اذا ما الملك سام الناس خسفاً ابينا ان نقرّ الخسف فينا

الا لا يجهلن احدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا »

فادركت من طلبه ان في الامر سرّاً غاظه وكانت قد علمت ان الكتاب جاءه من اخيه ففهمت بعض الشيء فاخذت تغني وتجود وهو يترنح لها والغضب باد في محياه

الفصل الخامس والعشرون

الجواب

ثم جاء الحاجب ووقف بجانب الستر فتذكر عبد الله انه ينبغي له ان يجيب الرسول على كتابه فقال « العل الرسول يتوقع مني جواباً ؟ »

فاشار ساهر برأسه ان « نعم »

فقال « قل له ليس عندي جواب » قال ذلك بلحن التهديد

فخرج ساهر وفعل ما امر به عبد الله لكنه لطف الاسلوب فبدلاً من ان يقول « ليس عند الامير جواب » قال « سيجيب على الكتاب بعد الآن »

فقال الرسول « أُمرتُ ان ارجع بالجواب الساعة »

فاكبر ساهر ان يبلغ الامير كلامه على هذه الصور فاستمهله وهمّ بالرجوع وكانت الشمس قد قاربت الغروب فسمع وقع حوافر بغلة في الحديقة ثم رأى الفقيه قادماً على بغلته حتى اذا وصل ترجل وهمّ بالدخول فرأى رسول الحكم بالباب فعرفه فتقدم الرسول وسلم على الفقيه فسأله عن سبب وجوده هناك فقال « جئت برسالة من مولانا ولي العهد وانا واقف التمس الجواب . »

فدخل الفقيه وهو يقول في نفسه « ماذا عسى ان تكون تلك الرسالة » حتى اقبل على مجلس الامير وعابدة فاستأذن ودخل فدعاه الامير الى الجلوس والغضب بادٍ في محياه فعلم الفقيه ان سبب غضبه متعلق برسالة الحكم فسره ذلك لانه يساعده على مرامه فقال « مالي أرى مولاي غضباً ؟ »

قال « لا شيء . » واحب التظاهر بعدم الاكتراث

فقال الفقيه « رايت رسول ولي العهد بالباب .. هل بلغك خبر قدومه ؟ »

قال « نعم وقد صرفناه ... الم يذهب ؟ »

قال « رايته لا يزال واقفاً »

فصفق عبد الله فدخل ساهر فابتدره قائلاً « الم تصرف الرسول ؟ »

قال « بلغته امر مولاي فقال انه يريد الجواب الان »

فلم يتمالك عبد الله عن التحفز للوثوب ثم تراجع وقال « قل له ليس عندي جواب فليمضِ »

قال « قلت له يامولاي ولم يمض »

فاظهر الفقيه اشتراكه بغضب الامير فقال « عجباً من هؤلاء .. ايقول له الامير امض ولا يمضي ؟ وهل هو الا رسول مأمور ؟ » والتفت الى الامير وقال « هل يأذن مولاي ان اعلم رسالته وانا اصرفه حالاً »

فمد الامير عبد الله يده الى الكتاب فاستخرجه من تحت الوسادة ودفعه الى الفقيه وقال « هذا هو الكتاب .. اقراه لنفسك »

فتناوله وقراه واذا هو :

« من الحكم ولي العهد الى اخيه الامير عبد الله

« اما بعد فقد بلغنا ان جارية اديبة تحفظ الشعر وتحسن الغناء جاءتك فاحببنا ان نراها فاذا جاءك كتابي انفذها اليَّ مع رسولي وانت في خير وعافية »

ثم رفع الفقيه بصره الى الامير فرآه ينظر اليه ويتوقع رايه فقال « قد قرأته يا سيدي فما ترى ؟ »

قال « قد علمت رأيي وهل ترى ان اجيبه الى طلبه ؟ »

فرأى الفقيه ان يغتنم تلك الفرصة لاثارة نقمة الامير على اخيه فقال « قد رايتَ صواباً .. ولا اظن الحكم يعني بطلبه هذا الا الاستئثار لنفسه كانه يرى ذلك من حقوق ولاية العهد »

فاغتصب الامير عبد الله ضحكة وقال « نعم من حقوق ولاية العهد .. الم يكفهِ سكوتي عن تلك الولاية حتى تعدى الى هذا »

فقال الفقيه « ومع ذلك فان هذا الامر يتعلق بسعيد وله فيه الرأي الاول بعد امر مولاي »

قال « مهما يكن من ذلك فليس لرسالة اخي جواب »

قال « لا ارى باساً من ان تجيبه على كتابه بما تراه »

قال « ماذا اكتب اليه ؟ . »

قال « اكتب ما شئت .. اعتذر له انك لا تقدر ان تجيبه على طلبه لاسباب عندك لا تستطيع بيانها »

فنادى الامير عبد الله « ساهر »

فدخل الحاجب فقال « الي بدواة وقرطاس »

فجاءه بهما فتناول القلم وكتب :

« الى الحكم ولي العهد من اخيه عبد الله

« اما بعد فقد جاءني كتابك فتأملته ملياً فلم اجدني قادراً على اجابة طلبك فيه فاعذرني والسلام »

وختم الكتاب ودفعه الى ساهر وقال له « سلمه الى الرسول »

فخرج وسلمه اليه

وعاد الامير عبدالله الى ما كان فيه واشار الى عابدة ان تغني وكانت قد لحظت شيئاً يهمها لما سمعته من ذكر سعيد في اثناء الحديث فطفقت تغني

ستعلم في الحساب اذا التقينا غداً يوم القيام من الظلوم
وينقطع التلذذ عن اناس من الدنيا وتنقطع الهموم
الى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم

فكانت تغني وعبد الله مطرق يهز راسه وقد جاشت به عاطفة الاعتبار ولما فرغت من البيت الاخير ردد قولها « وعند الله تجتمع الخصوم » ثم قال « رحم الله ابا العتاهية »

واغتنم الفقيه تلك الفرصة وجعل يطري عابدة وصوتها وهي تجود في الغناء واحس عبد الله بحاجة الى سعيد فقال « الا تظن سعيداً ياتي الليلة ؟ » ثم صاح « ساهر »

فتقدم الحاجب فقال « انيروا السراج »

فخرج ثم جاء بعض الخدم بالسراج وفي اثناء ذلك اجاب الفقيه على سوال الامير قائلاً « اظن سعيداً لا يلبث ان ياتي وقد اصبح مجيئه ضرورياً الآن عَلَيَّ ما اظن »

قال « لا بد من حضوره فانه صاحب راي »

الفصل السادس والعشرون

المائدة

وهم في ذلك جاء الحاجب يقول « ان سعيداً الوراق بالباب »

قال الامير « يدخل »

فدخل سعيد ووجهه يتدفق هيبة وذكاء فتلقاه الامير مرحباً

وكان اكثرهم سروراً عابدة فانها لم تتمالك عند دخوله عن الابتسام ونظرت اليه وهي تزعم انها تغازله فابتسم لها وجلس وهو يحيي الامير ثم الفقيه

فقال الامير « مرحباً بصاحبنا سعيد لقد ابطأت علينا »

قال « كنت مشتغلاً بتدبير شؤون منزلي حتى انفرغ لخدمة مولاي » ثم اشار الى

عابدة وقال « كيف رايت عابدة اليوم ؟ »

قال « انها تاتينا كل يوم بطرب جديد بارك الله فيها » ثم نادى ساهراً وامره ان يهتم بتهيئة الطعام

وبعد هنيهة حضرت المائدة فقاموا اليها واغتنم الفقيه غفلة من عبد الله وقص على سعيد امر الكتاب الذي جاء من الحكم وما اجاب عليه . فلما جلسوا الى المائدة قال سعيد « هذه اول مرة اتناول بها الطعام مع الامير عبد الله بن امير المؤمنين الناصر وهو شرف عظيم لي والفضل في وصولي اليه يرجع الى هذه الفتاة الاديبة » واشار الى عابدة

فاجابت عابدة وعيناها تلمعان وقالت « بل الفضل لك يامولاي بوجودي هنا فلولاك لم انل هذه النعمة بمنادمة الامير »

فقطع الامير كلامها قائلاً « والحق يقال انكما صاحبا فضل عليّ فاني اعدّ هذا الاجتماع طالع عيش جديد لم اذق مثله من قبل »

وكان الفقيه ساكتاً فالتفت الى الامير وبيده صدر دجاجة يهيئهُ لقمة لنفسه وقال « كلكم اصحاب فضل الا ابن عبد البر المسكين وهو اول من فتح باب التعارف » قال ذلك ووضع اللقمة في فيه ونظر الى سعيد من طرف خفي وغمزهُ فاجابهُ باشارة لطيفة

فضحك عبد الله وقد سري عنه وقال مازحاً « ليس الفضل لاحد منا وانما الفضل لابن عبد ربه صاحب العقد الفريد فان كتابه دلنا على هذا الكنز الثمين » واومأ الى عابدة بيد وسعيد بيد أخرى

فتناول سعيد سكباجة بين يديه وناولها الى عابدة وهو يقول « ما بالك لا تأكلين يا عابدة خذي كلي من طعام الامير واشكري الله على نعمه . . انك لا ترجين نعمة فوق هذه ... »

فمدت يدها لتتناولها

وقطع الفقيه كلامه وهو يمدُّ يده ليتناول قدح الماء من الخادم الواقف في خدمتهم وقال « ولو كانت عند ولي العهد ؟ . » جعل هذه الفقرة تتمة لما قاله سعيد

فاجابه سعيد « ما اظن ولي العهد اذا بلغه خبر عابدة ولو في العراق انه يتركها تفلت من يديه . لكننا لا نرضى عن مولانا الامير بدلاً »

فلما سمع عبد الله ذلك الحديث انشرح صدره لانه توسم في سعيد مساعداً لهُ على رد طلب الحكم وهو يظنه يقول ذلك ولا علم له بكتاب الحكم فنظر اليه وقال « ماقولك اذا جاءنا كتاب اخي ولي العهد الآن يطلب عابدة ؟ »

قال « لا اظنه يفعل بعد ان علم بدخولها منزلك فان ما ناله من شرف ولاية العهد يشغله عن ان يسلبك جارية تمتع بحديثها .. اني اجلُّ حكمة ولي العهد عن ان يبلغ به الطمع الى هذا الحد فهو يدرك انه نال بولاية العهد حقه وزيادة أفلا يترك لاخيه فتاة يسرُّ بحديثها ؟ »

فنظر عبد الله الى الفقيه وابتسم يزعم انه يفعل ذلك خلسة من سعيد يذكره بما اطلعا عليه من كتاب الحكم في ذلك المساء فتجاهل سعيد واتم كلامه قائلاً « وقد جرت عادة الخلفاء وولاة العهد في الاسلام ان يوسعوا لاخوتهم واعمامهم ابواب الرزق ويهدوهم الجواري والسراري ويقطعوهم الاقطاعات الواسعة ويفرضوا لهم الرواتب الباهظة ويهدوا اليهم الهدايا الثمينة تعويضاً لهم عما خسروه من حق الملك وخوفاً من نقمتهم ومولانا ولي العهد يعلم ذلك فكيف يعقل انه بدلاً من ان يهدي اخاهُ عشرات من امثال هذه الجارية يطمع ان يسلبه اياها ؟ »

وكان سعيد يتكلم والفقيه يعجب بدهائه وحسن اسلوبه في تمكين عبد الله من حقه في رفض طلب اخيه وعبد الله يعتقد ان سعيداً يقول ما يقوله وهو لا يعلم بما جرى وكان يشعر عند سماع كلام سعيد ان الحق مجسم في كل كلمة من كلامه واقتنع باقواله اقتناعاً تاماً فاصبح يعدُّ طلب اخيه تعدياً تجاوز الحد وسرَّهُ انهُ رفض الطلب وتأسف لانه لم يغلظ لاخيه بالعتاب

الفصل السابع والعشرون

كتاب آخر

ولما فرغوا من الطعام قاموا الى قاعة الاستراحة وعادوا الى السماع وسعيد يبالغ في اطراء عابدة . وعبد الله يزداد طرباً بصوتها واعجاباً باديبها وجمالها حتى انتصف الليل وكادوا ينصرفون واذا بساهر دخل وبيده كتاب فوقف حيث يعلم الامير انه يريد مخاطبته فناداه وقال « وما ذاك ؟ »

قال « كتاب يا سيدي »

قال « ممن ؟ »

فتقدم به اليه وهو يقول « من مولانا ولي العهد »

فمدَّ عبد الله يده وتناول الكتاب فعلم من عنوانه انه من اخيه الحكم فاختلج قلبه في صدره تطلعاً لما عساه ان يكون فيه وقد حمل اليه في تلك الساعة وكانت يداه ترتعشان وهو يفضه . وتطاول الجميع باعناقهم وهم يتكهنون في ما يحويه الاَّ سعيداً فانه كان عالماً بما هنالك ولم يفته خبر الكتاب الاول لانه هو الذي بعث ولي العهد على كتابته بغير ان يشاهده ولكنه استخدم في الوصول الى ذلك دهاءه وحسن تدبيره

ففض عبد الله الكتاب وقراه ولم يتمالك ان رمى به الى سعيد وقال له « ما اسرع ما صدق ظنك بولي العهد . . هذا هو كتابه اقراه »

فتناوله سعيد وهو يقول « هل اقرأه جهاراً ؟ »

قال « اقرا وليس فينا من يحسن الاحتراس منهُ »

فاخذ يقرأ والجميع منصتون :

« من الحكم ولي العهد الى اخيه الامير عبد الله

« اما بعد فاني استبعدت ان تكتب اليَّ بما كتبت وكدت انكره لو لم يكن بخطك وعليه خاتمك .. اطلب منكَ جارية فتضن بها عليَّ وانت رعاك الله لا تجهل منزلة ولي العهد لدي امير المؤمنين فاذا قرات كتابي هذا ارسل الجارية مع رسولي الليلة وعهدي بفطنتك وحسن نظرك انك فاعلٌ ان شاء الله »

وكان سعيد يقرأ ويقف عند كل فقرة ويهزُّ رأسهُ استغراباً حتى اتى على آخر الكتاب فدفعهُ الى الامير عبد الله واطرق . وكان الامير وهو يسمع الكتاب ينظر الى عابدة فرآها قد تركت العود من يدها وبدت الدهشة في محياها وتململت كأنها تتحفز للنهوض فعظم ذلك على الامير فلما اعاد سعيد الكتاب اليه تناولهُ وقال « ارايت ما بلغ من طمع اخي فيَّ ؟ اصانعه واجامله والتمس رضاه وهو يهددني ويلح في طلبهِ ؟ »

فقال سعيد وهو يظهر الاستغراب « لم يكن ذلك ليخطر ببالي او اصدقه لو لم اقرا هذا الكتاب بنفسي »

فقال الفقيه بلحن الفائز الظافر « اما انا فلم اكن استبعده وقد اشرت الى مولانا بمثل ذلك لاني كنت اتوقعهُ . وهو حفظه الله يحسن الظن باخيه وربما اساء الظن فيَّ وحسبي اقول ما قلته لغرض لي فهذا كتابه جاء شاهداً يؤيد قولي . فما عليك يا مولاي الا الطاعة او الخروج .. فان الرفض يجرُّ الى البلاء »

فكبر عبد الله تهديد الفقيه واستخفافه بعزمهِ بين يدي الفتاة فقال « الطاعة ؟ وهل لولي العهد طاعة عليَّ في مثل ذلك ؟ . لم يبق الا ان يطلب نسائي واولادي اليه

او لعله يريد ان اقوم في خدمته ايضاً » قال ذلك وهو يهز راسه

فقطعت عابدة كلامه وهي تهمُّ بالنهوض قائلة « لا احب ان اكون سبباً للخلاف بين الامير واخيهِ فالأولى ان اخرج انا من هذه الدار واعود الى خبائي او ارجع الى بلدي .. وما انا مما يستحق التنازع عليه — عهدنا ابناء الخلفاء يتنازعون على الخلافة ويتهادون الجواري والمغنيات والمقاطعات »

فمد عبد الله يده اليها وامسكها بثوبها واجلسها وقد هاجت فيه الاريحية وقال « الا تعلمين ان خروجك من منزلي اهانة لي كأني عاجز عن صيانتك فيهِ ... متى بلغ من اخي ان يأخذك مني قسراً وان تأتى له ذلك فانا اخرج من هذا المنزل قبلك » قال ذلك وبان الغضب في عينيه وقد نسي موقفه

فجلست وهي تظهر الانكسار والاذعان وتنظر الى سعيد كأنها تستنجده

فنظر سعيد الى الامير عبد الله وقال « تمهل يا مولاي . اعرني سمعك لحظة »

فسكت الامير وقال « قل اني سامع »

فتلفت سعيد في اطراف القاعة كأنه يحاذر ان يسمعه احد وقال « هل نحن في مكان مصون لا بأس علينا اذا تكلمنا من واش او رقيب ؟ »

قال عبد الله « تمهل » وصفق فجاء الحاجب فقال له « لا نحب ان يدنو من مجلسنا احدٌ »

قال « سمعاً وطاعة يا سيدي » وخرج واغلق الباب وراءه

فقال عبد الله لسعيد « تكلم »

فارسل سعيد نظرة في عيني عبد الله خرقتهما الى داخل احشائه فاحس انه طوع ارادته فقال سعيد « لا ينبغي للامير عبد الله ان يخرج عن رشده ويطعن على اخيهِ ولي العهد ويرد طلبهِ الا وهو على يقين مما يجرُّ اليهِ ذلك من العواقب الخطرة .. فعليك ان تتبصر في العواقب ثم تقول ما تريد . وقد ظهر لي من تلاوة هذا الكتاب ان ولي العهد كتب اليك كتاباً مثله يطلب فيه عابدة فرددت طلبه فاعاد الطلب مشفوعاً بالتهديد والوعيد فعليك اذا ازمعت الرفض ان تثبت فيهِ ولو مهما كلفك ذلك من الامور . والا فاذعن واطع واجعل انك لم ترَ عابدة ولا اتت منزلك »

فقطعت عابدة كلامه قائلة « اسمح لي ياسيدي ان انبهك الى امر لعله لم يعزب عن فطنتك .. اني لا ارى من الحكمة ان تحمل الامير على مغاضبة اخيه وهو صاحب القول اليوم ولا اراه قادراً على رد طلبه ولا احب ان اكون وسيلة لهذا التغاضب فالاولى ان

اخرج انا من هذا المكان قبلاً فيكون عذره اني غير موجودة هنا . واخاف اذا رد مولانا الامير طلبه وانا باقية هنا ان يعمد ولي العهد الى اخذي بالقوة وانا اعترف لك اني لا اريد بدلاً من سيدي الامير عبد الله فلا ابرح هذا المكان الا قتيلة »

فاعظم الامير عبد الله تعلق عابدة به مع ما يتخلل قولها من التوبيخ اللطيف واخذته الحمية وقال « قلت لكِ ياعابدة انك في جواري ولا يستطيع احد ان ياخذك قهراً »

فقال سعيد « اذا كان مولاي الامير مصمماً عَلَى الرفض فليفعل ولعله اذا تبصر في عاقبة ذلك يكون قد خدم مصلحته ومصلحة المسلمين »

فاطرق عبد الله وهو يفكر في مغزى كلام سعيد

فتصدى الفقيه للكلام قائلاً « ارجو ان يكون سيدي الامير قد فهم مغزى هذا القول .. وانا ازيده بياناً » قال ذلك وزحف حتى لاصقت ركبته ركبة الامير وقال بصوت منخفض « اتذكر ياسيدي ما قاله لك بالامس عن ولاية العهد وما يقوله الناس عن امير المؤمنين واسناده اياها الى الحكم دون سواه ؟ . قلت لك يامولاي ان الحكم لا يرى الناس كفاءته لهذا المنصب لاسباب ذكرتها لك . وهم غير راضين عنه لكنهم لا يجسرون عَلَى الكلام ان لم يجدوا من يطالب بها سواه وهم يرون الامير عبد الله اولى بها من الجميع . فاذا طلبها وجد انصاراً كثاراً فاذا وافقتني وقمت بهذا الامر فما عليك الا ان تقول »

الفصل الثامن والعشرون

الجواب

وكان عبد الله في اثناء ذلك مطرقاً يفكر وقد رجع اليهِ صوابه واحس بثقل الامر الذي يحرضونه عليه وندم عَلَى ما فرط منه لعلمهِ بعجزه من القيام به لكنه استثقل الرجوع عن كلامه حالاً فراى ان يحتال في التخلص فقال « ارى كلام صاحبنا سعيد اقرب الى الصواب فاننا ينبغي لنا قبل الاقدام عَلَى هذا الامر ان نتدبر وننظر فيهِ قبل ان نشعل ناراً لا نقوى عَلَى اطفائها . لا سيما وان امير المؤمنين هو صاحب الدولة اليوم فقيامي بما تدعوني اليه يعدُّ خروجاً عليه وهو لم يتعرض لي في شيء ولا ارى عمل اخي الحكم الا من عند نفسه قد ارتكبه عن طيش ولعل والدي امير المؤمنين اذا عرف بهِ ارجعه عنه »

فقال سعيد « لقد نطقت بالصواب ورأيت رأي اهل الحزم والدهاء فما الذي تنويهِ هل تطيع اخاك في ماطلبهُ »

قال « كلا بل ارده فاذا اصرّ نرفع الامر الى امير المؤمنين »

فقال الفقيه « لا ارى من سداد الرأي ان تضيع هذه الفرصة التي سنحت لك .. انها فرصة ثمينة يا سيدي ولا تخف .. ان في قرطبة الوفاً ينتظرون كلمة من الامير عبد الله ليبايعوه .. واذا اطعتني وعملت برأيي ادلك عَلَى الطريق .. والا فافعل ما بدالك »

فنظر عبدالله الى سعيد كانه يستشيره فقال سعيد « ان ما يقوله الفقيه قرين الصواب وانا اعلم الناس بدخائل هذا الامر وازيد عَلَى ما قاله ان في قرطبة عصابات قوية تجتمع سرًّا وهي ناقمة عَلَى امير المؤمنين نفسه لخروجه في سيرته عن مثال الخلفاء الراشدين وتقريبه الخصيان والصقالبة والعبيد دون اصحاب هذه الدولة ورافعي علم الدين الحنيف وهم يرون الدولة صائرة بذلك الى غير اهلها . وكانت الامال عالقة بمن سيخلفهُ لعله ينهج طريقاً غير طريقه ويرجع الى الصواب وكانت افكارهم متجهة الى مولاي الامير يظنون الخلافة تصير اليه فلما رأوا اباه بايع الحكم ولم يلتفت الى الامير عبد الله قطع حبل آمالهم ويئسوا من الاصلاح فاذا طالبها مولانا الامير رأى من يشد ازره والا فاذا ظللتَ عَلَى بيعة الحكم فانا مبايعه معك وليس من الحكمة التسرع في نقض البيعة فانا لا اشير عليك بان تفعل او لا تفعل ولكنني اقول ما اعلمه وانت صاحب الرأي »

فاعجب عبدالله بما في كلام سعيد من النزاهة والحزم وصدق النصيحة لانه ما زال يعدُّ نصيحة ابن عبد البر مشوبة بالغرض لانهُ ناقم على الحكم وهو الذي حرمه من القضاء فقال عبدالله « لله درك من حكيم عاقل وقد فهمت مقالك فهل ترى سرعة النهوض ؟ »

فاجاب وهو يظهر الجد « لا ... بل انا ادعوك الى التبصر في العواقب فان ظهورك بمنازعة اخيك على ولايته العهد امر عظيم يجرُّ الى فتن وحروب اذ لا يسهل على الحكم التنازل عن شرف قلده اياه ابوه ولا يصح للامير عبدالله بعد ان يطلب ذلك المنصب ان يرجع عنهُ صاغراً . واذا رجع هو فانصاره الذين سيقومون بنصرته لا يرجعون حتى يسندوا الخلافة الى اهلها الذين يعرفون قدرها ويقومون بشروطها لان قيام هؤلاء ليس حباً بشخص الامير عبدالله ولكنهم احبوا فضائلهُ اللائقة بالخلافة رغبة في مصلحة انفسهم . فاذا طالب بها هو ثم رجع عنها طلبوها لسواه ... انا قد خرجنا عن الموضوع ونحن في مسألة طمع ولي العهد بعابدة فاذا رجع عن طلبه لم يبق داع مستعجل لمناوأته والاَّ فنرى ما يكون »

وكان عبدالله والفقيه وعابدة شاخصين الى سعيد يسمعون كلامه ويعجبون لما فيه من الحماس ولا سيما عبدالله فانه فهم اشياء لم تكن تخطر ببالهِ . فهم وجود عصابات واحزاب

تنكر مبايعة اخيه ونحب مبايعته . ولو كان من اهل المطامع لاخذ طلب اخيه ذريعة للنهوض عليهِ لكنهُ كان ضعيف العزيمة وانما سيق الى الامر بالاغراء وظل مع ذلك يتهيب من مناهضة اخيه و يخاف سطوة ابيه فعمد الى المسالمة وساعده عَلَى ذلك ماسمعه من سعيد فقال « قد علمت اشياء لم اكن اعلمها ... »

فقطع الفقيه كلامه قائلاً « والذي علمته اقلُّ من الواقع وستكشف لك الايام قدر نفسك وتعلم انك رجاء الالوف والوف الالوف »

فاومأ سعيد بيده الى الفقيه وقال « لا ينبغي ان تحرض مولانا الامير تحريضاً فان الصبر اولى والتأني لا بد منه .. فالان ما الذي يراه مولانا ؟ »

قال الامير « اني ارى الفقيه متسرعاً واوافقك على التأني وطول الاناة ولذلك فانا مرجئ هذا الامر الى فرصة اخرى لاني لا ازال ارى امير المؤمنين ينصرني ويقف في طريق اخي فيرده عن هذا التعدي فاذا لم يفعل ذلك فالايام بيننا »

فقطع سعيد كلامه قائلاً « نعم الرأي رأيت وربما ادرك امير المؤمنين عند اطلاعه عَلَى عمل ولي العهد انه اساء الاختيار في ما عهده اليه فيرجع الى الصواب وينقل ولاية العهد اليك ... »

فزاد عبد الله تمكناً من رايه فقال « فاذاً نؤجل ذلك الى فرصة اخرى ونبحث الان في طلب اخي »

فقالت عابدة « مهما يكن من رأي الامير في طلب اخيهِ فانا خارجة بامره من هذا القصر » قالت ذلك ونهضت وهي تجمع خمارها الى صدرها وقد القت العود من يدها

فامسك عبد الله بطرف ثوبها واقعدها وقال « كيف تخرجين ؟ »

قالت « اخرج بامر مولاي لاني رايتني سبباً للنزاع مع اخيهِ و و ... »

فقطع الامير كلامها قائلاً « اما بامري فلا تخرجين . وقد قلت لك انه لن ينال قلامة من ظفرك وها انا كاتب اليه الجواب الساعة » والتفت الى سعيد كأنه يستشيره في ما يكتب

فقال سعيد « اكتب اليه بما ترى ولا تشدد الوطأة فان الحكمة تقتضي حسن الاسلوب لئلاَّ تتغير القلوب . واذا اذنت ان اكتب عنك كتبت فاذا استحسنت ما اكتبه وقعت عليه والا رددته »

قال « افعل »

وكانت الدواة والقرطاس لا يزالان هناك فتناول سعيد القلم وكتب :

« الى الحكم ولي العهد من اخيه عبد الله

« اما بعد فقد اخذت كتابك و عجبت لالحاحك في طلب تلك الجارية بعد ان اعتذرت اليك عن نوالها وانت مع ذلك تهددني وتعرض بما لك من المنزلة عند امير المؤمنين حفظه الله ولأمير المؤمنين اجلّ من ان يجاريك في طلبك او لعلك تحسب ذلك من حقوق ولاية العهد — عَلَى رسلك ليس هذا من الصواب في شيء وقد رأينا الخلفاء في الدولتين الاموية بالشام والعباسية في العراق وفي دولة ال مروان هنا اذا اكرموا احد ابنائهم بولاية العهد عوضوا عَلَى سائر الابناء والاعمام بالاعطية الجزيلة ووسعوا لهم في ارزاقهم ووالوهم بالهدايا من الجواري والسراري والقصور والاقطاعات. فاذا علمت ذلك رجوت ان تعدل عن رأيك الى ما هو جدير بك في مراعاة حرمة اخيك بعد ان هنأك بما نالته من حق الخلافة . وانت اعقل من ان تغير قلبه عليك — ونحن احوج الى التكاتف عَلَى عدونا من الانقسام فيما بيننا والسلام . »

فلما فرغ سعيد من الكتابة دفع الكتاب الى الامير فقرأه فاعجبه اسلوبه ولم يدرك ما فيه من التهديد فوقع عليه وختمه ونادى الحاجب وامره ان يدفعه للرسول ففعل

الفصل التاسع والعشرون

ختام الجلسة

اما سعيد فاراد ان يشغل الامير عبد الله عن ذلك الشأن فقال « هل يأمر مولانا ان يسمع صوتاً من عابدة قبل الذهاب الى الرقاد ام يفضل سماع الاحاديث والاشعار ؟ »

قال « نسمع شيئاً من اخبار العرب »

فالتفت الى عابدة وقال « قصي علينا ما تعرفينه يا عابدة »

قالت « وما عساي ان اقول بعد ما سبقته من الخلاف بين الامير واخيه اود لو اني لم اخلق او اني لم اخرج من بغداد ولا اكون سبباً لهذا الخلاف »

فقطع الامير كلامها قائلاً « انت تنقمين عَلَى وجودك ونحن شاكرون له لانك ريحانة مجلسنا واذا وقع خلاف بيني وبين اخي العلة اول خلاف وقع بين اخوين ولو استطعت الصبر عَلَى الضيم لم ارض بالخلاف . . ولكن اخي تجاوز حده . . ما لنا ولذلك قصي علينا ما يسلينا ساعة ثم ننصرف »

فقصت بعض الاخبار وانشدت بعض الاشعار بعبارة فصيحة معربة زادت الامير تعلقاً بها واخيراً ذهب كل منهم الى فراشه ولكل منهم هاجس واشد تلك الهواجس عند الامير عبد الله

فانهُ لما توسد الفراش اخذ يراجع عبارة كتابهِ الى اخيه فتذكر عبارات لا تخلو من الشدة ولكنه استسلم للقضاء وقال في نفسهِ « لعلها فرصة يعود خيرها عليَّ » واستسهل العمل بمشورة الفقيه في المطالبة بولاية العهد وعلل نفسه ان اباه لا يدع الخلاف يتمكن بين الاخوين الى هذا الحد

بات تلك الليلة تلقاً تقلب في اثنائها كثيراً وما صدق ان طلع الفجر حتى بكر الى المكتبة وبعث الى سعيد فجاء وقد تأهب لترتيب الكتب فطلب الى الامير ان يسعفه ببعض الخدم يساعدونه في حمل الكتب من اماكنها الى مكان يفرق فيه بينها حسب المواضيع . فجمع كتب الادب عَلَى حدة وكتب الفقه وحدها وكذلك فعل بكتب الحديث والتفسير والشعر ولم يجد بينها كتاباً في الفلسفة او الطبيعيات او نحوها من الكتب المترجمة عن اليونانية لانهم كانوا يعدون اقتنائها من قبيل الزندقة وكان الامير عبد الله مشهوراً بالتقوى والزهد حتى سموه الزاهد(١) وقد رأيت في ما تقدم انكاره امر هذه الكتب عَلَى اخيه لما قيل له ان اخاه يقتنيها — وكان ذلك الاعتقاد شائعاً في العالم الاسلامي عملاً بما يريده الخلفاء وهؤلاء كانوا يتكرون امر هذه الكتب مراعاة للدين عَلَى ما يفسره الفقهاء في ذلك العهد . وكان رجال السلطة يراعون اقوال الفقهاء احتفاظاً بنفوذهم لدى العامة لان هؤلاء لم يكونوا يحكمون بمثل الدين عَلَى ما يفسره رجاله

فكان للفقهاء في الدول الاسلامية يومئذٍ نفوذ عظيم وقد يكون الخليفة او السلطان المسلم لا ينكر الفلسفة ولا يعتقد مخالفتها للدين ولكنهُ يضطهد اصحابها مراعاة لشعور العامة عَلَى ان الفلسفة لم يكن لها سوق في الاندلس الا بعد زمن الناصر اي بعد ان دخلتها رسائل اخوان الصفا في اواسط القرن الرابع فنبغ فيها ابن باجه وابن رشد وابن الطفيل في القرن السادس للهجرة . اما ايام الناصر الذي نحن في اثنائها فكان قراء الفلسفة فيها قليلين وكان قد دخل بعض كتبها في ايام عبد الرحمن الاوسط فاخذ بعضهم بشيء منها ومن علم النجوم والرياضيات ولم ينبغ من العلماء في هذه الفنون الا بضعة قليلة . وانما كان رجال الدين يحرمون هذه المواضيع اقتداء بالدولة العباسية فانها كانت تطارد رجال الفلسفة وتتهمهم بالكفر من اوائل التمدن الاسلامي

(١) المقري ج ٢

الفصل الثلاثون

الحمى الغضبية

كان عبد الله يراقب حركات سعيد في انتقاء الكتب حسب المواضيع وربما ساعده في فرزها وهو في شاغل من نفسه بامر اخيه وعابدة . ونحو الظهيرة احس بانحراف في صحته وتعب فاخبر سعيداً انه ذاهب للراحة . وبقي سعيد ثم جاء الفقيه فلما قيل له ان عبد الله في فراشه اتى سعيداً وأخذ يساعده ويحادثه ويتكهن كل منها بما عساه ان يكون جواب الحكم على كتاب عبد الله الاخير مع ما فيه من المغامز . فكان الفقيه يزعم انه يتنبأ بما سيكون حتى قال « كأني ارى جند الحكم واعوانه قادمين للقبض علينا وعلى عابدة »

فهز سعيد كتفيه كانه يقول « لا اعلم » ثم قال « لا احسب ولي العهد يفعل ذلك . . مالنا وله فيلفعل ما شاء ان عابدة لا تذهب اليه ولو رضي الامير عبد الله »

فضحك الفقيه واقترب من سعيد وفي يده كتاب ينفض عنه الغبار ويقدمه اليه ليضعه في مكانه وقال « وزبدة القول ان النفور قد وقع بين الاخوين ولا يلبث اميرنا ان يوافقنا على القيام وانت ترشدنا الى الاحزاب فلا يمضي العام الا وقد انتقلت ولاية العهد او الخلافة الى صاحبنا »

فنظر سعيد في عيني الفقيه وقد استغرب تسرعه في الحكم كيف انه تصور بلوغه الى اقصى المراد وهم لا يزالون في اول الطريق بل هم لم يخطوا خطوة واحدة بعد — ومن الناس من تراه سريع التمسك بحبل الامل حسن الظن بالدهر اذا تصور عملاً يعود عليه بالنفع فبمجرد التصور او الظن يحسب الامر قضي وانه نائل ما يريد . فهذا وامثاله لا يرون الدنيا الا من وجهها الابيض ويعبر عنهم بالمتفائلين لانهم لا يتوقعون دائماً الا الخير وكان الفقيه منهم . خلافاً للفئة الاخرى التي لا يتوقع اصحابها في اعمالهم الا الفشل وهم المتشائمون

وكان سعيد لا من هؤلاء ولا من هؤلاء وانما كان يقيس المستقبل على ما يراه في الحاضر . فكان رأيه في عاقبة تلك المخابرة يختلف عن رأي الفقيه ولكنه كان لدهائه يتظاهر بالجهل والسذاجة حتى يدس ما يريد دسه من الاغراض . وكان ينظر الى الفقيه نظره الى طفل لا يعرف من احوال الدنيا شيئاً فيديره كما يشاء

قضوا ذلك النهار في المكتبة والامير عبدالله لم يخرج من فراشه . ولما امسى المساء ذهب الفقيه للسؤال عن الامير فقيل له انه محموم وعنده ساهر الحاجب فاستاذن في الدخول عليه فاذن له وسأله عن حاله فرأى الحمى قد أخذته فقال له « الا تامر بالطبيب يراك ؟ »

قال « وأي طبيب ؟ »

قال « الاطباء كثيرون في قصر امير المؤمنين واذا شئت استحضرنا لك سلمان بن تاج طبيب امير المؤمنين نفسه او احمد بن جابر طبيب ولي العهد [1] او غيرهما ان الاطباء وهم كثيرون »

فهز رأسه وقال « لا هذا ولا ذاك .. »

فقال الفقيه « او اذا شئت استشرت سعيداً صاحبنا فانه عالم بفن العلاج مثل علمه بسائر العلوم .. انه رجل عجيب »

فلما ذكر سعيداً احسّ الامير عبد الله بارتياح وقال « ان هذا الرجل من نوادر الزمان . واشكر الله لاني وفقت للوصول اليه .. ولك فضل في ذلك »

فاطرق الفقيه تأدباً وقال « بالحقيقة ان سعيداً نادر المثال .. »

فقال الامير « وعابدة ؟ اليست نادرة المثال ايضاً ؟ .. هل رأيت مثلها فتاة أديبة تعرف الشعر والغناء ؟ » وكانه تذكر حديث الامس فانقبضت نفسه فابتدره الفقيه قائلاً « هل بأذن سيدي في استقدام سعيد لعله يصف لك علاجاً ؟ »

قال « ادعه ان لم يكن للعلاج بدوائه فللانس برؤيته »

فاشار الى ساهر فخرج وعاد وسعيد معه وكان الليل قد ضرب سرادقه وانيرت المصابيح ولحظ سعيد من احمرار عيني الامير ان الحمى شديدة عليه فاخذ يده فجس نبضه واطرق كانه يتأمل حركة النبض ثم قال « ألم يجمع مولانا الامير ماءه (البول) »[2]

قال « قد جمعته في هذه القارورة » واشار الى الغلام فاتاه بقارورة قد جمع فيها البول . فتناولها سعيد ونظر في الماء هنيهة ثم قال « ان مولانا مصاب بحمى غضبية وهذا النوع من الحمى لا خوف منه وان اشتدّ »

فاعجب عبد الله بسرعة حكمه ووافق ذلك ما في نفسه لانه يعتقد ذلك . وكانت هذه الحمى معروفة عندهم بهذا الاسم يومئذ في اصطلاحهم فقال « اظنك عرفت الحقيقة لاني اصبت بها مرة قبل هذه وشفيت منها . يظهر انك طبيب ماهر »

قال « ان معرفة هذه الحمى سهلة »

قال « كيف عرفتها . وعلى من قرأت الطب »

قال « تعلمته بالمزاولة بعشرة امام الاطباء الشيخ محمد بن زكريا الرازي رئيس بيت

(١) طبقات الاطباء ٤٦ ج ٢ (٢) كانت العادة في ذلك العصر ان الانسان حالما يشعر بانحراف في صحته يبادر الى جمع البول في قارورة يحملها الى طبيبه يتساعد بها على تشخيص المرض وقد يكتفي بارسال القارورة

الشفاء في بغداد وهو الذي دبر مارستان الري والف كتاب الحاوي الذي عليه معوّل الاطباء اليوم في دار السلام »

قال « صدقت ان الرازي امام اهل الطب ولكنني أحسبه مات »

قال « نعم انه مات منذ بضع عشرة سنة وقد جاء في كتابه المشار اليه وصف كاف عن هذه الحمى »

قال « ما هو العلاج ؟ »

قال « انه يعالجها بالمفرحات من الحكايات والسماع الطيب واللعب ودخول الحمام بالماء الفاتر والتمرخ بدهن كثير والتغذية بما يبرد ويرطب »(١)

فقال الفقيه « لله درك من طبيب نظامي .. ان العلاج سهل . اما المفرحات فهذه عابدة قريبة وعودها رخيم والحمام الفاتر سهل المنال »

فاشار عبد الله الى الغلام ان يعدّوا له حماماً فاتراً والتفت الى سعيد وقال « سأدخل الحمام بعد قليل ومتى خرجت منه تأمر عابدة ان تغنينا صوتاً مفرحاً »

فنهض سعيد وهو يقول « سأعود الى الامير بعد قليل ومعي عابدة .. رعياً لها من فتاة لها نفع كثير »

وخرج ومعه الفقيه ثم احضر له المروخ ليتمرخ به عند الخروج من الحمام . وبعد ساعة بعث الامير اليه انه خرج وتمرخ فجاء سعيد ومعهُ عابدة تحمل عودها وجاء الفقيه ودخلوا على الامير في غرفته واخذت عابدة تضرب على عودها وتغني وكان الامير قد احسَّ براحة منذ خرج من الحمام فانشرح صدره لسماع الغناء واستأنس بالفتاة وزاد تمسكاً بها وشعر براحة تامة كأنه لم يكن به بأس . فلما انقضى بعض الليل اشار سعيد عليه بالرقاد باكراً التماساً للراحة فاطاعهُ وخرجوا على ان يبكروا في الغد وذهب كل الى منزله في قصر مروان

وفي صباح اليوم التالي خلا سعيد بعابدة يعلمها شيئاً من الشعر . وهي انما كانت تلذ بمجالسته شغفاً بحديثه وتمتعاً برؤيته لما علمته من تعلقها به فانها كانت تعشقه وتتفانى في حبه لا تبالي بما تجشمه في سبيل طاعته

(١) القانون

الفصل الحادي والثلاثون

طارق

وهو في ذلك جاءه رسول الامير يستقدمهُ اليه فاسرع وقبل وصوله الى باب القصر لحظ ان بالباب رسولا صقليا من صقالبة الناصر وتأكد ذلك لما اقبل على الباب فرأى الرسول واقفاً هناك وقد ترجل عن جواده وبجانب الجواد هودج عليه الاستار مرخية كان فيهِ امرأة

فلما اقبل على الباب تقدم الحاجب ساهر واستقبله واشار اليه ان يدخل على الامير فدخل توًّا فرآه لا يزال في فراشه وقد نزع عمامتهُ ولبس قبعة النوم . ورأى الفقيه بين يديه وكلاهما ساكت وفي يد الامير رقٌّ عرف من العلامة التي على ظهره انه كتاب من امير المؤمنين . فتجاهل وحياً وهو يبتسم وينظر الى الامير نظرة مستفهم عما هو فيه وابتدره قائلا « كيف اصبح مولانا . ؟ »

قال « اصبحت بخير من فضل الله وقد فارقتني الحمى لكنني لا اظنها الاَّ عائدة اليَّ قريباً »

قال « لا تخف ياسيدي . . انها لاتعود بعد ذهابها . وماذا أرى؟ » واشار الى الرق

فاشار عبد الله الى الفقيه ان يغلق الباب ومد يده وناول الرق الى سعيد

فتناولهُ وقرأه واعاد قراءته ثم نظر الى الفقيه فرآه ينظر اليه وينتظر ما يبدو منهُ فتلفت سعيد حولهُ ثم وجه كلامه الى الامير عبد الله وقال « هذا شأن آخر؟ لم يخطر لي حدوثه . . »

قال الفقيه « لم يخطر لك ولا لمولاي ولكنهُ خطر لي .. وقلته ولم تصدقوني »

قال سعيد « لم يخطر لي ان امير المؤمنين يتالى ولي العهد على طلبه »

فقال الفقيه « استغرب كيف لم يخطر لك ذلك وانت الحكيم العاقل الذي لايفوتهُ شيء .. الا تعلم ان الرجل اذا انغمس في الترف والقصف طلب الزيادة منهما؟ واذا تعود الاستبداد هان عليه الظلم ؟ »

وكان عبد الله مطرقاً يفكر فرفع رأسه وقال « يهون عليه ان يظلم ابنه ايضاً ؟ »

فقال الفقيه « هو لم يظلم ابنه ولكنه ظلم الامير عبد الله التقي الزاهد انتصاراً لابنه العامل على رأيه في كل شيء ... انتصر لولي عهده »

فقطع سعيد كلامه قائلاً « انه لم ينصر ولي العهد وانما يطلب عابدة الى قصره »
قال عبد الله « يطلبها اليه ليعطيها لولي عهده .. » قال ذلك وحرق اسنانه واستلقى على الفراش وتنهد

فقال سعيد « لا تغضب ياسيدي كن على يقين ان ولي العهد لا ينالها وقد سمعت من عابدة نفسها في الامس انها لا تذهب اليه ولو قطعوها اربا »

قال « ولكن هل نعصى امر والدي في ارسالها ؟ ألا ترى انه يطلب انفاذها اليه في هودج القصر ؟ الم ترَ الهودج في الحديقة ؟ »

قال « نعم رأيته واذا ذهبت الى القصر فهو قصر الزهراء لا يقيم فيه ولي العهد كما تعلم »

قال الفقيه « ولكنه يحتال هذه الحيلة علينا لعلمه ان الامير عبد الله لا يمكن ان يعصى امر والده فيرسل الفتاة حالاً ومتى صارت في قصر الخليفة سلمها الخليفة الى ولي عهده . »

فاطرق سعيد هنيهة وهو يعمل فكرته ثم اعاد النظر الى الرق وقرأه ثانية وقال « لا يمكن ان يفعل ما تقول فانه يطلب ارسال عابدة ليراها بعد ان سمع بأدبها ورخامة صوتها. نعم هو يقول انه سمع ذلك من ولي العهد ولكنه اذا رآها لا يعطيه اياها . »

قال الفقيه « وهل تظن ولي العهد يسكت عنها ولا يطلبها من ابيه ؟ واذا طلبها منه هل تظن امير المؤمنين يغضبهُ ويمنعها عنه ؟ »

قال سعيد « اظنه يغضبه ولا يعطيه اياها . »

فقال الفقيه « وهل يرضى الحكم بذلك ؟ ويرضخ كما يرضخ مولانا الامير ؟ »

فقطع الامير كلامهُ قائلاً « ان طاعة والدي فرض عليَّ وعليه فاذا لم يرض او اذا آثره والدي عليَّ بهذه الجارية . . . » ولما وصل الى هنا اعتدل في مجلسه وقد أخذه الغضب وجعل يحك عثنونه ويهز رأسه يتشاغل عما جال في خاطره

فقال الفقيه « اسمع يا مولاي .. اذا امتنع امير المؤمنين عن تسليمها لاخيك وغضب هذا وتنافرا كان ذلك غاية ما ترجوه لان الخليفة يرجع عند ذلك الى حسن النظر ويجعل ولاية العهد اليك . ولكن ما قولك اذا لم يتغاضبا عليها ؟ »

وكان الامير عبد الله قد اشتد حنقه حتى عجز عن الكظم وخصوصاً في انحراف مزاجه ـ والرجل في حال مرضه تظهر له الامور غير ما تظهر له في حال صحته . فربما هان عليه وهو في اعتدال مزاجه وتمام صحته أمور لا تهون عليه وهو مريض وذلك امر مشاهد لا ريب فيه . حتى التوعك البسيط فانه يبعث صاحبه على حدة الطبع والخروج عن الاعتدال فيخونه الصبر ويعصاه الكظم فيقول ما لا يرضاه لنفسه وهو في صحته ـ

فالامير عبد الله كان يحمل نفسه مضض الكظم خوفاً من الفشل وكان يرجو نصرة ابيه فلما راى اباه يطلب نفس ما طلبه اخوه غضب وهان عليه الخروج . فلما سمع سؤال الفقيه « واذا لم يتغاضبا » صاح « اذا لم يتغاضبا فاغضبُ انا »

فقال الفقيه « وهل تعرف الغضب ياسيدي ؟ »

فنظر سعيد الى الفقيه شزراً وقال « اراك لا تحسن التعبير يا فقيه ـ ان العاقل لا يغضب الا قليلاً واذا غضب كان غضبه عظيماً . الا تذكر ما كان من صبر مولانا وطول اناته وكم اردت اغضابه ولم يغضب لانه كان يتوسم باباً للفرج محافظة على كرامة امير المؤمنين ومراعاة لحقوق اخيه فلما لم يجدهِ الصبر غضب وليس غضب مثله يجوز في كل حال لانه لا يغضب ويرضى في كل ساعة كالاطفال وانما يصبر ويكظم حتى اذا يئس من المسالمة غضب فتغضب لغضبه الامة برمتها ولا يرضيه عند ذلك كلمة لطيفة . وانما يرضيه حقه ان يعود اليه بعد ضياعه » وكان يتكلم بلهجة الجد فلما وصل الى هنا تراجع واظهر انه صرح بما لم يكن يريد التصريح به

الفصل الثاني والثلاثون

الى امير المؤمنين

فأثر قوله في الامير عبد الله ورأى الحق في جانبهِ وحاول مع ذلك ان يمسك نفسه فلم يجد له مسوغاً بعد ان رأى اباه ضافر اخاه على سلبه تلك الجارية فلاح له عند ذلك ان يتثبت من المساعدة التي يرجو ان ينالها اذا ناهض اباه لكنه تهيب ان يطلب ذلك من تلقاء نفسه . ونظر سعيد في عينيه نظرة اكتشف بها مكنونات قلبه وادرك ما يجول في خاطره فعلم ان الطبخة اوشكت ان تنضج فاراد ان يتعجل نضجها فدنا من مجلس الامير ونظر اليه نظر الجد والاهتمام وقال « اعلم يا مولاي انك لم تدخر وسعاً في مجاملة اخيك وانت الآن ينبغي لك ان تجامل اباك على شرط ان لا يقلل من منزلتك ولا يميز اخاك عنك فاذا انصفك فهو امير المؤمنين . والا . . فلا يعدم الحق انصاراً »

قال الامير « ترى اذن ان ارسل اليه عابدة ؟ »

قال « الا يقول في كتابه انه يحب ان يراها ثم يعيدها . . وانا سأكون معها كما انا معها هنا لاعلمها وافقهها فلا تخف ان يضيع شيء من حقك »

فتصدى الفقيه قائلاً « اذا دخلتْ عابدة قصر الزهراء لا تعود الينا ... اعلم هذا من الآن »

فقال عبد الله « فاذن لا اخرجها من منزلي الا بالقوة »

فقال سعيد « ليس هذا من حسن السياسة في شيء .. سنذهب الآن واذا مضى يومان ولم يؤذن برجوعنا حق لك كل ما تريد »

وكان الفقيه يفكر في الامر ولا يرى هذه الطريقة تنيله مطلوبه فربما حبس سعيد هناك ولا يبقى له من يعوّل عليه في نصرة الامير للقيام على ابيه فقال « لا نأمن اذا دخلتَ قصر الزهراء ان يحجر عليك »

فقطع كلامهُ قائلاً « لا تخف »

وهم في ذلك جاء ساهر وقال « ان الرسول يطلب الجواب حالاً »

فالتفت سعيد الى الامير فرآه ينظر اليهِ فقالَ « اكتب الى ابيك انك اطعت امره وارسلت الجارية مع استاذها واطلب اليه ان يعيدها اليك بعد يومين ... هل اكتب عنك لانك تعب من الحمى ؟ »

قال « افعل »

فتناول قرطاساً وقلماً وكتب

« الى امير المؤمنين الناصر من ولده عبد الله

« اما بعد فقد أخذت كتاب سيدي الوالد يطلب به الجارية الاديبة التي كان اخي الحكم طلبها لنفسه فدفعته بالحسنى عَلَى ان يكتفي بما مُنح من نعم الله وفضل امير المؤمنين ويترك لي هذه الجارية أتمتع باديبها وغنائها في وحدتي وانقطاعي . ثم جاءني كتاب مولاي بتوجيهها اليه ليراها ثم يعيدها فأطعت وفعلت وقد انفذتها مع استاذها سعيد الوراق . وهو الذي جاءني بها واشترط ان يكون في صحبتها ليقرئها الآداب ويحفظها الشعر وهو اهلٌ لثقة امير المؤمنين . وعهدي بالمولى حفظه الله ان يعمل بما قال وعنده الوف من الجواري الحسان عَلَى اختلاف الاصناف فلا يبخل عليّ بهذه وقد استانست باديبها ... وهو فاعل ان شاء الله »

ودفع الكتاب الى الامير عبد الله فقرأه ووقع عليه اسمه ودفعه الى ساهر ليعطيه الى الرسول . واستأذن سعيد بالذهاب الى عابدة وكانت في غرفتها تنتظر امر عبد الله في الخروج اليه . فلما رأت سعيداً قادماً عليها خفق قلبها فرحاً برؤيته فهش لها وسلم عليها ومد يده لمصافحتها فصافحته وقلبها يرقص فرحاً ولبثت تنتظر ما يقوله

فاجلسها وجلس الى جانبها وهو ينظر في عينيها فلم تتمالك عن الاطراق فقال « قد وفقت

الى ما يسرك »

فاجفلت وقالت « هل آن لنا ان نجتمع ؟ »

قال « نعم »

فضحكت فرحاً وقالت « اين ؟ »

قال « في قصر الزهراء »

فدهشت ولم تفهم مراده وبان الاستغراب في وجهها وقالت « مالي ولذلك القصر ؟ »

قال « ان المهمة التي جئتِ من اجلها لا تتم الا هناك »

قالت « اني لا اطلب القصور »

فقال « الا يسرُّك ان نكون معاً هناك ؟ »

قالت « كلا . لاني لا اكون لك »

قال « لا يتم لنا ما نريده الا بعد الذهاب الى ذلك القصر وستكونين هناك جارية مخادمة وادب الى أجل مسمى .. »

فقطعت كلامه قائلة « لا . لا اريد القصور . افضل ان اكون معك في كوخ حقير عَلَى ان اكون .. »

فقطع كلامها وقال وهو قابض عَلَى يدها ينظر في عينيها « اريد ان نكون معاً هناك وقد وعدتِ ان تساعديني عَلَى الغرض الذي قمنا من أجله »

فأحست بقشعريرة ذهبت بارادتها وشعرت انها طوع ارادته ولم تتمالك ان قالت « افعل ما تريد اذا كان ذلك يسرُّك »

قال « لا يسرُّني فقط ولكنه واجب لا بد من قضائه فاذا فرغنا من هذه المهمة تفرغنا للحياة معاً .. هل انتِ عَلَى وعدك بان تفعلي ما اوصيك به ؟ »

قالت « نعم »

فمد يده الى جيبه واستخرج حقاً فيهِ مسحوق وقال « احتفظي بهذا العقار لانبئك بما يلزم ان تعملي بهِ »

فتناولت الحق وجعلت تنظر فيهِ فقال « لا تنظري فيهِ طويلاً سوف تعلمين ماذا تفعلين بهِ . خبئيه بين اثوابك وانهضي لنذهب معاً ان الهودج في انتظارك خارجاً »

فنهضت واصلحت من شأنها وهي مسرورة بانها تفعل ما أُمرت بهِ ونسيت ارادتها وتغاضت عن منيتها كانها أخذت بالاستهواء

خرجت وركبت في الهودج وتوجه هو الى الامير عبد الله فودعه وودع الفقيه وطما نهما

وركب بغلته وسار في اثر الهودج يطلبون قصر الزهراء

ولم يكن لهم بدٌّ من المرور على القنطرة فوق الوادي الكبير فتجاوزوها والرسول يتقدمهم وهم يسيرون في أثره وسعيد يهبي مايقوله وعابدة داخل الهودج تسترق النظر اليه من خلال السجف كلما سنحت لها الفرصة وكلما رأته تنهد وتقول كأنها تخاطبه « ما لنا وللملوك وللدول دعنا من هذه المطامع ولنعش معاً في رغد وهناء . ليس في صحبة الملوك غير العناء . ولكن ابت مطامعك الاَّ ان تشقى وأشقى انا معك ولا ندري مصيرنا اين يكون »

الفصل الثالث والثلاثون

قصر الزهراء

وبعد ان قطعوا الجسر عرجوا غرباً بجوار القصر الكبير ثم ساروا شمالاً يطلبون الزهراء وهي في سفح جبل اسود على اربعة اميال من قرطبة والطريق بينها و بين قرطبة صحراء رملية

اقبلوا على الزهراء عن بعد قبيل الظهر وكان يوماً صاحياً صفا جوه فبانت ابنية الزهراء كالجبال الراسخة تتخللها الاغراس من الشجر والرياحين وتنعكس الاشعة عن جدرانها الملونة بانواع الرخام او الاصباغ وبينها القباب والمآذن والقناطر والعقود والاساطين وعليها النقوش والتصاوير . غير الاحواض فوقها التماثيل من المرمر المصفح بالذهب . فدهش سعيد لتلك المناظر ولم تكن اول مرة رأى بها الزهراء ولكنه لم يكن تبين تفاصيلها فرأى ان يلهو بقية الطريق بالاستفهام عنها فنادى الرسول الصقلبي فوقف ولباه فقال سعيد « اني ارى الزهراء اعجب ما صنعه الادميون »

قال « نعم يا سيدي . قد اجمع الذين شاهدوها انها اعظم ما صنعه الانس وقد دخل فيها من النفقة الطائلة ما لايقدر ـ فان امير المؤمنين أخذ في بنائها منذ بضع عشرة سنة ولا يزال العمل جارياً ولا أظنه يفرغ قبل مرور عدة سنين »

قال سعيد « اتعرف كم بلغ مقدار النفقة ؟ »

قال « لا أعرف مقدارها تماماً ولكنني اعلم ان عدد العملة فيها ١٠٠٠٠ عامل وعدد الدواب ١٥٠٠ دابة . وقدروا ما ينفق فيها من الصخور المنحوتة كل يوم بستة آلاف صخرة سوى الآجر . وأما الرخام فهو كثير في هذا القصر كما ترى ومع ذلك فان

أمير المؤمنين يثيب عن كل رخامة صغيرة او كبيرة عشرة دنانير ولم يدع بلداً فيه رخام الا بعث في اشتراء رخامه حسب الاجناس . فجلب اليها الرخام الابيض من المرية والمجزع من رية والوردي والاخضر من اسفاقس وقرطاجنة . وفي بعض هذه القصور حوض من الرخام منقوش بالذهب قد استجلبه من القسطنطينية فانظر الى هذه الهمة العالية هل سمعت بمثلها في الملوك ؟ »

فاحب سعيد ان يستزيده شرحاً عما في تلك القصور من ادلة البذخ والاسراف فقال « لم اسمع بمثله ولكنني سمعت بعض الملوك لا يكتفون بالرخام في ابنيتهم فيدخلون فيها الذهب والفضة ... »

فقطع الصقلبي كلامه وقال وهو يضحك ويشير بيده الى قصر نحو الشرق « أرأيت هذا القصر الشاهق هناك ؟ انك لا ترى منه الا ما يكاد يخطف البصر من الاشعة اللامعة المنعكسة عن الجدران والنوافذ . ولو اقتربت منه لرأيت عجباً . ان هذا القصر يعرف بالمؤنس ويسمى ايضاً المجلس الشرقي وفيه بيت المنام . وفي هذا البيت ١٢ تمثالاً من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس من صنع دار الصناعة في هذه المدينة بينها صورة اسد الى جانبه غزال فتمساح وغيرها من اصناف الحيوان مصنوعة من الذهب المرصع . ويخرج الماء من افواهها الى حوض كبير ـ ان بناء هذا القصر كلف أمير المؤمنين مالا يقدر . ولم يعوّل في مناظرة بنائه على غير ابنه ولي العهد ولا يزال العمل جارياً فيه . فاذا اعتبرت ما يقتضيه ذلك من الاموال علمت مقدار ما دخل فيه من الدنانير على اني سمعت صديقاً لي من خصيان هذا القصر يقول ان امير المؤمنين ينفق ثلث جباية المملكة في بناء هذه القصور »

فصاح سعيد « ثلث الجباية ! ان ذلك كثير .. اتعرف مقدار الجباية يا صاحب ؟ »

قال « اعرف انها نحو ستة آلاف الف الف دينار هكذا يقولون [1] »

فقال سعيد « فاعتبركم هو ثلثها واجمع ذلك مراراً .. لا يخلو هذا القول من مبالغة »

قال الخصي « لا . لا أظنك تجد فيه مبالغة اذا عرفت كيف بني قصر الخلافة ايضاً وهو البناء الذي تراه في اواسط هذه القصور . ان قصر الخلافة هذا سمكه من الذهب والرخام الغليظ وفي وسطه اليتيمة التي جاءتنا هدية من اليون ملك القسطنطينية . ويكفي ان تعلم ان قراميد هذا القصر من الذهب والفضة [2] غير الصهريج القائم في وسطه مملوء بالزئبق ولمجلس هذا القصر ابواب عقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب واصناف الجواهر قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي . ولا حاجة

(١) المقري ٢٧٠ ج ١ (٢) المقري ٢٥٠ ج ١

بي الى زيادة التفصيل اذ لا تلبث ان ترى ذلك رأي العين فلا تستغرب عند ذلك مهما قدرت النفقة »

فقال سعيد « لا تستهن بمقدار الجباية ولكنني سمعت من بعضهم ان مقدار النفقة تبلغ كل عام ٣٠٠ ٠٠٠ دينار فانظر كم يجتمع من ذلك حتى يتم البناء في اربعين سنة »

وكانت عابدة تسمع حديثهما وتعجب وتاقت نفسها الى رؤية ما هنالك من التحف وذهبت وحشتها من ذلك الانتقال

وكانوا يقتربون شيئاً فشيئاً حتى اقبلوا على باب الزهراء الاول ويعرف بباب الاقباء قد وقف عنده الحرس من الفرسان العبيد وبعض الحشم . فلما رأوا الصقلبي عرفوا انه رسول الخليفة ففتحوا له حتى دخل بالهودج وسعيد معه يتفرس في وجوه الناس هناك فرأى اكثرهم من العبيد . فمشى مسافة حتى اقبلوا على الباب الثاني من ابواب الزهراء ويعرف بباب السدة . وهو عظيم قائم على اساطين وعليه البوابون واعوانهم بالالبسة الخاصة بهم . وبعد ان دخلوا هذا الباب جعلوا يمرون بين الاشجار وبينها طرقات مرصفة بالحصى الملونة . وقد تزينت جوانبها بالرياحين والازهار . ونظر سعيد الى ما حوله فوجد نفسه محاطاً بالقصور من كل ناحية . واول ما استقبله القصر الممرد وفيه السطح الممرد يجلس فيه الخليفة في الاحتفالات الكبرى . والى يساره قصر الخلافة يجلس فيه الخليفة للعمل والى اليمين قصر المؤنس وفيه بيت المنام وغرف الجواري

الفصل الرابع والثلاثون

ياسر

وشغل سعيد بمشاهدة السارحين في تلك الحدائق من الغلمان الوصفاء عليهم الالبسة الملونة تزيدهم جمالاً وقد تقلدوا السيوف الحالية . غير كبار الخصيان وذوي الاسنان . ولم يلتفت احد منهم الى الهودج وأصحابه لانهم كثيراً ما يرون الجواري تحمل به الى هناك

وكان سعيد يبحث بنظره بين هؤلاء لعله يجد ياسراً صاحبه ثم انتبه انه لا بد من ان يراهُ ليسلم اليه عابدة لتكون في عهدته حتى يطلبها الخليفة فنادى الرسول فوقف فقال له « اين هو ياسر رئيس الخصيان »

فاشار بيده نحو قصر المؤنس وقال « نحن ذاهبون اليه »

فمشى سعيد معه حتى اذا اقترب من ذلك القصر رأى الرسول يترجل بسرعة فادرك انه يفعل ذلك لانه راى احدا ممن يحتشم منهم قادماً . فالتفت فاذا هو ياسر قادم وحوله الغلمان كانه ملك بين الاتباع والاعوان . فاسرع الرسول اليه وقبل يده ووقف متأدباً فسأله عن خبره فدفع اليه كتاب الامير عبد الله وأشار الى سعيد . فالتفت ياسر اليه وحالما وقع نظره عليه عرفه وتقدم نحوه فاسرع سعيد اليه وحياه فابتسم ياسر له وتفاهما . ثم اشار ياسر الى الغلام ان يأخذ عابدة الى غرفة خصوصية وان يحسن وفادتها حتى يأمره باستقدامها ففعل

ومشى وسعيد الى جانبه بين اساطين قائمة هناك وفوقها عريش قد تسلقت عليه الاعشاب فلما خلوا قال ياسر « اني مسرور بقدومك »

فقال سعيد « لولا علمي ان قدومي يسرك لم آت .. كيف انت وكيف مولانا ؟ »

قال « مولانا كما تعهده لا يهمه الا الانفاق وانتم تعيبون عليه مسايرته لغير العرب ونحن لا نراه يحسن مسايرتنا فلا العرب راضون ولا غيرهم ـ انت تعلم منزلتي وبلائي في خدمته فاني اراه يقدم تماماً عني ولا يخفى عليك من هو تمام هذا وانا قدمته حتى بلغ هذه المنزلة ـ دعنا من ذلك ماالذي جئت به اليوم ؟ »

قال « لا تغير الموضوع ـ انت تستغرب حال تمام معك وتعجب كيف يريد ان يحط من قدرك الا تعلم السبب .. ؟ »

قال « لا »

قال « السبب انك احسنت اليه ولعلك احسنت الى شخص آخر فساعده عليك »

فاطرق ياسر لحظة وقال « صدقت صدقت انك رجل حكيم .. قد اصبت الحقيقة عرفت الان سبب هذا التغيير »

قال « لا اعجب اذا عرفته انت الآن وأنا عرفته منذ ايام »

قال « ماهو »

قال « السبب اصله من الشخص الذي انت سبب نعمته ... نسي الآن فضلك عليه فضافر اعداءك عليك »

قال « انت تعني الزهراء صاحبة المقام الاول عند امير المؤمنين وهي ليست بريئة من هذه التهمة لكنها اطاعت تماماً الخبيث فذكرتني ذكراً باردا عند الخليفة ففترت رغبته فيَّ وان كان لا يزال يظهر رضاءه عني .. ولكنني اعلم كيف انال منهما .. دعنا الآن من ذلك واخبرني عما جئت من اجله »

قال « ألم تأخذ الكتاب »

قال « نعم لكنهُ كتاب الى امير المؤمنين لم افتحه »

قال « هو من الامير عبد الله ارسله مع هذه الجارية الى ابيه »

قال ارسلها هدية له ؟ »

قال « بل رغم ارادته وكانت هذه الجارية عندي وهي جارية منادمة وأدب فرغب الامير اليَّ ان اتركها له واكون معها في قصره ارتب خزائن كتبه فاطعته . فلما سمع ولي العهد بخبرها كتب الى أخيه ان يرسلها اليه فلم يرض فشكاه الى ابيه فبعث الناصر يطلبها لنفسه فلم يسع الامير عبد الله الا الطاعة ولكنه كتب اليه هذا الكتاب يرجوه فيه ان يعيدها اليه بعد ان يراها ولا اظنه يفعل »

فقال ياسر « واذا لم يفعل ما ظنك بعبد الله »

قال « اتحسبه لا يزال على سذاجته وسهولته ؟ ان الامير قد تغير »

قال « قد تغير ؟ يشرك الله بالخير .. هل انتبه لنفسه وما آلت اليه حال الدولة »

قال « لحظت منه انه لا يسكت على الضيم اذا سامه اياه ابوه »

وكانا يتحادثان وهما يمشيان في ذلك العريش يسمعان تغريد البلابل واصوات الكراكي وسعيد قد بهرهُ كلما رآه هناك . لكنهُ لم يصل بعد الى الموضوع الذي يهمهُ حقيقةً ولكنهُ استبشر بقرب الوصول اليه وهو عَلَى قاب قوسين منه . ورأى انه ابطأ في ايصال الكتاب الى الناصر فقال « الا تأخذ الكتاب الى صاحبه ؟ »

قال « بلى . هل تأتي معي ؟ . »

قال « أرافقك الى قصر الخلافة و بعد تقديم الكتاب فاذا امر الخليفة بادخالي دخلت »

الفصل الخامس والثلاثون

مجلس الخليفة

قال « حسناً » ومشى وسعيد يمشي الى جانبه واتجهت انظار الخدم نحوه هذه المرة لانه مع ياسر رئيس الخصيان وهو صاحب النفوذ الاكبر في قصر الناصر والناس لا يعرفون ما حدث في خاطره كما عرف القارىء . ولكن سعيداً شغل عن كل ذلك بفخامة قصر الخلافة فما اطلَّ عَلَى بابه حتى بهره ما نزل فيهِ من الذهب وما عَلَى عتبته من بديع النقش

وقف الحجاب تعظيماً لياسر فحياهم ثم سألهم « هل عند امير المؤمنين احدٌ ؟ »

فاجابه رئيس الحجاب « ليس عنده سوى القاضي منذر بن سعيد »

فتذكر سعيد هذا الرجل وقد حضر خطبته يوم الاحتفال برسل ملك الروم وادرك انه انما نال القضاء بسبب ذلك

اما ياسر فدخل ودخل سعيد معهُ فادهشه داخل ذلك القصر اضعاف ما ادهشه خارجه لان جدرانه مبطنة بالرخام النفيس الملون عَلَى اختلاف اجناسه بصنع عجيب . وسقفه قد نزل فيهِ الذهب . فمشيا في دهليز حتى انتهيا الى باحة كالبهو سقفها مزين بانواع الاصبغة المذهبة والصقالبة وقوف بالحراب والسيوف . وكان سعيد يمشي ولا يتكلم وقد اخذ بذلك البذخ الباهر ولحظ ياسر دهشته فقال « اراك قد دهشت لما تراه ونحن لم ندخل مجلس الخليفة بعد فاذا دخلتهُ فهناك الدهشة »

فقال « وهل في الامكان اعظم من ذلك ؟ قد شاهدت قصور الخلفاء في بغداد ودمشق فلم أَر مثل هذه »

قال « ان اولئك كانوا يستنكفون من استخدام الذهب في ابنيتهم . امكث هنا حتى ادخل واعود اليك »

فوقف وشغل بمشاهدة ما عَلَى رخام الجدران من الرسوم الجميلة المنزلة بالذهب وما في الارض من الطنافس المزركشة . وهو في ذلك رأى الحجاب الصقالبة في حركة كأنهم يتهيأون للسلام عَلَى قادم . فالتفت فرأى منذر بن سعيد خارجاً من مجلس الخليفة فاصبح يتوقع سرعة استدعائهِ اليهِ لكنه مكث طويلاً ولم يطلب فشغل خاطره . ثم جاءه احد الخصيان يسأله الدخول عَلَى امير المؤمنين فدخل متأدباً وكان قد شاهد الناصر في قصرهِ بقرطبة يوم استقبال رسل ملك الروم وكان ابناؤهُ الى جانبهِ . اما في ذلك اليوم فلم يكن في مجلسهِ سواه بعد ان صرف قاضيه منذر بن سعيد

فلما دخل سعيد عَلَى الخليفة رآه في صدر المجلس قاعداً على سرير من الذهب الخالص . والمجلس المذكور قاعة كبيرة جداً في وسطها بركة يأخذ لمعانها بالبصر لانها مملوءة بالزئبق تقع عليهِ اشعة النور من نوافذ في جدران المجلس يغشاها زجاج ملون فيتلون سطح الزئبق الواناً جميلة يزيدها لمعان سطحه جمالاً

وللمجلس اربعة جدران في كل جدار منهُ ثمانية ابواب قد انعقدت عَلَى حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب واصناف الجواهر قامت عَلَى سواري من الرخام الملون والبلور الصافي . وقد دخلت الشمس من تلك الابواب فضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فتولد

من ذلك نور يأخذ بالابصار . وكان الناصر اذا اراد ان يفزع احداً من اهل مجلسه اومأ الى احد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل للحضور ان المجلس قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك (١)

ومع رباطة جأش سعيد وكبر نفسه لم يتمالك عن الدهشة من فخامة ذلك المجلس . ولو نظر الى السقف لرأى قرميده من الذهب والفضة مرتباً في هندسة جميلة ولكنه اشتغل بالمثول بين يدي الخليفة فوقف عن بعد وحنا رأسه ثم حيا الناصر بتحية الخلافة فقال « السلام عليك ياامير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » وظل واقفاً فوقع صوته في اذني الناصر موقعاً جميلاً فاشار اليه الناصر ان يتقدم فدار حتى وقف بين يديه فأومأ اليه ان يقعد فقعد وياسر لا يزال واقفاً . ثم انصرف ياسر ولم يبق في ذلك المجلس الكبير الا الخليفة وسعيد

وتأدب سعيد في قعوده واطرق فوقع بصره على الزئبق فشغله لمعانه الباهر ولكنه مكث صامتاً ينتظر امر الخليفة وكان قد لحظ في وجه الناصر انقباضاً وكأنه شاهد في عينيه دمعاً فافتتح الخليفة الكلام فقال « اين الجارية التي بعث بها ولدنا . »

قال « هي في قصر امير المؤمنين استلمها عبده ياسر رئيس الخصيان »

قال « من اين اتيت بها ؟ بلغني من كتاب ولدي هذا انك صاحبها تعلمها وتهذبها »

قال « هي يا امير المؤمنين جارية ادب ومنادمة من مولدات بغداد »

قال « بلغني انها تحسن الغناء ايضاً »

قال « نعم ياسيدي انها كذلك »

فقال الناصر وهو يمشط لحيته بانامله « بارك الله في بغداد انها لا تزال تأتينا بالتحف والذخائر وهل انت من بغداد ايضاً ؟ »

قال « ان عبد امير المؤمنين من هذه الديار ولكنني رحلت الى بغداد والشام في طلب الكتب وجمع نوادر الادب »

قال « بلغني انك من نوابغ الرجال »

فوقف سعيد تادباً وحياء وقال « لست شيئاً ولكنني اكون كما يشاء امير المؤمنين »

فقال الناصر وهو يشير اليه ان يقعد « اقعد ولا ينبغي ان تتهيب من مجلسنا فقد علمت من خادمنا ياسر انك من اهل العلم الواسع ونحن نحب العلم ونكرم العلماء »

فتحفز سعيد للوقوف ثانية فقعده الخليفة وقال « قلت لك لا تتهيب ان العلماء ملوك

---

(١) المقري ٢٥٠ ج ١

العقول ولا يستغني ملوك الرقاب عنهم . كن مطمئناً ولأزيدك اطمئناناً اقول لك انظر الى عينيّ »

فرفع سعيد بصره ونظر في عيني الخليفة فرأى الدمع فيهما وأحس الخليفة عند وقوع بصره عَلَى بصر سعيد بقوة أثرت فيهِ كأن سعيداً ارسل من عينيهِ اشعة نفذت في احشاء الناصر ولكنه اتم حديثه فقال « أرأيت الدمع في عينيّ ؟ انهُ من احترامنا لاقوال اهل العلم . ارأيت قاضينا خارجاً الآن ؟ »

قال « نعم يا مولاي »

قال « قد كان عندي الساعة ولعلك تعلم اني وليتهُ القضاء بالامس فما عتم ان خطب في المسجد وجعل موضوع كلامه ذم تشييد البنيان والاستغراق في الزخرفة والاسراف في الانفاق واغرق في ذلك فعرفت انهُ ينتقد ما أخذت بهِ من هذه الابنية فما ملكت ان بكيت ثم استقدمتهُ اليّ اليوم لاسأله عما اراده فما كتمني قصده واتاني بآيات من القرآن الكريم تقبح عملي فأشفقت عَلَى نفسي وبكيت . وانما اتيتك بهذا القول ليسكن ما بك وتخلص الخدمة لي »

فحنا رأسهُ وقال « اني عبد امير المؤمنين وطوع ارادته »

قال « اني أعرفك قبل الآن ياسعيد وقد طالما قرأت اسمك عَلَى الكتب التي احضرت لنا عَلَى يدك . . فهل عندك كتب جديدة ؟ »

قال « لا يخلو الامر من كتب سأعرضها عَلَى امير المؤمنين ولكنني اتيتهُ بكتاب حي ناطق لا يُسأل عن ادب او شعر الاَّ نطق بهِ »

فشخص الناصر فيهِ كأنهُ يستفهمهُ فقال « اعني الجارية عابدة التي صارت في قصر الزهراء الآن فهي تغني عن الكتب وقد انقطعتُ عن سائر الاعمال في سبيل تعليمها »

قال « سنحضرها ونشنف اسماعنا بحديثها . . واما الآن فاصدقني . قد بلغني انك بارع في فن التنجيم »

فقال « ذلك شيء تعلمناه من الصغر ولا يزال بعضهُ عالقاً بالذهن »

قال « ان خير العلم ما أُخذ في الصغر لانهُ يكون كالنقش في الحجر »

الفصل السادس والثلاثون

التنجيم

ولم يبرح الملوك في عصر الاستبداد يشعرون بحاجتهم الى المنجمين لكثرة من يحدق بهم من اهل الدسائس والمتملقين فهم لا يثقون بهم ولا يرون لهم بدًا عنهم . فاذا كانوا يعتقدون النجامة استعانوا بها على استطلاع الاسرار وكشف المؤامرات . وكان الناصر قد سمع عن سعيد الوراق من قبل وعن مهارته في كل فن ولما دخل عليه ياسر بكتاب ابنه عبد الله ذكر سعيداً بالخير واطرى علمه وبراعته في النجامة فوقع من نفسه موقعاً حسناً . ولم يكن الناصر سادجاً فلم يشأ ان يستسلم لسعيد قبل ان يتدبر أمره فسأله عن قبيلته فقال له ياسر « انه غريب لا اهل له ولا يهمه غير الاشتغال بالكتب وبيعها » فسبق الى ذهنه حسن الظن به وفتح له قلبه من اول جلسة ولما كلمه شعر بقوة فيه ارتاح لها وتوقع ان يكون له عون له في اضاءة طريقه

اما سعيد فلم يفته شيء مما جال في خاطر الناصر فاخذ يستعد لتدبر ما جاء من اجله فقال « لا ينبغي لمولاي حفظه الله ان يستسلم لحقير مثلي ولا يركن الى النجامة كثيراً فانها قد تخطيء »

فاعجب الناصر بتواضعه وزاد وثوقاً به فقال « ان تنصلك من المعرفة التامة يزيدني ثقة بعلمك فاني لم أر بين المنجمين الكثيرين في قصري من يعترف بالقصور مثلك »

فرفع سعيد بصره الى الناصر وحدق في عينيه وقال « ولكنني لا احب ان ادعى منجماً . . اذا شاء مولاي ان ينتفع بشيء من علمي فارغب اليه ان يكتم خبري عن خاصته ولا يعدني في جملة المنجمين بل يجعاني في جملة الخدم ويجعل اني معلماً لتلك الجارية وانا لا ادخر وسعاً في بذل روحي في خدمته من كل وجه »

فاستحسن الناصر رايه وقال « سأفعل ذلك اما الآن وقد فتح الحديث فاخبرني بما يدلك عليه علمك من حالنا . قل لا تخف »

قال « اني لا اخاف شيئاً ولكنني اطلب الى مولاي ان يخلص النية في ما أقوله وربما كان في بعضه ما يخالف اعتقاده . . »

فاستبشر الناصر بشيء يطلع عليه فقال « قلت لك قل ولا تخف . اخرج كتابك وانظر اليّ وقل ما يدلك عليه علمك »

فمد سعيد يده الى جيبه واستخرج كتاب التنجيم ففتحه واخذ يقلب فيه وينظر الى الناصر ويعيد النظر الى الكتاب ويعدّ على اصابعه ويلتفت الى أشعة الشمس تارة والى بركة الزئبق تارة أخرى . ثم اظهر الارتباك وقال « اعفني يا سيدي من القول اليوم »

قال « لست تاركك حتى تقول »

فاعتدل في مقعده وأعاد النظر في الكتاب ثم قال « اني ارى الخوف يأتي امير المؤمنين من اكثر الناس ثقة عنده .. » وسكت وهو يقلب في صفحات الكتاب ويراقب ما يبدو من الناصر

اما الناصر فكان لكلام سعيد وقعٌ شديد على سمعه وقد نبه افكاراً كانت كامنة في قلبه ولكنه غالط نفسه وتظاهر بالاصغاء كانه يسمع بقية الحديث

فلم يفت سعيداً ما جال في خاطر الخليفة فاستأنف الكلام قائلاً « اخشى ان يكون مولاي امير المؤمنين قد ندم على سؤاله واحاحه »

فقال « كلا ـ بل بالعكس فاني مصغ لما تقول . ولكن نصف الخطاب ليس له جواب . قل . صرح »

قال « يظهر ان مولاي يظن المنجم يستطيع تعيين الاشخاص فاذا كان قد قيل له ذلك من قبل فان القائل ليس من المنجمين او انه يزعم للتنجيم قوة فوق قوته ـ ان هذه الصناعة تقبل التدجيل والايهام مما لم االفه ـ وانا لا اقول الا ما تدلني عليه الصناعة تماماً وهي انما تشير الى الاوصاف والاحوال .. وقد قلت لسيدي ان الطالع دلني ان الخوف في دار امير المؤمنين من اكثر الناس ثقة عنده واقربهم مودة اليه ولو سألني عن اسم ذلك الرجل او تلك المرأة فلا يكون جوابي الا من قبيل الرجم بالغيب »

فاعجب الناصر بما رآه من صدق لهجة الرجل وعزة نفسه ولكنه توهم انه يشير الى الناس لا يريد الناصر ان يرتاب بهم ولا هو يرتاب بصدق المنجم فاصبح في حيرة وندم على تعريض قلبه للشك لانه شديد الحرص على ذلك الحبيب محل ثقته — وهي الزهراء اذ لم يكن اعز منها على قلبه ولا يريد ان يجعل سبيلاً لسوء الظن بينه وبينها نظراً لولعه بها وشدة تعلقه بحبها وقد انفق الاموال في تشييد تلك القصور لاجلها فكيف يجلب التعاسة لنفسه بالشكوك وهو لا يرى له غنى عنها بوجه من الوجوه ـ وقد امتلكت فؤاده وغلبته على امره . فلم ير خيراً من قطع الحديث او تحويله فقال « لله درك من حكيم خبير قد فهمت مرادك وسنعود الى اتمام المقال . اما الآن فاري ان نشاهد تلك

الجارية الادبية »

فاسرع سعيد الى طي الكتاب وجعله في جيبه وقال « هي في دار مولاي بقصر المؤنس في حياطة عبدك ياسر » قال ذلك وقد سره اكتفاء الخليفة بما قاله

قال « سنبعث اليه ان يهيء لنا الجارية ويحضرها الليلة الى بيت المنام في المجلس الشرقي (المؤنس) »

فادرك سعيد انه قد آن الانصراف فتحفز للنهوض وهو يقول « هل يأذن سيدي ان امرنها على تهيء تقوله في حضرته ؟ »

قال « لا بأس بذلك .. افعل »

الفصل السابع والثلاثون

عابدة

تخرج سعيد بعد ان حيا وتأدب على جاري العادة ومشى في الايوان والخصيان وقوف باسلحتهم وملابسهم

ولم يكد يخرج من الباب حتى لقيه ياسر ومعه رجل عرف سعيد من لباسه وقلنسوته انهُ سليمان ابو بكر بن تاج طبيب الناصر . وكان سعيد يعرفهُ ويعرف مهارته في الطب ومنزلته عند الناصر بعد ان شفاه من رمد [1] عرض لهُ فجاءه فابتدره ياسر قائلاً « ألم تعرف هذا الطبيب ؟ »

قال « كيف لا ؟ أليس هو ابا بكر ابن تاج الحكيم النبيل ؟ »

فهش له الطبيب وصافحه وقال « لله درك صدق الاستاذ ياسر .. انك لا تجهل شيئاً وقد سرني اني لقيتك الساعة وانا اعلم مهارتك في معرفة الكتب وقد سمعت بكتاب في الطب قيل لي انه احوى الكتب واحسنها »

فقطع سعيد كلامه قائلاً « لعلك تعني كتاب الحاوي لمحمد بن زكريا الرازي »

فبدا الاستغراب في وجه الطبيب لسرعة خاطر سعيد وتفطنه وقال « اياه اعني »

قال « انه كتاب نفيس وهو احسن كتب الرازي واعظمها في هذه الصناعة لانه جمع فيه كل ما وجده متفرقاً في ذكر الامراض ومداواتها من سائر الكتب

(١) طبقات الاطباء ج ٢

الطبية للمتقدمين ومن اتى بعدهم الى زمانه ونسب كل شيء نقله فيه الى قائله » (١)

قال الطبيب « هذا هو الكتاب . وقد سمعت اطراء كثيراً فيه فهل من سبيل اليه ؟ »

قال « لا اعرف منه نسخاً في قرطبة ولكنني ابعث من يستنسخه لك في بغداد . وقد درسته وحفظت اهم مواده » قال ذلك وهو يمشي والطبيب يمشي بجانبه وياسر الى الجانب الآخر والحرس ينظرون الى ذلك الضيف ويعجبون بما لاقاه من الحفاوة لدى امير المؤمنين

قال ابن تاج « اذا اذنت الفرصة في استنساخ هذا الكتاب لي عددت ذلك فضلاً كبيراً لك »

قال « سأفعل ان شاء الله » والتفت الى ياسر وقال « اخبرني امير المؤمنين انه سيكلفك تحضير عابدة الليلة في بيت المنام ليسمع غناءها وانا ذاهب الآن لتعليمها بعض ما تقوله في حضرته »

فعلم الطبيب انه آن له ان يستأذن بالانصراف فانصرف وهو يثني على سعيد . وسار سعيد وياسر الى جانبه وهو يقول له همساً « كيف وجدت الرجل (يعني الناصر) ؟ »

قال « انه كما ينبغي ولكل اجل كتاب »

ثم سمع ياسر صوتاً يستوقفه فنظر فاذا ببعض الصقالبة يقول له « ان امير المؤمنين يدعوك اليه » فقال « اني آتٍ الساعة » ثم التفت الى سعيد وقال « اني منصرف الى امير المؤمنين واذهب انت مع هذا الصقلبي وهو يدلك على مكان عابدة »

ومشى سعيد والصقلبي بين يديه حتى اتى قصر المؤنس فتحول به الى غرفه من غرف الاضياف وقال له « سارسل اليك عابدة الساعة » ومضى

ومكث سعيد وهو يعمل فكرته في مايديره لاتمام غرضه . وبعد قليل جاءت عابدة وقد تزينت باحسن الملابس واتقنت هندامها فراى فيها جمالاً لم يعهده بها من قبل فعلم انها تتوقع احتفاءه بها فهش لها ورحب بها واجلسها الى جانبه فجلست وهي تبتسم وقلبها يخفق وقد تبادر الى ذهنها ان حسن هندامها يزيده رغبة فيها لانها ما برحت الى تلك الساعة تخاف صدوده . ورغم ما كان يبديه لها من الانعطاف ما زالت تخاف ان يؤخذ منها . أما هو فرحب بها وبالغ في اظهار اعجابه بها فجلست وهي مطرقة تنتظر ما يبدو منه فقال لها « كيف تجدين نفسك هنا ؟ »

(١) طبقات الاطباء ج ١

فتنهدت وقالت « اجدني تعسة »

قال « اتقولين الحق ؟ »

قالت « نعم وحياتك » قالت ذلك وصوتها يرتجف

فقال « وهل يمكن ان تكوني في حال احسن من هذا ؟ وانت الآن جليسة الخليفة وموضوع اعجابه ؟ »

فتنهدت وهي تنظر اليه وتحاذر ان ينظر هو اليها لئلا يدفع نظره نظرها وقالت « ألم اقل لك اني لا اطمع بشيء من هذه السفاسف وانما منيتي وغاية مطلبي هي ان . . . » وسكتت

فقال « فهمت مرادك وقد قلت لك ان ذلك ميسور لنا متى شئنا ولكن لا بد من اتمام الامر الذي جئنا به . . اين هو ذلك الحق ؟ »

قالت « هو عندي في مكان امين »

قال « احتفظي به . . واعلمي ان امير المؤمنين سيدعوك الليلة ليسمع حديثك ويتمتع بغنائك فابذلي الجهد في إرضائه . نعم ؟ »

قالت « سأفعل ذلك جهد طاقتي »

قال « غنيه مما حفظته من كتاب الاغاني »

قالت « حسناً . . سأفعل »

قال « هل عرفت احداً من اهل هذا القصر ؟ »

فاجفلت لعلمها ان ذلك القصر ليس فيه احد غير الجواري والسراري وهي تغار من مجرد سماع ذلك من حبيبها ولكنها لم تستطع السكوت عن الجواب فقالت « عرفت بعض نسائه »

قال « من عرفتِ منهنَّ ؟ »

قالت « انت تريد ان اخبرك عن الزهراء زينة هذه القصور كلها » قالت ذلك وهي تنظر اليه وعيناها تبرقان وتراقب ما يبدو منه

فاظهر عدم الاكتراث بما ظهر منها وقال « الزهراء ؟ قد بلغني انها ربة هذه القصور لشدة تعلق الخليفة بها . . هل هي تستحق هذا الاكرام يا ترى ؟ »

قالت « أما انا فلا أراها بالعين التي يراها بها الناصر ولعلي اظلمها اذا قلت انها قلما تمتاز عن كثيرات من نساء هذه القصور . . »

فقال « لا شك ان حب الخليفة لها يرفع مقامها . فارجو ان تنالي من اعجاب

الخليفة الليلة ما يجعلك في منزلة اعلى من منزلتها »

فقطعت كلامه قائلة « لا . لا اريد ذلك . . وان كنت اراه بعيداً عني اذ ليس فيَّ مايبعث على الاعجاب وانا فتاة مسكينة احفظ الابيات من الشعر واتلوها وهذا لايعجب الا القليلين . . وهب اني كما قلت فانا لا اريد ان استقر في قلب احد سواك . . آه ياسعيد » وتلعثم لسانها وكاد الدمع يتناثر من عينيها

فضحك سعيد باستخفاف وقال « كم يجب ان اكون سعيداً بهذه المحبة ! »

قالت « انك سعيد ياسعيد وانا الشقية » وغصت بريقها

فابتدرها قائلاً « لا ازال اراك تستسلمين للشك . . »

قالت « كلا . . ولكن قلبي يدلني . . لا لا . لا شك انك تحبني ولو على سبيل الشفقة عليَّ . . الا تشفق على قلبي ؟ . طبعاً انت ترى ما انا فيه من الهيام بك وترى اني مستهلكة في سبيل مرضاتك . . فكيف لاتحبني او لا تشفق عليَّ . . » ومسحت عينيها بكمها

فنظر اليها وحدق فيها وقال « اراك عدت الى الشك »

فقطعت كلامة مسرعة وقالت « لا لا . انا واثقة بك فافعل ما تريد »

قال « سترين صدق قولي . . والآن افعلي ما قلت لك . . ولكن اخاف ان تغار الزهراء منك »

قالت « ولماذا ؟ انا لا اسابقها على شيء الا اذا كانت تسابقني هي . . . » وعضت على كمها باسنانها كانها تلهو بذلك عن التصريح بما كادت تنطق به

فوقف وهو يمدُّ يده الى يدها ليصرفها فاحست انه يريد الذهاب فجذبت يدها من يده وقالت « هل انت ذاهب ؟ »

قال « نعم ولكننا سنكون معاً الليلة في حضرة الخليفة »

فتنهدت وقالت « نعم سنلتقي ولكن . . »

فامسك يدها وودعها وهو يقول « ابعدي عنك البلابل والمخاوف فان الوقت قد دنا . اذهبي الآن الى غرفتك » قال ذلك وخرج

فظلت هي واقفة لحظة تنظر اليه ثم تحولت نحو القصر تمشي الهوينا وقد استغرقت في افكارها وتحيرت في امرها

الفصل الثامن والثلاثون

جوهر

وسار سعيد الى حيث علم انه يرى ياسراً فلما التقيا دعاه ياسر الى الطعام معه . وهما يأكلان قال ياسر « ما الذي فعلته بالخليفة »

قال « لم افعل شيئاً ولماذا ؟ »

قال « رأيت الخليفة قد تغير كثيراً وامتلا اعجاباً بك »

قال « لم افعل شيئاً يوجب اعجابه وما هو التغيير الذي اصابه ؟ »

قال ياسر « لا اقدر أن اعين التغيير الذي حصل ولكنني فهمت ذلك من نسق حديثه في بعض الشؤون المتعلقة بالزهراء »

فلما سمع سعيد ذلك الاسم اختلج قلبه ولكن رباطة جأشه اخفت ذلك عن جليسه فقال « لماذا تغير عليها ـ لا أظنك مصيباً لاني لم اذكر هذه الجارية في حديثي معه مطلقاً »

قال « لا أعلم ما الذي قلته له ولكنني اعلم اني رأيته تغير ـ وعلى كل حال ان هذه الجارية قد بالغت في الاستبداد وآن لها ان تعرف ما لها وما عليها » قال ذلك بلحن التهديد

فجعل سعيد انه لم يهمه الامر كثيراً وقال « ربما كان السبب في تغيره عليها ما لحظه من استبدادها فقد علمت انها اصبحت لفرط دلالها تتطلب اموراً ليس من شأنها حتى اسمعها الناصر ما تكره وظل غاضباً عليها يوماً وليلة »

فبغت ياسر ونظر الى سعيد فرآه مستغرقاً في تقطيع صدر دجاجة بين يديه كأنه لم يقل شيئاً فقال ياسر « ومن ابلغك هذا الامر ؟ ليس في هذا القصر احد يعلم ذلك غيري لان الناصر اسمعها تلك الكلمات وغضب عليها ولم يدع احداً يشعر خوفاً من الشماتة لان كل نساء هذا القصر يحسدن الزهراء على منزلها ـ قل لي كيف عرفته ؟ »

قال « عرفته » وهز كتفيه وحاجبيه وهو ينظر الى السقف تجاهلاً

فقال « بالحقيقة انك ماهر بالتنجيم كأنك تطلع على الغيب ... لله درك من عالم حكيم »

فضحك سعيد وقال « ان الامر لا يحتاج الى معرفة الغيب .. دعنا من ذلك الآن

وقل لي هل اوصاك الخليفة باعداد عابدة الليلة ؟ »

قال « نعم »

قال « وهل طلب اليك ان تكون الزهراء حاضرة »

قال « نعم »

قال سعيد « فاذاً سنراها الليلة . . . اني طالما سمعت بجمالها . . . »

فقطع ياسر كلامه قائلاً « ولكنه امرني ان تجالسكم من وراء الستار وكثيراً ما يفعل ذلك في مثل هذه الحال لانه شديد الغيرة عليها »

فقال سعيد « من وراء الستار ؟ وما هي لذته بمجالستها على هذه الصورة ؟ »

قال « هو لا يحجبها الا اذا حضر مجلسه احد من الرجال غيره عليها والليلة ستكون انت حاضراً . . اين اجدك لاذهب بك الى ذلك المجلس ؟ »

قال « اني ذاهب للاستراحة قليلاً وربما نمت ساعة استعدادنا للسهر »

قال « سآمر بك نحو العشاء ونذهب معاً الى بيت المنام او ارسل اليك من يأتي بك اليّ » ووقف سعيد فوقف ياسر وودعه وخرج الى غرفته ولم يكن يطلب الرقاد وانما اراد ان يخلو بنفسه للتفكير بما يكون تلك الليلة

وهو متوسدٌ هناك وقد دنا الغروب سمع جلبة وقهقهة في ساحة القصر فاصغى فاذا بجماعة من الخصيان يداعبون خصياً منهم وهو يصيح فيهم . فلما سمع سعيد صوته استبشر وعلم انه قادم اليه وقال في نفسه « اتى جوهر الخبيث »

ثم سكنت الجلبة وبعد قليل دخل على سعيد خصيٌّ قصير القامة غريب الهيأة قصير الساقين كبير الراس واسع الوجه بارز الجبهة قبيح الخلقة عليه لباس ثمين لكنه يضحك الثكلى لغرابته على راسه قبعة طويلة مخروطية الشكل في راسها شرابة وعليه جبة من خز مطرزة تحتها قفطان من حرير احمر لامع — دخل على سعيد ولم يحيّ فنهض سعيد وقال له « ما الذي جاء بك يا جوهر »

فتقدم الغلام وقبل يد سعيد وقال « اتيت اعرض عليك خدمة اقوم بها »

قال « ومن انبأك اني هنا ؟ »

قال « هل تفوتني حركة من حركاتك يا سيدي ؟ كيف تأتي هنا ولا اعلم ؟ »

قال « كيف هي ؟ »

قال « هي كما تعهدها لا تزال خالية الدهن — صلبة القلب »

قال « هل علمت اني في قرطبة ؟ »

قال « لا تعلم شيئاً من ذلك »

قال سعيد « الم تتغير محبتها لذلك الرجل ؟ »

قال « ان ذلك الرجل لم يترك لها سبيلاً للتفكير بسواه اذا غضبت استرضاها واذا امرت انفذ امرها مهما يكن كما قلت لك قبل الآن »

فاطرق سعيد وقال « هل يعلم احد انك جئت الى هذ المكان ؟ »

قال « من يعلم ذلك ؟ . قد اتيت بحجة اللعب في ساحة القصر مع بعض الرفاق الصقالبة وفررت من بينهم كاني اطلب حاجة لنفسي »

قال « نحن الليلة ضيوفكم في بيت المنام »

قال « اعلم ذلك وانما اتيت لاخبرك انها ستحضر المجلس وتسمع الغناء وهي شديدة الولع بالصوت الرخيم ولها صناعة في الموسيقى تضرب على العود وقد حفظت كثيراً من الشعر ولما علمت اليوم بمجيء عابدة رايت الغيرة دبت في عروقها وأظنها تحب ان تزداد توسعاً في هذه الصناعة »

قال « تحب ان تتعلم الاشعار والغناء ؟ »

قال « اظنها تميل الى ذلك »

قال « فاذا انت تعرف كيف يجب ان تجعلها تطلب من مولاها ان اعلمها الشعر .. فهمت ؟ »

قال « نعم يا سيدي . . سمعاً وطاعة .. اني لا أنسى فضلك »

فقطع سعيد كلامه قائلاً « هل انت منقطع لخدمتها الآن »

قال « انا منذ بضعة اسابيع في خدمتها واراها ترتاح اليَّ وتطرب لنظري وحديثي لكنني احسبها هذين اليومين في شاغل اذ يندر ان تطلبني اليها ولا أعلم السبب »

قال « العلها غضبة ام عاتبة ام خائفة »

قال « لا أعلم وربما كشفت السبب بعدئذ ـ هل تأذن بانصرافي الآن فاني اخاف ان يستبطئوني ويطلعوا على خبري معك »

قال « اذهب »

فانحنى وحيا ومضى

الفصل التاسع والثلاثون

بيت المنام

مكث سعيد وهو يهيء نفسه ويصلح من شأنه استعداداً للذهاب مع ياسر اذا أتاه او بعث في طلبه

وبعد العشاء اتاه بعض الصقالبة يدعوه الى قصر المؤنس فخرج ولما اطل على الحديقة بهره ما رآه فيها من المصابيح المعلقة باغصان الاشجار او على الجدران او القوائم حتى أصبحت الحديقة تتلألأ بالانوار . ومشى الخصي بين يديه حتى وصل الى باحة القصر المذكور فراى الحرس وقوفاً باسلحتهم وعليهم الالبسة الفاخرة . ولم يكد يطل على باب القصر حتى راى ياسراً بين يديه فاستقبله وحياه ومشى امامه حتى دخل به الباب الى دهليز مضيء بالشموع العنبرية وقد فت المسك في الارض وفاحت رائحته فعطرت الارجاء. ولم يعجب سعيد من شيء شاهده هناك لم يشاهد مثله في قصر الخلافة ذلك النهار لكنه ما زال ماشياً وهو يسمع خرير المياه وصوت وقع الرشاش من مرتفع حتى اطل على قاعة ادهشه ما فيها مما لم ير في زمانه مثله

وكان ياسر يسير بين يديه وهو يستلفت انتباهه حيناً بعد آخر الى بعض النقوش البديعة فلما اطلاً على تلك القاعة وقف سعيد من نفسه وقال « ماذا ارى ؟ »

قال « هل ادهشك ما رأيته من التماثيل على هذا الحوض؟»

قال« نعم ٠ اعوذ بالله من قوم مسلمين يقتنون التماثيل . »

قال وهو يهمس في أذنه « اراأيت هذا الحوض في وسط هذه القاعة ؟ انه جاء الى امير المؤمنين هدية من ملك القسطنطينية مع ربيع الاسقف وهو لا قيمة له لجماله وفرط غرابته وقد كلف مالاً كثيراً وتعباً جزيلاً قبل وصوله الى هذا المكان مخافة ان ينكسر ما عليه من تماثيل الآدميين »

فقال سعيد « ولكن هل يجوز في الاسلام اقتناء التماثيل ؟ »

فقال ياسر « ذلك ما نقمه بعضهم على امير المؤمنين ولكن الحوض جاءه هدية من ملك عظيم وهو لا يرى ضرراً من اقتنائه او لعل الترف والانغماس في الحضارة سهلا عليه ذلك ـ فان منظر هذا الحوض مدهش .. ايه ؟ »

قال « نعم .. ولكنني أرى فوق الحوض تماثيل أخرى هل اتت ايضاً مع الحوض من القسطنطينية »

قال « ان التماثيل الذهب التي تراها فوق الحوض ليست من صنع بلاد الروم »

قال « واين صنعت ؟ »

قال « صنعت في هذه المدينة وهي كما تراها جميلة وثمينة »

قال سعيد « كاني اراها مرصعة .. بماذا ؟ »

قال « انها مرصعة بالدر الغالي النفيس »

فدهش سعيد وشغل بذلك المنظر عما كان قادماً من اجله وقال « ارى هذه التماثيل كثيرة وكانها تمثل بعض اصناف الحيوان »

فامسك ياسر بيده حتى دار به من جهة أخرى للحوض بحيث يتبين التماثيل من وجوهها فاذا هي ١٢ تمثالاً من الذهب الاحمر مفرقة في اربعة مجاميع على جوانب الحوض . مجموع منها يمثل اسداً الى جانبه غزال الى جانبه تمساح . يقابله من الجهة الاخرى مجموع آخر هو ثعبان وعقاب وفيل . وفي المجنبين مجموعان آخران هما عبارة عن حمامة وشاهين وطاوس . ودجاجة وديك وحدأة ونسر . وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس . ويخرج الماء من افواهها [1] ويصب في الحوض . فوقف سعيد لحظة مبهوتاً ثم قال « وهذه التماثيل مصنوعة في قرطبة ؟ »

قال « نعم انها مصنوعة في دار الصناعة هنا »

قال « لم اكن اظن مثل هذا الاتقان ميسوراً في قرطبة لاننا لانعهد مثله في غير القسطنطينية او رومية »

قال « ان في قرطبة من الصنائع الجميلة ما يضارع احسن ما يصنع في تينك المدينتين ولولا ضيق الوقت لذكرت لك شيئاً كثيراً منها . ولكنني احسب مولانا الناصر قد استبطأنا »

قال « اين هو الآن ؟ »

قال « هو في مجلس يتصل اليه من هذه الدار ويشرف عليها بحيث يمتع الجلوس هناك بمنظر هذا الحوض ويسمعون خرير الماء فيه »

---

(١) المقري ج ١

الفصل الاربعون

المجلس

فمشى سعيد بجانب ياسر وعيناه في ذلك الحوض وما يتألق حوله من المصابيح او الشموع بالوانها المختلفة فتتكسر اشعتها في رشاش الماء المتساقط فتبهر النظر بجمالها . شغل ذلك المنظر ذهن سعيد حيناً ثم عاد الى هواجسه وخصوصاً لما وصل الى باب المجلس والخصيان وقوف عنده بالحراب وعلى العتبة ستر عليه هذه الابيات :

صل من هويت ودع مقالة حاسد ... ليس الحسود على الهوى بمساعد
لم يخلق الرحمن احسن منظراً ... من عاشقين على فراش واحد
متعانقين عليهما ازر الهوى ... متوسدين بمعصم وبساعد
يا من يلوم على الهوى اهل الهوى ... هل تستطيع صلاح قلب فاسد

فتذكر انهُ قرأ هذه الابيات وهو في بغداد في صدر مجلس المأمون (١) . وتقدم فوسعوا لياسر فازاح الستارة ودعا سعيداً للدخول

فاطل سعيد على مجلس مرتفع لاجدار له من جهة الحوض بحيث يقع نظر الجلوس هناك على ذلك المنظر البديع . ورأى الناصر في صدر المجلس قاعداً الاربعاء على وسادة من الخز وعلى رأسه عمامة وشي صغيرة يخفف بها في المساء وعليه جبة وشي خفيفة تشبهاً ببني أمية في الشام . واول شيء استلفت انتباه سعيد رائحة الطيب فقد كانت مالئة المكان ورأى بين يدي الناصر عابدة جالسة مطرقة وبصرها يتجه خلسة الى ذلك الباب حيناً بعد آخر وهي تتوقع مجيء حبيبها سعيد . وقد مدت مائدة الشراب والفاكهة ووقف بعض الجواري في اجمل ما يكون من الوجوه والقامات كلهن فتيات وقد تمنطقن بالمناطق الحرير الملون وقد طرزت عليها أبيات من الشعر هذا مثال منها يقرأ على احدى تلك المناطق :

زنارها في خصرها يطرب ... وريحها من طيبها اطيب
ووجهها احسن من حليها ... ولونها من لونها اعجب

وقد ارسلن اطراف المناطق من الخصور تتدلى فوق جلاليب تبرق الوانها الزاهية وعلى ذيل بعضها هذان البيتان تطريزاً بالفضة

أغيب عنك بود لا يغيره ... نأي المحل ولا صرف من الزمن
تعتل بالشغل عنا ما تكلمنا ... الشغل للقلب ليس الشغل للبدن

وعلى رؤوسهن اكاليل من زهر مضفور وقد ارسلت شعورهن الى الظهور ووقفن

(١) الموشى

مؤدبات ينتظرن الامر لصب الشراب او تقديم الفاكهة . ومنظر المجلس عَلَى الاجمال يبهر النظر لما في ارضه من الطنافس المزركشة بابيات الشعر في نحو ما تقدم . وعَلَى جدرانه من الستائر الموشاة بابيات من الشعر هذا بعضها :

هجرتني كي اجاريكم بفعلكم ... لا تهجريني فاني لا اجاريك
قلبي محب لكم راض بفعلكم ... استرزق الله قلب لا يجانيك
اصبحت عبداً لادنى اهل داركم ... وكنت فيما مضى مولى مواليك

وكان اسلافهم في دمشق يفضلون الوشي عَلَى سائر الانسجة فقلدهم الناصر بذلك في فرش هذه الحجرة وفي لباسهِ الليلي

والظاهر انهُ قلد العباسيين بتطريز الاشعار على الرياش والاثاث فقد كانت الطنافس والستائر مزينة بابيات جميلة فضلاً عن البسة الجواري

حالما اطل سعيد عَلَى المجلس وقف بعيداً ونظر في جوانب الغرفة بخفة لعله يرى مكاناً لجلوس الزهراء اذا حضرت فتذكر انها تجلس وراء الستارة فرأى الى اليسار ستراً من الديباج الثمين يقطع الحجرة في عرضها وعليه طراز الذهب المزدان بالاشعار على نحو ما تقدم . وسمع حفيفاً وتمتمة فعلم ان الزهراء هناك فتجلد — وفي اثناء ذلك تقدمه ياسر فاخبر الناصر بقدومه فقال الناصر « يدخل سعيد الوراق معلم جاريتنا عابدة »

فدخل وتنحى ياسر فاشار الخليفة الى سعيد ان يجلس فبادرت احدى الجواري الى وسادة قدمتها لهُ بجانب عابدة فجلس فقال له الناصر « لم نسمع شيئاً من عابدة بعد »

قال «انها جارية مطيعة ما الذي يأمر بهِ امير المؤمنين؟ . هل يلذ له الحديث او الغناء ؟ . »

قال « ان الحديث يلذ لنا هل تحدثنا بشيء لا نعرفه »

قال « انها تحفظ الشعر والادب والاخبار من كل نوع فما عَلَى امير المؤمنين الا ان يعين الموضوع الذي يختاره »

فاطرق الناصر هنيهة ثم قال « اخبرتني انها من مولدات بغداد ؟ »

قال « نعم »

قال « ان لبغداد نوادر غريبة . . نحن نحب ان نسمع عن اصحابنا البغداديين وان كانوا لا يحبون ان يسمعوا عنا » وضحك

فادرك سعيد تعريضه وقال « طبعاً هم لا يحبون سماع ما يسوءهم لان اخبار مولانا امير المؤمنين وما بلغ من سلطانه وسطوته وما اتاه من الفتح والنصر كل ذلك يسوء اهل بغداد سماعها لانها تهيج غضبهم وحسدهم وهم الآن في منتهى الاضطراب وقد ذهبت هيبة الخلافة

منهم واستولى الاتراك على الدولة ووضعوا ايديهم على الحكومة واصبح الخليفة عندهم اسماً بلا مسمى . . اين هم من امير المؤمنين صاحب السيادة جامع كلمة المسلمين والمنكل بالكافرين لم ير بالمسلمين ايام كايامه ولا رأى الاسلام عزاً مثل عزه . . »

وكان الناصر يسمع اطراء سعيد وهو مسرور فلما اكثر من الاطراء قطع حديثه قائلاً « نعم ولكن للبغداديين عصراً لا مثيل له — عصر الرشيد والمأمون . ولا يسعنا انكار ما لهذين من الفضل في نقل كتب العلم ونحن الآن انما نجني ثمار ما غرساه — واني كلف بسماع اخبارهما وكثيراً ما اتقدم الى المحدثين ان يقصوا عليّ حديثهما »

فقال سعيد « فأمير المؤمنين اذاً في غنى عن سماع شيء من اخبار تلك الدولة . . »

قال « بل انا احب ذلك و يعجبني منه ما كان يعقد من مجالس الادب والشعر وما كان يدور من الابحاث الجميلة »

الفصل الحادي والاربعون

العباسيون والامويون

فتصدت عابدة للكلام قائلة « ان مجالس الادب كانت تعقد في البصرة والكوفة على الاكثر وللكوفيين والبصريين مناظرات ومناقشات كثيرة فيها اللطيف والمفيد »

فاستحسن الناصر غنة صوت عابدة ولم يكن سمع صوتها بعد فاستلفت ذلك انتباهه فوجه كلامه نحوها وقال « اذكرتني يا عابدة مناقشة طار ذكرها في الآفاق وقد حضرها الرشيد نفسه »

قالت « اظن مولاي يعني مسألة الزنبور والنحلة »

فضحك الناصر وقال « نعم اياها اعني »

قالت « انها من اغرب الحوادث وهي تظهر لأول وهلة مسألة لغوية او نحوية ولكن خلفاء بغداد كانوا يخلطون السياسة في كل شيء حتى في النحو والحديث والتفسير »

فأعجب الناصر حكمها الذي يدل على سعة في العلم وثقة في النفس وقال « ماذا تعنين بالسياسة يا عابدة ؟ »

قالت « اعني انهم منذ قبضوا على ازمة الدولة لم يدخروا وسعاً في تاييدها ولو خالفوا به الشرع او العقل حتى العلم »

فاستغرب الناصر هذا الحكم واحب ان يطلع على حقيقته لانه يساعده في الدفاع عن خلافته وكان الى ذلك الحين يعدها مقلقلة فقال « ماذا تعنين بذلك ؟ »

قالت « اعني انهم لما قاموا يطلبون الخلافة من اجدادكم في الشام تظاهروا بالتقوى والعمل بالكتاب والسنة وطعنوا في خلفاء بني امية لانهم طلبوا الملك العضود وزعموا انهم اتخذوا الفتك في سبيل الحكم . فلما ملكوا ارتكبوا اضعاف ما ارتكبه بعض اجدادكم من الفتك والقتل على التهمة . وكانوا يظهرون انهم يفعلون ذلك رغبة في العلم اوالدين . ولو تدبرت الحقيقة لرأيتهم انما كانوا ينظرون من وراء ذلك الى مصالحهم — نصر ابو جعفر المنصور فقهاء العراق اصحاب الرأي والقياس على فقهاء المدينة اصحاب الحديث . ولماذا ؟ هل فعل ذلك لانه يعتقد الحق في جانب ابي حنيفة رئيس اصحاب الرأي ؟ لا أظنه فعل ذلك الا نكاية في مالك رئيس اصحاب الحديث فيما لانه افتى بخلع المنصور . ولو لم يخلعه أو لو رأى في نصرته فائدة له لنصره »

وكان الناصر يسمع كلام عابدة بلذة وشوق لما حواه من الآراء الفلسفية التي لم يسمعها من احد قبلها وخصوصاً لان الطعن في العباسيين يوافق سياسته وارتفعت في عينيه فاراد ان يستزيدها فقال « بورك فيك من فقيهة عاقلة . . لكنني رأيتك تشددين النكير على اصحابنا العباسيين وما ادرانا ان المنصور لم يكن ينصر ابا حنيفة لاعتقاده صحة رأيه »

قالت « دعنا من الفقه والحديث والتفت الى ما كان من الرشيد وابنائه في مسألة الزنبور والنخلة وهي من المسائل النحوية »

قال « هل ترين في هذه ايضاً وجهاً سياسيا ؟ »

قالت « نعم يا مولاي . . لان العباسيين كانوا يرغبون في نصرة اهل الكوفة لانهم نصروهم لما قاموا لطلب الخلافة فقدموهم على اهل البصرة وقربوهم اليهم فطمع الكوفيون بمسابقة اهل البصرة وصاروا يجادلونهم في المسائل النحوية وفي الادب والشعر حتى قامت مسألة الزنبور والنخلة بين سيبويه من اهل البصرة والكسائي من اهل الكوفة وكان الكسائي يعلم الامين بن الرشيد وكان الامين ينصره باعتبار ان انتصاره انتصار اهل الكوفة جميعاً وهم انصار الخلفاء . . . »

فقطع الناصر كلامها قائلاً « صدقت صدقت ولولا ذلك لم يتخذ الامين كل وسيلة لقهر سيبويه فانه بعد ان ظهر لملأ ان الحق في جانبه أغرى ذلك البدوي على تخطيئته والحكم للكسائي فخرج سيبويه من بغداد وقصد بلاد فارس لاشك انهم ظلموه كما قلت تحزباً لانصارهم الكوفيين . . . لله درك من حكيمة »

الفصل الثاني والاربعون

الغناء

وكان سعيد في اثناء ذلك يوجه انتباهه الى ما وراء ذلك الستر لعلهُ يسمع شيئاً يهمهُ فشعر بحركة فأدرك ان الزهراء لا بدَّ انها ملت سماع ذلك الحديث من فلسفة التاريخ وانها صارت شديدة الميل الى سماع الغناء فنظر الى عابدة وأومأ الى جيبها يشير الى القانون الذي كانت تركبه وتدق عليهِ والتفت الى الخليفة وقال « ان الحكمة لا تخلو من فم المرأة يا امير المؤمنين كما يحلو الغناء . . »

فضحك الناصر وأشار الى السقاة فصبوا الاشربة من اباريق الفضة في اقداح الذهب وقدموا للناصر ولسعيد وامر الجارية ان تشرب فاستأذنتهُ في اعفائها من الشرب »

فقال « اشربي يا عابدة . . ليس هذا مسكراً وانما هو نبيذ التفاح اشربي »

فمدت يدها وتناولت القدح فرأت عليه نقشاً يحيط بهِ هو بيتان الشعر هذا نصهما :

وما لبس العشاق ثوباً من الهوى ولا أخلقوا الا بقيـة ما ابلي

ولا شربوا كأساً من الحب حلوة ولا مرة الا وشربهم فضلي

فشربت وشرب سعيد فقال الناصر « هل تسمعيننا شيئاً من الغناء »

قالت « كما تشاء يا امير المؤمنين »

فقال سعيد « هل يأمر امير المؤمنين ان تغني غناء اهل الاندلس ام غناء اهل العراق ام اهل المدينة ؟ »

فقال « اما غناءنا فانا نسمعهُ وعندنا من يحسنه ولكننا نحب سماع غناء اهل بغداد . اما غناء اهل المدينة فهو الغناء القديم ولا بأس بهِ »

فتذكر سعيد انهُ يشير الى الزهراء وهي التي تحسن غناء اهل الاندلس وهو يعلم انها وراء ذلك الستر فأحب ان يسمع غناءها فقال « اذا استحسن مولانا ان يأمر بعض جواريه المغنيات بالغناء عَلَى طريقة أهل الاندلس وعابدة تغني عَلَى طريقة أهل بغداد كان ذلك مجاوبة جميلة »

فقال الناصر « صدقت » واومأ الى احد الجواري الواقفات في خدمتهم فتقدمت نحوه فأشار اشارة فهمتها فمضت الى وراء الستر ففهم سعيد انه امر الزهراء بالغناء وقال الناصر « سنسمع غناء اندلسياً عَلَى العود فأين عود عابدة »

قال سعيد « انها تضرب على عود لا مثيل له ولا أظنكم سمعتم به لانه حديث العهد في الصناعة ومخترعه لا يزال حياً »

فشخص الناصر ببصره الى عابدة فلم يجد معها عوداً والتفت الى جانبها وهمّ ان يستفهم سعيداً عما يعنيه فرأى عابدة تمد يدها الى جيبها ثم استخرجت منه الخريطة واخذت تركب عيدانها حتى صارت آلة قد شدت اوتارها فقال الناصر « هذا عود ؟ »

قالت « كلاّ يا سيدي انه القانون »

فقال « اظنه الآلة التي ركبها الفارابي في حضرة سيف الدولة ؟ »

قالت « نعم يا سيدي هي »

قال « سمعت انها ادهشت الحضور فابكتهم ثم اضحكتهم ..فهل تعرفين الضرب عليها ومن اين تعلمتِ ؟ »

فاجاب سعيد عنها قائلاً « ادركتُ الرجل في مكان واخذت عنه مثال قانونه ومباديء صناعته وعلمتُ ذلك لعابدة »

فقال الناصر مستغرباً « انت علمتها الموسيقى ايضاً ؟ »

قال « نعم يا سيدي »

فقال « بورك فيك . . انك تصلح لكل شيء .» والتفت الى عابدة وقال « اسمعينا . او تمهلي لنسمع صوتاً من غناء اهل الاندلس .. » وصفق وأصغى الجميع فخرج من وراء الستر صوت العود بصناعة جيدة . وكان اكثر الناس اصغاء سعيد ثم سمعوا الغناء فطرب الناصر طرباً شديداً »

حتى اذا فرغ الغناء وراء الستار نظر الناصر الى عابدة كانه يستطلع رايها في ما سمعته فقالت « انه صوت مطرب سمعت مثله ممن يحفظ غناء زرياب المغني .. »

فقطع الناصر كلامها قائلاً « غناء زرياب ؟ . صدقت ان هذا المغني هو الذي حمل هذه الصناعة الى الاندلس . وقد قال الذي نقل هذا الصوت الينا انه من اصوات زرياب فاسمعينا ما عندك من غناء بغداد »

وكانت قد اصلحت القانون فتناولته واعتدلت في مجلسها وجعلت تضرب عليه ضرباً لم يسمع الناصر مثله وكان قد استخفه الطرب وهاجه الشراب فجعل يحرك يديه ورجليه ويزحف عن سريره فاغتنمت عابدة تلك الفرصة وغنت صوتاً لابراهيم بن المهدي احسنت توقيعه واعرابه فلم يتمالك الناصر ان صاح من الطرب « لله درك من مطربة معربة . زيدينا زادك الله جمالاً وصنعة »

فغنته صوتاً آخر عَلَى لحن آخر زاده طرباً . واشار الى الجواري ان يسقينه فدارت الاقداح وسعيد يظهر انه يشرب ولا يشرب وكذلك عابدة . فلما احس سعيد ان الشرب اخذ من الناصر اشار الى عابدة فاصلحت العود عَلَى اصلاح الفارابي كما فعل في حضرة سيف الدولة ففعلت فغلب عَلَى الناصر الضحك واغرب فيه وسعيد يراقب ما يبدو وراء الستارة فسمع همساً وضحكاً فادرك ان ضحك الناصر وشدة طربه من غناء عابدة بهيجان حسد الزهراء

الفصل الثالث والاربعون

النحنحة

وهم في ذلك سمعوا نحنحة من وراء الستر لم يفطن لها الا سعيد وراقب ما يبدو من الناصر بعدها فرآه انتبه لنفسه بغتة وامسك عن الضحك وقال لعابدة « لقد اطربتنا بارك الله فيك »

فادرك سعيد انه يريد فض الجلسة فأومأ الى عابدة فتحفزت للنهوض فلم يدعها الناصر للبقاء لكنه اشار الى قيمة الجواري الواقفات للخدمة ان تزيد عابدة حفاوة فمشت بين يديها الى غرفتها

وتحفز سعيد للنهوض والاستئذان فأومأ اليه الناصر ان يمكث فمكث . ونهض الناصر ودخل من باب يؤدي الى غرفة اخرى واشار الى احدى الجواري فدخلت وراء الستر . فشعر سعيد انه بعث الى الزهراء لتمضي اليه . فلبث وهو يعمل فكرته في ما عسى ان يكون سبب تلك الدعوة ولم يبق في تلك القاعة سواه

وهو في ذلك رأى الستر يتحرك واذا بجوهر خارج من ورائه فلما رآه سعيد فرح بمجيئه وتوقع ان يسمع منه شيئاً جديداً فسأله بالاشارة فتقدم اليه وهمس في أذنه « ان الغيرة كادت تقتلها »

ففهم انه يعني الزهراء فقال « ماذا فعلتْ ؟ »

قال « لم تملك ان تنحنحت للناصر لتزجره عما اظهره من الاعجاب والخفة »

فضحك سعيد وقال « لا بد انك ساعدت في ايقاد تلك الغيرة .. طبعاً .. واخيراً ماذا ترى ؟ »

قال « اني اثرت غيرتها وجعلتها تفهم ان اتقان غناء عابدة سيقدمها عليها لدى الخليفة واشرت عليها ان تتقن الغناء »

قال « على من ؟ »

قال وهو يتطاول ليهمس في اذن سعيد « ستطلب من الخليفة ان يكلفك في تعليمها غناء بغداد .. »

فبان البشر في وجه سعيد وقال « وهل تظنه يقبل ؟ »

قال « اذا طلبت ذلك اليه لايخالفها لانه طوع ارادتها . الم ترمبلغ تأثير تلك النحنحة فيه وهو في ابان طربه ؟ »

قال سعيد « لقد احسنت يا جوهر بورك فيك . طالما توقعت منك المهارة والذكاء ... اني اسمع قلقلة مفتاح في باب .. واسمع وقع خطوات لعل الخليفة قادم .. امض »

قال « لا اظن الخليفة يعود اليك بنفسه ولكنه يبعث رسولاً بما يريد .. هذا الرسول قادم .. استأذنك اني منصرف » قال ذلك وعاد الى وراء الستارة

ولبث سعيد صامتاً يشغل نظره بما هنالك من الانوار والزخارف واذا هو بياسر قد دخل فهش له ونهض لاستقباله فتوسم في وجهه خيراً فقال « خيراً ان شاء الله »

فابتسم ياسر وقال « جئتك برسالة من امير المؤمنين ... فهو يثني على علمك وقد امر لك بجائزة سنية .. هذا اولاً .. وثانياً يطلب منك ان تمكث في هذا القصر بضعة ايام لانه يحتاج اليك في امر »

قال « الم يقل لك ما هو ذلك الامر ؟ »

قال « كلا »

فاطرق كانه يفكر ثم قال « انا اقول لك »

قال « هل تعرف ما يجول في ذهن الخليفة ؟ »

قال « وما الفرق بيني وبينك اذن ؟ » وضحك مماجنة

فجاراه في الضحك وقال « قد تعودنا منك معرفة الغيب . قل ما الذي يريده منك ؟ »

قال « يريد ان اعلم جاريته الزهراء الغناء ما قولك ؟ »

فربت ياسر على كتف سعيد توداً واعجاباً وقال « قد لاحظت ذلك منه ولم يقله لي .. »

قال « انا اقوله »

قال « وهل يسوءك ذلك ؟ »

قال سعيد « كلا . . ولكنني جئت من منزل الامير عبد الله على ان اعود اليه مع عابدة بعد يوم او يومين وكيف امكث هنا اياماً .. اخاف أن .. »

فقطع ياسر كلامه قائلاً « مهما يكن من الخوف ان قول ان امير المؤمنين لا يرد »

قال « نعم اعرف ذلك وانا باق كما امر ولكن هل علمت ان عابدة باقية معي ام هي ذاهبة ؟ »

قال « لم يقل لي شيئاً من ذلك ولكنني استدل من قرائن الاحوال انها باقية لانه امر ان نعد لها غرفة خاصة ونقدم لها كل ما تحتاج اليه »

قال « لكنه لايلبث ان يأمر باخراجها لان الزهراء .. »

ففهم ياسر مراده فابتدره قائلاً « لا لا . . ان الزهراء اذا اظهرت الغيرة من عابدة لصناعتها في الغناء فهي لاتخاف ان تتقدم عليها لعلمها انها جارية ادب ومنادمة . وقد فهمت ذلك من يوم مجيئها . . وزد على ذلك ان الزهراء ذات دهاء وتعقل وانما غلبت عَلَى الناصر بتعقلها اكثر مما بجمالها . . مالنا ولهذا امض الآن الى حجرة في هذا القصر اعددناها لك ريثما يبعث الناصر في طلبك »

قال « حسناً » ومشى مع ياسر حتى خرجا من ذلك القصر الى بناء بجانبه فادخله ياسر الى غرفة هناك بابها خصي امره ان يكون في خدمته وانصرف

دخل سعيد تلك الغرفة فوجد فيها كل ما يحتاج اليه لتبديل ثيابه فقعد هنيهة اطلق لنفسه عنان الفكر فاخذ يتدبر ماسمعه وما يتوقع ان يكون ثم بدل ثيابه ونام

الفصل الرابع والاربعون

التعليم

وفي صباح اليوم التالي استيقظ وجلس ينتظر امر الخليفة فلما ابطأ عليه لبس ثيابه وخرج تمشى في الحديقة وامر الخصي الواقف لخدمته اذا طلبه الخليفة فانه يجده في الحديقة . وعين له المكان

وخرج حتى نزل حديقة بجوار ذلك القصر فيها بركة يتدفق الماء اليها من انابيب الرصاص . فوقف عندها واخذ يتأمل حركات الماء وافكاره تائهة في ماهو فيه فلاحت منه

التفاتة فرأى شبحاً خارجاً من جانب القصر من باب لم يعرفه فحول نظره اليهِ فرآه رجلاً في لباس الخصيان من طبقة الوصفاء الذين يلبسون الدروع السابغة . لكنه رآه يمتاز عنهم بمنطقة حمراء مطرزة بالذهب تدل على تقدمه بين الاقران بالمنصب أو الخدمة . وتبين في وجهه شيئاً يعرفهُ فحدق فيهِ فاذا هو ساهر غلام الامير عبد الله . ولحظ من حركاته انهُ يحاول الخروج خلسة لايريد ان يختلط بخصيان القصر فقال سعيد في نفسه «لايخلو ان يكون مجيء ساهر هذا لامرٍ ما» وانزوى في ظل دفلة وجعل انه يتأمل ازهارها . فمرَّ ساهر مرور اللص وهو يحسب سعيداً لم ينتبه له . فلما تجاوز الدفلة أعاد سعيد النظر اليهِ فتحقق انهُ ساهر بعينه . ولو لم يره يحاول اخفاء امره لم يسيء الظن بهِ . فحفظ ذلك في ذاكرته وظل يتمشى في الحديقة نحو ذلك الباب لعله يكشف شيئاً جديداً فرأى الخصي الموكل بخدمته مسرعاً نحوه فعلم ان الخليفة يطلبه فتجاهل وظل ماشياً فادركه الخصي وناداه فالتفت سعيد اليهِ وسأله عن غرضه

فقال « ان امير المؤمنين بعث في طلبك »

قال « هلم اليهِ » ومشى نحو الباب الذي خرج منهُ ساهر

فاعترضهُ الخصي قائلاً « من هنا ياسيدي » واشار نحو الباب الآخر

فقال سعيد « لكن هذا اقرب . أليس مولانا امير المؤمنين في هذا القصر ؟ »

قال « بلى . . ولكن المرور من هذا الباب محظور »

فاطاعه ومشى وهو يقول « ولماذا »

قال « لانهُ يؤدي الى مقام السيدة الزهراء »

فحفظ ذلك في خاطره وسكت

وبعد قليل دخل قصر المؤنس الى بيت المنام فاستقبله ياسر رئيس الخصيان وقد بدت البغتة في وجههِ وقال « اين كنت ؟ »

قال « كنت اتمشى في الحديقة »

قال « بعث امير المؤمنين في طلبك »

قال « ها انا ذا »

قال « انتظر ريثما استأذن لك »

فوقف سعيد ودخل ياسر ثم عاد واشار اليهِ ان يتقدم فمشى حتى دخل غرفة في صدرها سرير عليهِ فراش من ريش النعام المكسو بالحرير الاحمر الزاهي وقد جلس فيهِ الناصر وهو لايزال بلباس النوم وعلى رأسه قبعة (طاقية) من الحرير الموشى بالذهب وقد تعلق بالسقف

مراوح من ريش النعام تتحرك بتدبير خاص . ووقفت الوصائف بالابسة الفاخرة كما تقدم . فلما دخل سعيد اشار الخليفة الى الجميع بالخروج واستدناه فمشى حتى وقف بين يديه فقال له « لا اظنك تجهل منزلتك عندنا بعد ان دعوناك للدخول علينا ونحن في الفراش . . فان رفع الكلفة تدل عَلَى الرضاء والصفاء . . تفضل اجلس »

فانحنى سعيد وظل واقفاً فامره ثانية ان يقترب منه ويجلس فمشى حتى صار بجانب السرير وجلس جاثياً على وسادة هناك وهو مطرق تأدباً فقال له الناصر « يحسن بالعقلاء التأدب بين يدي الملوك ولكنني ذكرت لك منزلتك عندي بالامس لما آنسته من علمك وصدق لهجتك فدع التهيب »

قال « ان تنازل امير المؤمنين مع مملوكه الى هذا الحد يحملني عَلَى زيادة الشعور بحقارتي ويزداد المولى حفظه الله رفعة في عيني »

قال « ان مقام اهل العلم محفوظ عندنا . . انهم عيون الملك ونبراسه وقد رأيت انك من خيرة العلماء المخلصين »

فاشار بالانحناء وسكت فقال الناصر « لا تظننا نطلب اليك التنجيم الآن فقد اجلنا ذلك الى فرصة اخرى ولكن جاريتنا الزهراء سمعت غناء تلميذتك عابدة فاحبت ان تتقن الغناء عَلَى يدك فهل تفعل ؟ »

فنهض سعيد وهو يتململ من التأدب وقال « ان العبد لايخبر بما يريده مولاه واني سعيد لان في شيئاً اقدر ان اخدم امير المؤمنين ببذله . . »

فقطع الناصر كلامه قائلاً « انت سعيد عَلَى كل حال . . انك سعيد بعلمك وادبك . ولا تظنني نسيت ماطلبته من كتمان حقيقة منصبك واظهار انك تعلم عابدة . وفي هذا المساء يأتيك رسول الزهراء فتذهب الى غرفتها لتلقينها بعض الحان بغداد »

فاشار بيده عَلَى رأسه مطيعاً

فقال الناصر « انت تعلم منزلة الزهراء عندنا »

فكرر سعيد انحناء رأسه كانه يقول « نعم اعلم جيداً »

فقال الخليفة « فاعدد لها الحاناً جميلة مما صنعه ابراهيم بن المهدي فانا نحب صنعة ابناء الخلفاء . ولا بأس من تعليمها بعض اصوات اسحق الموصلي »

قال « سيرى امير المؤمنين ما يسره فان عبده لا يحتاج الى ايضاح »

فقال له « وقد امرنا لك بجائزة هي دون ما تستحقه وسنوالي ذلك عليك ما دمت عَلَى حسن ظننا فيك »

فوقف سعيد وقد احس انه ينبغي لهُ ان ينصرف . فاستأذن وخرج فلقيه ياسر في الدهليز فاخبره بما امرله بهِ الخليفة من العطاء وقال «يظهر انك حظيت عند امير المؤمنين »

قال « انا لا استحق هذه الحظوى ولكن لكل اجل كتاب »

فاكتفى ياسر بذلك ومشى مع سعيد الى باب غرفته وتركه خوفاً من الرقباء

الفصل الخامس والاربعون

اين الزهراء

أما سعيد فدخل الغرفة فرأى الخادم قد اعدَّ له الطعام فتناوله ثم جلس واستغرق في التفكير بما سيكون عند اجتماعهِ بالزهراء وهو يعلم انهُ سيجتمع بها وهي وراء الستر . وكلما تصور ذلك الاجتماع خفق قلبه — قضى بقية ذلك اليوم على احر من الجمر بين الجلوس في الغرفة والتمشي في الحديقة وقد طال عليهِ الوقت فلما غربت الشمس عاد الى الغرفة ولبث في انتظار الرسول

ولما دنا العشاء ولم تأتِ الرسول شغل خاطره ثم رأى جوهراً قادماً فهش له وهو يتوقع ان يدعوهُ للذهاب الى الزهراء فرآه يمشي نحوه ولا يتكلم فابتدره قائلاً « ما وراءك »

قال « ما ورائي شيء »

قال « وكيف ذلك ؟ ألم تبعثك الزهراء في طلبي »

قال وهو يهز كتفيهِ « كلا .. وقد كنت انتظر امرها بذلك »

فقال سعيد « هل علمت عن تعلم الغناء ؟ »

قال « لا .. ولكنني لا اعلم اين هي »

قال « كيف ذلك اليست في غرفتها ؟ »

قال « ليست هناك »

قال « لعلها عند الخليفة »

قال « كلا »

قال « اين هي اذاً ؟ »

قال « لا ادري يا سيدي وانما اعلم ان وصيفاً جاءها في اصيل هذا اليوم ومعهُ امرأة

قال انها ماشطة فخرجت الزهراء معها ولم تعد بعد »

فاستغرب سعيد قوله وقال « أليس في القصر مواشط ؟ »

قال « في القصر مواشط كثيرات ولكن يظهر ان هذه الماشطة لها صناعة خاصة في اصلاح الشعر »

قال « الم تفتش عنها في القصر ؟ »

قال « فتشت عنها في كل مكان اعهدها تقيم فيهِ فلم اجدها »

فدهش سعيد واطرق لحظة ثم قال « الا تعرف ذلك الوصيف ؟ »

قال « اعرفه وقد كان في هذا الصباح عندها »

فانتبه سعيد وقال « العلهُ صاحب المنطقة الحمراء ؟ »

قال « نعم هو هو بعينه . كيف عرفت ذلك ؟ »

قال « عرفتهُ . . وهو نفسه الذي اتاها بالماشطة ؟ »

قال « نعم هو بعينهِ »

قال « هل رأيت الماشطة ؟ »

قال « لم ار وجهها . . لانها مبرقعة »

فتوسم سعيد في الامر دسيسة وقال « الآن وقتك يا جوهر »

قال « لبيك يا سيدي »

قال « تبحث عن الزهراء في كل غرفة ودهليز حتى في السراديب وعلى السطوح . . ابحث عنها الا ن وأتني بالخبر . لابد من وجودها هنا »

فقال « سمعاً وطاعة » وخرج

ومكث سعيد وقد أخذته الدهشة وجعل يفكر في ما سمعه وهو لا يكاد يصدقه لولا اعتقاده صدق ذلك القزم . وبعد قليل جاءه جوهر والبغتة بادية في وجهه وقال « تعال يا سيدي »

فمشى معه حتى اتى دهليزاً من دهاليز القصر يؤدي الى باب يستطرق الى حديقة خصوصية لا يدخلها احد الا بامر الزهراء . فلما وصلا الباب اشار جوهر باصبعه الى نور ضعيف يظهر من خلال الاغصان وقال « انظر »

فنظر فرأى الزهراء والى جانبها شبح بلباس النساء وتفرس في وجهه فاذا هو عبد الله بن الناصر فخفق قلبه وارتعدت ركبتاه من شدة التأثر . ولولا رباطة جأشه ما تمالك عن ان يثب عليهما . ولكنه تجلد واعاد النظر فلم يروجه الزهراء ولكنه عرفها

من ثيابها على شهادة جوهر. اما عبد الله فرأى وجهه وتنصت فسمعهما يتحادثان همساً وهم ان يدنو لسماع الحديث فسمع وقع خطوات في الدهليز فخاف ان يؤخذ بالتلصص ويعود الذنب عليه . فتحول وجوهر معه نحو الدهليز فرأيا ياسراً قادماً يتمشى فلما راى سعيداً سلم عليه وسأله عما يريده فقال « انا في انتظار السيدة الزهراء لاعلمها الغناء حسب امر الخليفة »

قال « اذهب الى غرفتها . . . الا تعرفها ؟ »

قال « هذا خادمها يعرف الغرفة ولكنه يقول انها ليست هناك »

قال « لعلها في الحمام »

قال جوهر « ليست في الحمام يا سيدي ولا في محل آخر اعرفه وقد جئت للتفتيش عنها .. ورايت في الحديقة نوراً فهل تظنها هناك ؟ »

قال « اين ؟ تعال » ومشى جوهر معه . اما سعيد فرجع الى غرفته . فلما وصلا الى الباب رآها ياسر مع عبد الله فدهش وقال « هي هنا . ماذا تعمل ؟ »

قال جوهر « لا اعلم واخاف اذا رأتني ان تفتاني . . اني ذاهب ياسيدي الى غرفتها انتظرها فيها »

قال « اذهب . . واحذر ان تذكر ذلك لاحد »

قال « سأكتمه عن كل انسان » ومضى

الفصل السادس والاربعون

الوشاية

أما ياسر فلم يشأ ان يضيع هذه الفرصة للانتقام من تلك المتكبرة فاسرع الى الناصر وكان قد عاد الى غرفة في ذلك القصر تعوّد ان يجلس فيها لمراجعة بعض مايعرض عليه من الاعمال فدخل عليه بلا استئذان — وتلك كانت عادة رؤساء الخصيان مع الناصر . ووقف بحيث يعلم الناصر انه يريد مخاطبته فاشار اليه فدنا فقال « ما وراءك ؟ »

قال « قد أمر مولاي امير المؤمنين سعيداً الوراق ان يعلم الزهراء الحاناً جديدة . »

فقطع الناصر كلامه قائلاً « الم يعلمها »

قال « انه لا يزال في انتظارها »

فاستاء الناصر من تعرض ياسر وتسرعه وهو يعلم ان في نفسه شيئاً عليها فقال « لاتلبث ان تأتيه .. وما الذي يدعو الى هذه العجلة منك ؟ »

قال « تعجلت في نقل الخبر الى مولاي لان احد خدمتها اخبرني انها غير موجودة في القصر ولا هي عند المعلم »

فبغت الناصر واقطب حاجبيه وقال « اين هي اذاً ؟ لعلها في الحمام او في الحجلة »

قال « ليست في القصر كله يا سيدي »

فوقف الناصر وقد غضب من ياسر لالقائه الشك في ذهنه ومشى وهو يقول «اين هي ؟ لا بد ان تكون في غرفتها او . . . » وسكت ومشى يتبع ياسراً والخدم تختبئ من طريقها فقاده ياسر الى مكان يشرف منه على تلك الحديقة . فرأى الزهراء واقفة وبجانبها شبح لم يعرفه حتى نبهه ياسر الى سحنته فعرف انه ابنه عبد الله فهاج الدم في عروقه واوشك ان يصرخ فيه لو لم يمسك نفسه خوف الفضيحة واكبر ان يظهر شكه امام ياسر فتجلد وقال « يظهر انها في شاغل مع ولدنا عبد الله حفظه الله ولا بد من سبب فيه خير لنا . . ولكن كان ينبغي لها ان تلقاه في غرفة من غرف القصر »

وكان عبد الله قد ودعها وهرول مسرعاً في الحديقة وعادت هي الى القصر فاظهر الخليفة ان الامر لا اهمية له وصرف ياسراً وذهب هو الى غرفته وقلبه يتقد غيرة وحنقاً وحدثته نفسه مراراً ان يدعو الزهراء اليه في تلك الساعة فينتهرها ويوبخها ويستطلع خبرها لكنه لم يشأ ان يمكن ياسراً من الشماتة بها — فلما صرفه واوصاه ان يكتم ذلك واخذ يفكر في ما رآه فعظم عليه ولم يستطع صبراً عن معاتبتها في الحال فبعث وصيفة تستقدمها . فعادت الوصيفة وقالت « انها في الفراش لا تستطيع النهوض »

وقد تعود الناصر ان يحتمل هذا الدلال منها فلا يغضبها — اوهي عادة المحبين في مثل هذا الحال انما يغلب منهم السابق الى الدلال وقد يكون في نفس المحب عتب على حبيبه فاذا راى منه غضباً او تجنياً شغل بمراضاته عن عتابه — فصبر الناصر نفسه وذهب اليها وهو يكظم غيظه حتى اذا دخل غرفتها تنحى كل من كان هناك من الخدم او الوصائف وظلت هي وحدها

وكانت حالما وصلت غرفتها قد نزعت ثيابها وتردت بثوب تعودت لبسه في ملاقاة الناصر يزيدها جمالاً ورونقاً . وكان جمالها جذاباً ياخذ بالعقول — يكفي دليلاً على ذلك استيلاؤها على قلب الناصر حتى شغلته عن كل من في قصوره من السراري والجواري

واصبح لا يصدر الا عن رأيها او هو لا يردُّ لها طلباً وقد بنى قصور الزهراء رغبة في مرضاتها واحياء لاسمها كما علمت

الفصل السابع والاربعون

الزهراء

كانت الزهراء اذا جالستها فأول ما يخاطبك عيناها ثم لسانها ثم يستولي عليك عقلها وظرفها . فلا تملك دفعاً لما ترميك به من السهام النافذة تخترق الاحشاء . وكان في عينيها نور لا يعبر عنه بغير السحر ولها قامة كالرمح مع بعدها عن الخلاعة والتبرج . وكانت فصيحة اللهجة ذكية الفؤاد سديدة الرأي مع تعقل ورزانة يتهيب جليسها من حديثها ويشعر بقوة حجتها وصحة برهانها

وكان الناصر يأنس بمجلسها ويعجب بكل شيء تأتيه . فيرتاح الى رؤيتها ويطرب من حديثها او غنائها . اذا جالسها شغل بها عن كل شاغل — لكنه كان يلحظ فيها في بعض الاحيان انقباضاً لم يكن يعرف سببه . وقد تكون في مجلس طرب والخليفة الى جانبها يطربها ويدلها وهي في ابان فرحها فتتغير سحنتها بغتة ويتولاها الانقباض رغم ما تحاول من اخفائه عن الجلوس . وكثيراً ما سألها الناصر عن سبب ذلك التغيير وهي تنكره او تنتحل له سبباً لا يقتنع به الناصر ولكنه يجاريها

فلما شاهد ما انتهى في تلك الليلة اخذ يراجع تاريخ معاملته هذه المرأة لعله يرى موجباً لهذا التصرف فلم يجد سبباً يوجبه . فخطر له ما كان يلحظه فيها من الانقباض فقال في نفسه « لعل لهذا علاقة بذاك » ثم عزم على ملاقاتها فبعث اليها كما تقدم فادركت لنباهتها ان الخليفة لم يبعث اليها الا وفي نفسه شيء من العتب لانها لحظات في القصر حركة دلتها على ان الخليفة مشى نحو الحديقة . فلم ترد الذهاب اليه لعلمها انه سيأتيها واتخذت القاعدة التي اشرنا اليها وهي مصادمة العتاب بالغضب او الدلال . وجعلت من اسباب مرضاته لبس ذلك الرداء الذي تعودت ان تلبسه والخليفة طوع ارادتها

لبست ذلك الثوب وهو بلون السماء وعليه تطريز من الفضة باشكال النجوم وبينها القمر وقد طرِّز على حاشية الثوب من الاسفل هذان البيتان

واني لاهواهُ مسيئاً ومحسناً واقضي عَلَى قلبي له بالذي يقضي

فحتى متى روح الرضى لا ينالني وحتى متى ايام سخطك لا تمضي

وقد تمنطقت بمنطقة من الخز بحلق الذهب وقد شدت من الامام بعروة من الذهب مرصعة بالماس . وكان فرش تلك الغرفة يأخذ بالعقول لما فيه من النقوش والاشعار على الابطسة والستائر والجدران . وكان سريرها من الابنوس منصوباً في احد جوانب تلك الغرفة الواسعة وعليه نقش منزل بالعاج في جملته هذه الابيات :

ومجدولة اما مجال وشاحها فغصن واما ردفها فكثيب
لها القمر الساري شقيق وانها تطلع احياناً له فيغيب
اقول لها والليل مرخ سدوله عليك ابك العيش الخسيس يطيب
فقالت نعم ان لم يكن لك غيرنا ببغداد من اهل القصور حبيب

وكانت كلة سريرها (الناموسية) من الحرير اسمانجونية اللون وعليها هذان البيتان :

من قصر الليل اذا زرتني ابكي وتبكين من الطول
عدو عينيك وشانيهما اصبح مشغولاً بمشغول

ناهيك بما على الطنافس والوسائد من الاشعار المطرزة مما يدهش البصر . غير ما على الحجلة (التوالت) من النقوش الجميلة وكانت حجلتها معصفرة بالذهب وقد طرزت عليها ابيات تطريزاً جميلاً وهي :

دعيني أمت والشمل لم يتشعب ولا تبعدي افديك بالام والاب
سقى الله ليلاً ضمنا بعد هجعة وادنى فؤاداً من فؤاد معذب
فبتنا جميعاً لو تراق زجاجة من الراح فيما بيننا لم تسرب

وكان في تلك الحجلة حق من الذهب فيه بخور امرت الزهراء باحراق شيء فيه فتصاعدت رائحته واختلطت بروائح الاطياب

وحالما علمت الزهراء ان الخليفة قادم اليها امرت الخدم بايقاد الشموع وتهيأت لاستقباله بذلك الثوب الجميل كانها لم تفعل شيئاً يوجب عتاباً أو مؤاخذة

الفصل الثامن والاربعون

العتاب

برح الخليفة غرفته وهو يغالب غضبه ويكظم غيظه فلما اقبل على غرفة الزهراء كانت قد خرجت لاستقباله وهي تجر ذيل ثوبها تيهاً . ثم وقفت تنتظر ما يبدو منه فرأته

ظل ماشياً لا يلتفت اليها فاحبت ان تبادئه بالمسالمة فهمت بيده واكبت عليها كانها تريد تقبيلها فاجتذبها من بين يديها وظل ماشياً اشارة الى غضبه عليها . فمشت في اثره الهوينا وهي مطرقة بلا تذلل أو خوف واظهرت العتب لهذا الجفاء . أما هو فما زال ماشياً حتى تصدر القاعة فجلس على وسادة وقد اقطب حاجبيه ولم يدع الزهراء للجلوس فظلت واقفة . ثم رفع بصره اليها فرآها تنظر اليه نظر العاتب وعيناها تتكلمان بما يعجز عنه اللسان . فصبر لعلها تقول شيئاً فبسطت كفها وقدمتها له فقرأ عليها بيتاً منقوشاً بالحناء وهو :

فديتك قد جبلتُ على هواكا فقلبي ما ينازعني سواكا

فلما وقع نظره عليه وجد للكلام سبيلاً فحول وجهه عن تلك الكف وقال « قد كان ذلك من عهد بعيد » وهز رأسه هزة الغضب

فقالت « هل يأذن امير المؤمنين بالجلوس »

فاشار اليها ان « اجلسي »

فقعدت بين يديه وقالت « مالي ارى مولاي قد تنير على جاريته »

قال « لم اتغير انا يا زهراء »

قالت « ولا انا ياسيدي .. كيف يخطر ببالي التغير وانا في نعمة لم يحلم بها احد قبلي ؟ »

قال « لا اراك سعيدة في هذه القصور »

فابتسمت وقالت « كيف لا اكون سعيدة وانا مشمولة برضى امير المؤمنين رافع لواء الاسلام والمسلمين .. »

قال « لاتكذبي .. كم من مرة رأيتُ اسباب التعاسة في محياكِ وسألتك عن علة ذلك فانكرتِ ؟ اظنني عرفتُ العلة الآن » قال ذلك بنغمة الطائر ولسان حاله يقول « كشفت سرك .. »

فلما اشار الى انقباضها الماضي اجفلت واخذ الانقباض يغالبها وهي تبتسم وقالت « لايخلو الانسان من اسباب قهرية حتى لا يكون اهل الارض مثل اهل السماء — فلولا هذا الانقباض القليل الذي يتولاني في بعض الاحايين لكنت احسبني في النعيم »

فاعجبه تخلصها بهذا الاطراء ولكنه لم يقتنع فقال « نعم ولكن احب ان اعرف سبب ذلك الانقباض — ما هو سبب انقباضك الفجائي احيانًا وانت جالسة اليّ ونحن في طرب وغناء ؟ »

فتنهدت رغم ارادتها وقالت « يندر ان يحدث ذلك ولا اذكر سببه »

قال « انا اعلم سببه »

قالت « طبعاً . امير المؤمنين اعلم »

قال « لم اكن اعلم ذلك قبل اليوم » وتنحنح

فادركت انه لا يلبث ان يذكر ماشاهده منها فقالت « وكيف عرفته ؟ »

قال « عرفته بالصدفة . . . هل حفظت درسك في الالحان اليوم ؟ »

قالت « كلا ياسيدي »

قال « ولماذا ؟ »

قالت « لاني كنت في شاغل »

قال « ما الذي يشغلك عن ذلك . . وانت الآمرة الناهية في هذه القصور كلها . . وانت صاحبة السيادة على مافيها من الجواري والغلمان ؟ . »

قالت «أأعمل كثرة الجواري وسعة القصور تغني الانسان عن الاشتغال ؟ هذا امير المؤمنين يده فوق كل يد ومع ذلك فهو يرى ما يشغله احياناً »

فتبادر الى ذهنه انها توبخه على تعلقه بعابدة وتشير الى ما استخفه من الطرب في تلك الليلة فقال « اظنكِ تحاسبينني على خطواتي وتعدين عليّ انفاسي . . ها انك عرفت ماشغلني احياناً . . قولي ما الذي يشغلك . . قولي ما الذي شغلك عن الدرس الليلة » قال ذلك بصوت فيهِ شيءٌ من التهديد وحدق بصره فيها

فلم تهيب من تهديده فظلت رابطة الجأش وقالت « ان ما شغلني عن الدرس هو أهم من الدرس في نظري »

قال « طبعاً هو اهم من الدرس . . وتقولين ذلك صريحاً ؟ »

قالت « قد تعودت الصراحة في القول فلا اغيرها »

قال « فاذاً اصدقيني الآن »

قالت « بماذا ؟ »

قال « مع من كنتِ مختلية في هذا المساء ؟ »

قالت « مع الامير عبد الله بن امير المؤمنين »

قال « ولماذا ؟ »

قالت « لسبب لا اقوله »

قال « اوتكتمين ذلك عني ؟ »

قالت « نعم ياسيدي اكتمه »

قال « ولكن ذلك يسوءني كما تعلمين »

قالت « لم اكن اعلم انه يسوءك ومع ذلك فقد حصل »

قال « تقولين بجسارة انه حصل ولا تريدين ان تطليعني على السبب ؟ تقولين ذلك صريحاً بلا تخوف ؟ يالله ما هذه الوقاحة »

فتبينت الغضب في عينيه وساءها لفظ (الوقاحة) فقالت « لم اتعود هذا الغضب من امير المؤمنين ولا هذه الالفاظ » واطرقت دلالاً واشتغلت باصلاح الاساور في زندها وهي تنظر اليها

الفصل التاسع والاربعون

الحيرة

فتأثر الناصر من عتابها ولكنه اصرَّ عَلَى استطلاع سرها فقال « اصبت انك لم تتعودي مني هذا الجفاء لاني لم ار منك ما يبعث عليه .. فانت الآن قد خرجت عن عهدي فيكِ »

قالت « بماذا ؟ ألأني خاطبت ابنك ؟ »

قال « ليست مخاطبته مما تؤاخذين عليه ولكنك فعلت ذلك سرًّا وأتيت لعبد الله بثياب امرأة .. لا ادري كيف اطاعك هو عَلَى ذلك .. انه خائن » واحس الناصر ان الغضب يكاد يخرجه فتماسك وسكت

فقالت « اذا غضب امير المؤمنين من عملي فانا صاحبة الذنب وليس ابنه الامير عبد الله فلا يتهمنه بشيء .. وسوف تظهر براءته »

فقال الناصر « والآن قولي .. الا تخبرينني عن سبب تلك الخلوة بعبد الله ؟ »

قالت « لا اقول ذلك الآن .. لا تغضب يا مولاي اني لا اقدر ان اقوله ولكن المستقبل يتكفل بكشفه »

فلما يئس من استنطاقها حدثته نفسه ان يحملها عَلَى الاقرار قهراً ثم رأى ذلك يحط من كرامتها وهو يحبها ويجب المحافظة عَلَى منزلتها لكثرة حسادها في بلاطه . وكثيراً ما جاءته الوشايات في حقها وهو يدافع عنها ويظهر حسن ظنه بها . فرأى ان حملها عَلَى الاقرار بالقوة يحط من كرامته لدى اهل دولته . فضلاً عن شغفه بها فهو يميل بعواطفه الى تبرئتها لئلا يأول الغضب الى تركها او قتلها وهو يرى بقاءها لازماً له ويعدُّ وجودها فالاً حسناً عَلَى دولته لانه ما زال منذ عرفها والسعد خادمه في الحرب والادارة والسياسة . عَلَى ان الحب كثير

الظنون قريب الشكوك. فلما تذكر كيف رآها في خلوة مع ابنه على تلك الصورة ثارت غيرته فرأى من الحكمة ان يتمهل في الحكم واستطلاع السر بالحسنى فاخذ يفكر في كيف يتخلص الى الرضا

فلحظت هي تفكيره فجثت بين يديه وقالت « كيف يظن مولاي السوء بي وقد غمرني بنعمه ورفع منزلتي وجعلني موضوع حبه واقرب الناس اليه ومحل ثقته »

فلما سمع هذه اللفظة تذكر قولاً سمعه من سعيد اول يوم لقيه في قصره وطلب اليه ان يستطلع طالعه فقال له يومئذ « ان الخوف يأتيك من اكثر الناس ثقة عندك » فعاد الى الارتياب ولكنه صمم على الصبر فوقف وهو يقول « انا ذاهب وينبغي لك ان تعرفي لي سكوتي الآن مع ما يحيط بي من اسباب الريب »

قالت « عرفت ذلك لك في جملة افضالك وسترى اني موضع ثقتك » ومشت في اثره ولحظت انه يمشي الهوينا كانه يتوقع ان تدعوه للرجوع او ان قلبه لم يطاوعه على الخروج وهو لم يستفد شيئاً . فكان يخطو خطوتين ويقف هنيهة ثم يخطو وهي تمشي في اثره لتشيعه الى باب الغرفة . فلما وصل الباب وقف والتفت اليها فرآها مطرقة اطراق التفكير فتبادر الى ذهنه انها عدلت عن الكتمان فتحول نحوها وقال « الا تغيرين رايك فتطلعيني على الحقيقة ؟ »

قالت « قلت اولاي ما يمكنني ان اقوله وانا اعلم ان حياتي وموتي بين شفتيه ولكن »

قال ولم ينتظر تمام كلامها « اسألك سؤالاً واحداً اجيبيني عليه بالصدق ؟ »

قالت « اسأل يا سيدي فاني لا اقول غير الصدق »

قال « اتحبين ابني عبد الله ؟ »

قالت « نعم احبه » ولم يتلجلج لسانها ولا تغير وجهها

فبغت لهذه الجسارة ونظر في وجهها واجال نظره فيها وهي لا تبالي فقال لها « تقولين ذلك بكل جسارة ؟ »

قالت « الم تشترط عليّ الصدق ؟ اني احب الامير عبد الله .. كيف لا احبه وهو ابن سيدي امير المؤمنين ؟ »

فراى في هذا التعبير ما يخفف الغضب وندم على رجوعه للسؤال فسكت ومشى الى غرفته وعادت هي الى غرفتها واستلقت على سريرها وتنهدت كأنها اطلقت نفساً كان محبوساً في صدرها ويكاد يخنقها . فاتاها جوهر واخذ يماجنها التماساً لتسليتها فاشارت اليه ان يتركها وحدها

الفصل الخمسون

الهواجس

ثم امرت احدى وصائفها ان تهيئ لها الفراش وجاءت وصيفة أخرى لتساعدها في تبديل ثيابها وهي مستغرقة في الافكار. فلما فرغت من تبديل الثياب امرت باطفاء الانوار الا ضوءاً ضعيفاً. وارخت الكلة (الناموسية) على سريرها واستلقت تلتمس الرقاد فلا تجده

وما غمضت عيناها حتى تراكمت عليها الهواجس واخذت تفكر في حالها وما يظهر من سعادتها التي يحسدها عليها الناس وما يعتور تلك السعادة من اسباب الشقاء. فعادت بذاكرتها الى صباها منذ حملها النخاسون من جبال الصقالبة وهي طفلة ومعها اخوها. ولما تذكرت اخاها تنهدت وقلبت على جنبها الايمن تريد ان تنسى تلك الذكرى فلم تزدها هذه الرغبة الا تذكراً. فتصورت كيف حملت مع اخيها الى ايطاليا وعليهما اطمار بالية لا تقيها البرد — ولكن جمالها كان يستلفت الانظار فوقعت الى احد تجار الرقيق من اليهود وكان عارفاً بمخارج التجارة فعلم ان مثل هذه الجارية لا يدفع ثمنها الا المسلمون في صقلية. وكانت جزيرة صقلية يومئذ في حوزة المسلمين تحت سيطرة دولة العبيديين في المغرب. وكان امراؤها يتقربون الى خلفاء تلك الدولة بامثال هذه الهدايا. فاراد ان يبتاع الزهراء ليرسلها هدية فابت وتوسلت الى التاجر ان لا يبيعها الا مع اخيها لانها كانت شديدة التعلق به ولم يكن لها تعزية في ذلك الاسر والفقر الا ان اخاها معها. فاطاعها التاجر واشترط على امير صقلية ان يشتري الاثنين معاً فرضي وابتاعهما لان جمال الزهراء بهره واعجبه ما آنسه من لطفها وذكائها. وحدثته نفسه ان يستبقيها له لكنه كان في حاجة الى مهمة من الخليفة العبيدي صاحب افريقيا وهو يومئذ المهدي فاقرّ على ان يرسلها اليه ويستبقي اخاها عنده يربيه في داره ويدربه على الجندية على جاري عادتهم في استخدام المماليك. فابت الزهراء عليه ذلك وتقدمت اليه ان يرسل اخاها معها فيكون حيث تكون فلم يطاوعه قلبه على رد طلبها بعد ما آنسه من لهفتها على اخيها

كانت الزهراء وهي ناشئة على جنبها تتذكر صبوتها على تلك الجزيرة وكيف استغربت ما شاهدته هناك من ظواهر المدنية مما لم تكن وقعت عيناها على شيء مثله

من قبل لانها نشأت بين الجبال والاودية ترعى الماشية أو تذهب للاحتطاب . ومع ذلك فقد كانت سعيدة هناك لانها لم تكن تعرف ما وراء تلك السذاجة البدوية من تنعم المدن . واسعد الاوقات عندها عند ما ترجع في المساء مع اخيها وهما يتساندان في نقل حمل من القش أو العيدان او يسوقان بعض الماعز وابواهما ينتظرانهما في كوخ حقير فيشعلون تلك العيدان ويحومون حولها للاستدفاء . وكان يلذ لها تذكر ذلك الدفء مع الدخان المتصاعد حتى يكاد يعمي الابصار اكثر مما يلذ لها الغرق في ذلك الفراش اللين مع ما يغشاه من الكلل المطرزة والستائر الموشاة وما تضوّع في سماء تلك الغرفة من الاطياب

فلما تذكرت ذلك تنهدت وقد ضاق صدرها فدفعت الغطاء عنها وقلبت الى الجانب الآخر واخذت تناجي نفسها « ويلاه ما هذه الهواجس . . آه ما اجمل تلك الجبال الجرداء وما اشهى رائحة دخان العيدان وانا بقرب اخي وحبيبي . . » ولما ذكرت اخاها جلست على الفراش فجأة والتفتت الى ماحولها على ذلك النور الضعيف فرأت الوصيفة التي تنام عند قدميها لاتزال جالسة كأنها شعرت ان الزهراء لم تنم بعد . فظلت جالسة لعلها تحتاج اليها في شيء

أما الزهراء فلما رأتها اجفلت لانها كانت تود ان تكون وحدها لعلها تطلق لاشجانها العنان

الفصل الحادي والخمسون

حديث عن الصبا

وكانت تلك الوصيفة اخص وصائفها بها وقد فتحت لها قلبها واتخذتها أماً واطلعتها على بعض سرها . ولم تكد الزهراء تجلس على الفراش حتى نهضت الوصيفة واقفة تتوقع امرها بما تريده فنادتها الزهراء قائلة « الا تزالين جالسة ياخالة ؟ »

فقالت « كيف انام يا سيدتي وانا اراك تتقلبين على فراشك .. هل تحتاجين الى خدمتي . . ؟ »

قالت « كلا » وفي غنة صوتها دليل على شيء تكتمه

فقالت « يظهر لي انك تحتاجين الى شيء »

فتنهدت الزهراء وقالت « نعم . . ولكن . . »

فتقدمت الوصيفة حتى وقفت بجانب السرير وقالت « هل ارفع هذه الكلة (الناموسية) »

قالت « افعلي . . اني اراني لا استطيع الرقاد »

قالت « يظهر ان حديثك مع امير المؤمنين اقلقك . . لا بأس عليك . . لا يابث ان يرضى صاغراً » قالت ذلك بصوت منخفض كأنها تحاذر ان يسمعها احد

فقالت الزهراء « اعلم ذلك جيداً . . ولكن رضاءه لا يخفف شيئاً من قلقي . . »

قالت « ما الذي يقلقك وانت سيدة هذه القصور وساكنيها ربة الجمال والذكاء لا يردُّ لك امر — حتى امير المؤمنين صاحب السيادتين يتمنى رضاك »

فتنهدت وتشاغلت بجمع شعرها عن وجهها وارساله الى الوراء ثم قالت « اتظنين السعادة ياخالة في ما ترينه من الرياش والاثاث او بما يحدق بي من الخدم ؟ اني تعسة . . اني شقية . . » وغصت بريقها

قالت « ماذا حدث يا سيدتي ؟ »

قالت « لم يحدث شيء ولكن هذا النور الضعيف اذكرني اشياء كنت احاول نسيانها . . »

قالت « هل انير الشموع ؟ »

قالت « لا . . »

قالت « ما ذا افعل . . ماذا تريدين ان افعل لراحتك ؟ »

قالت « ان الذي يريحني لا تقدرين عليه »

فاطرقت الوصيفة هنيهة وكأنها تذكرت سبب ذلك القلق وقالت « اظنك عدت الى الحديث القديم . . ان ذلك التذكار ياسيدتي لا فائدة منه . ان اخاك لا سبيل اليه وقد آن لك ان تنسيه »

فمدت الزهراء يدها الى فم الوصيفة كأنها تحاول ان تسكتها وقالت « لا تقولي ذلك . . كيف انساه ؟ وانا لا ازداد الا تذكراً . . . اني اتذكر صباح يوم حملت من صقلية مع اخي كما اخبرتك مرة . . اتذكر الآن وجهه الصبوح وقد اخذ بيدي ووقف الى جانبي على ظهر السفينة وهي تقلع من مياه صقلية . . ياليتنا بقينا في تلك الجزيرة ولم ننتقل منها . . ياليتنا غرقنا معاً في تلك المياه . . »

قالت « ولكن انتقالك كان سبباً في وصولك الى هذه النعمة التي يحسدك عليها

اقرانك بل يحسدك عليها نساء العالمين »

قالت « هذا صحيح ولكن ينقصني وجود اخي ليتمتع بهذه السعادة معي . . آه من ينبئني عن مكانه . . هل هو حيٌّ أم ذهب طعاماً للاسماك ؟ » ومسحت عينيها بطرف كمها

قالت « لا يعلم ذلك الا الله . . . ولو كان حياً لعلم بمقامك وجاء اليك »

قالت « كيف يعلم وهو لا يعرف اسمي هذا . . هو لا يعرف اسمي الزهراء وانما يعلم اني اسمى « حسناء » فلو كنت معروفة بهذا الاسم لبلغ اليه خبري . . »

فقالت « صحيح . . . واين افترقتما يا سيدتي ؟ هل تخبريني لعلي استطيع امراً ينفعك . . . هل تكاشفيني ؟ »

فقالت الزهراء « فارقته في عرض البحر اختطفني القرصان ونحن على تلك السفينة ولا اعلم ماذا فعلوا باخي . . »

قالت « الم تسألي عنه »

قالت « من اسأل ؟ وقد نقلت من اناس لا اعرفهم الى اناس لا اعرفهم وكلهم لصوص . . اختطفني اللصوص من بين ذراعي والديَّ وباعوني الى تجار من صقلية مكثت عندهم مدة عاموني فيها اللسان العربي ثم باعوني لامير صقلية . وهذا امر رجاله فحملوني على سفينة قالوا انهم ذاهبون بي الى ملك عظيم في افريقية . فرضيت لان اخي كان معي فلم تجرِ السفينة بنا الا بضعة ايام حتى سطا علينا لصوص البحر في ليلة ليلاء وهم كثيرون في هذا البحر يسطون على السفن ينهبون ما بها ويسمونهم القرصان . . وقد كان في امكاني ان ابقى هناك ولكن . . »

فتعجبت الوصيفة من قولها وقالت « ولماذا لم تبقي ؟ »

الفصل الثاني والخمسون

سبب الفراق

فغصت بريقها وسكتت وهي تتلاهى بمسح دمعتين انحدرتا على خديها وقالت « لم ابق لاني كنت اطاب النجاة من رجل هناك يزعم انه رئيس تلك السفينة وما برح منذ اقلعنا من صقلية وهو يتقرب اليَّ وانا اشعر بنفور منه لا ادري سببه وهو يدنو مني ويعدني ويمنيني ويظهر انعطافه نحو اخي ويلاطفه فاظهرت لاخي نفوري من ذلك

الرجل وتواعدنا اننا اذا وصلنا الى بر افريقية شكوناه الى ملكه . وكانه ادرك غرضنا فجعل يضيق علينا . فلما جاءنا القرصان خطر لي من شدة كرهي لذلك الرئيس ان انتقالنا الى سفينة القرصان ينجينا منه ـ ونحن في كل حال غنيمة للقوي فلم ندافع كثيراً ولم تكن نجاتنا في ايدينا . فما شعرت الا وانا على سفينة القرصان وقد اقلعت بنا وكنت احسبهم خطفوا اخي معي فلم اجده فبكيت وصرخت وما من سميع فأخذت اشعر بالتعاسة من ذلك الحين . وحملني القرصان الى شاطيء الاندلس فباعوني الى لصوص آخرين حتى وقعت الى رجل حملني الى قرطبة فلما رآني ياسر رئيس الخصيان اشتراني لسيده امير المؤمنين . فشغلت في بادىء الرأي بمصائبي ثم بالانتقال الى هذه النعمة وما لبثت ان عدت الى امر اخي ويكاد الندم يأكلني لاني احسبني كنت سبباً في هذا الفراق . . »

ولما بلغت الى هنا لم تتمالك عن البكاء وهي لا تجسر ان تجهر به لئلا يظن من يسمعها انها تبكي خوفاً من غضب الخليفة

وكانت الوصيفة تسمع كلامها وتعجب لشدة تعلقها باخيها لانها لو كانت هي في مكانها وصارت بهذه المنزلة من الجاه والنعم لم تعد تذكر احداً من اهلها ـ ولكن الناس يتفاوتون باحساسهم وشعائرهم ففيهم المحب الذي اذا احب تعشق وارتسم حبيبه في كل جارحة من جوارحه ولا يجد له عنه صبراً ولا تغيره طوارق الحدثان ومن الناس من يخلق مطبوعاً على الالفة اذا تعود شيئاً شق عليه فراقه ولو كان مكروهاً والى ذلك اشار المتنبي بقوله عن نفسه

خلقت الوفاً لو رجعت الى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

ويغلب في من يحب كثيراً ان يكره كثيراً فيكون حبه كلفاً وبغضه تلفاً

وفيهم من لا يعرف من الحب الا اسمه وانما يكون الحب في نظره قضاء مصلحة او طمعاً في غرض فاذا تجرد عن ذلك لم يبق له اثر

وكانت الزهراء قوية عاطفة الحب مع تعقل وصدق مودة وقوية عاطفة البغض . وكانت قد تعشقت اخاها كما رايت وتجد الحياة مرة بدونه وهما في اشق الاحوال وقد ابغضت رئيس تلك السفينة حتى لم تعد تستطيع ان تتصوره فلما صارت الى تلك النعمة صارت تحب ان يكون اخوها معها ليشاطرها مسراتها وهي مع ذلك لا تعرف مصيره . . حيٌّ هو أم ميت ؟ لا تعلم

اما الوصيفة فلما رأت يأس الزهراء أرادت ان تشغلها عن ذلك الحديث بسواه ولم يكن يشغلها شيء عنه فقالت « احمدي الله انك نجوت من شخص تكرهينه .. و ..»

فابتدرتها قائلة « نعم نجوت .. وليتني نجوت .. » وكفت عن الكلام كانها ندمت على ما فرط منها فساعدتها الوصيفة على تغيير الموضوع فقالت « ان تفكيرك يا سيدتي باخيك لا فائدة منه وقلبي يحدثني انك ستلتقين به . . . الم تسألي المنجمين عنه ؟ »

فقطعت الزهراء كلامها قائلة « اني لا اصدق المنجمين ولا اثق اذا سألتهم ان لا يبلغوا الخبر الى الناصر . ولا اريد ان يعرف اني مشتغلة عنه باحد لانه لم يشتغل عني بسواي .. »

فقالت « احسنت » واقتربت من اذنها وقالت همساً « ولكنني علمت ان الرجل الذي امره مولانا الناصر ان يعلمك الغناء بارع في التنجيم لا مثيل له فيه »

قالت « تعنين سعيداً الوراق ؟ هل يعرف التنجيم ؟ »

قالت « انا على ثقة من ذلك وعلمت ان مولانا يعول عليه سرًّا في استطلاع الغيب وله فيه ثقة كبرى فاذا جاء لتعليمك الغناء اسأليه لعله يفيدك ولاخسارة من ذلك »

قالت « ولكن سؤاله في هذا الشأن يقتضي ... لا بأس سأرى » واحست من تلك الساعة براحة اذهبت قلقها فاظهرت انها تميل الى الرقاد فساعدتها الوصيفة بارسال الكلة ونامت وهي تعمل فكرتها في ما تفعله

اما سعيد فذهب تلك الليلة الى غرفته ينتظر ان يأتيه جوهر بما دار بين الناصر والزهراء ولم يفت جوهر شيء مما دار بينهما فجاء سعيداً وقص عليه ما سمعه . فبات تلك الليلة وهو يتوقع ان يبعث الخليفة بطلبه في الغد

الفصل الثالث والخمسون

التنجيم

وفي الصباح جاء ياسر يدعوه الى الناصر فنهض ومعه كتاب التنجيم وياسر يحرضه على الايقاع بالزهراء . فمضى حتى دخل على الخليفة وهو لا يزال في فراشه فدعاه الى الجلوس فجلس وهو يتجاهل فقال له الناصر « هل علمتَ جاريتنا الزهراء شيئاً ؟ »

قال « كلا يا مولاي لاني لم اجدها في غرفتها بالامس »

فقال « الم يدلك تنجيمك على سبب غيابها ؟ »

قال « لم ابحث عن سبب ذلك ولو امرتني لفعلت »

قال « افعل »

فاستخرج الكتاب واخذ يقلب فيه ويتأمل بعض أسطره كانه يحسب ويستخرج والناصر ينتظر ما يقوله فلما ابطأ في الكلام قال له « ماذا وجدت ؟ »

قال « يأمر مولاي بمبخرة »

فصفق وامر له بما اراد فجيء اليه بمبخرة من ذهب فيها جمرة فاستخرج من جيبه قطعة من البخور ووضعها في المبخرة وجعل يتفرس في الدخان المتصاعد عنها ثم ترك الكتاب وجعل يده على حاجبه كانه يستظل بها من الشمس وهو ينظر الى الدخان ويقول « ماذا ارى ؟ اليس هذا الامير عبد الله ؟ »

فلما سمع الناصر قوله تيقن اقتداره على استطلاع الغيب وظل ساكتاً ليرى ما يبدو منه فانزل سعيد يده واعاد التفرس في الدخان وهو يتصاعد في المبخرة الى السقف وقال « بلى هذا هو الامير عبد الله بن امير المؤمنين في الحديقة والزهراء الى جانبه .. هذا يا سيدي ما اراه - ولا ادري اذا كان البخور يخدعني »

قال « وهل خدعك من قبل ؟ »

قال « كلا وانما استبعدت ذلك لاني تركت الامير عبد الله في قصره ولم اسمع انه جاء هذا القصر »

قال « ينبغي لك ان تعرف كيف جاء »

فعاد الى المبخرة ووضع عليها قطعة اخرى من البخور ونظر الى دخانها وقال « هو هو بعينه وعليه لباس النساء والزهراء الى جانبه تحادثه »

قال « ماذا كان حديثها »

قال « لم اسمع شيئاً .. »

قال « احب ان اعرف الحديث الذي دار بينهما »

قال سعيد « وهذا ما احب ان اعرفه انا ولكني لا اسمع شيئاً الآن »

قال « هل ترجو ان تسمع شيئاً في فرصة أخرى »

قال « نعم يا سيدي »

قال « يكفي الآن فاكتم ما رأيت ومتى تمكنت من سماع الحديث اخبرني ... وما الذي يساعدك على سماعه ؟ »

قال « يساعدني ان اسمع صوتها تتكلم »

قال « فانت اليوم مأمور بتعليمها الغناء وسأبعث اليها انك آت لهذه الغاية

في العصر »

فاشار برأسه اشارة الطاعة وقال « الامر لمولاي ولكن الافضل ان لا يكون ذلك في غرفتها لكثرة من فيها من الخدم والوصائف . . . او يأمر مولاي ان تكون هناك منفردة او معها وصيف او وصيفة فقط »

قال « حسناً واظنها تفضل ذلك ايضاً . فمتى ذهبت اليها تجدها في غرفتها منفردة »

قال « هل اذهب اليها في اصيل هذا اليوم ؟ »

قال « افعل » وتزحزح الخليفة من مكانه فنهض سعيد واستأذن وخرج

وفي العصر اصلح شأنه واصطحب ياسراً الى غرفة الزهراء فاوصله الى باب الغرفة ودخل فاخبرها بمجيئه وانصرف . فدخل سعيد من باب الغرفة فوجد في وسطها ستراً منصوباً خرج اليه من ورائه جوهر واظهر انه لم يره الا في تلك الساعة وقال له « انت معلم الغناء ؟ »

قال « نعم »

قال « ان مولاتي في انتظارك وراء هذا الستر بامر الخليفة تفضل واجلس » وثنى وسادة وقدمها له فجلس ثم ذهب فأتاه بعود وقال « هذا عود لندها به على ما تريد ان تفعله »

الفصل الرابع والخمسون

التعليم

فتناول سعيد العود ووزنه على لحن ودفعه الى جوهر وقال « ادفعه اليها »

فدخل به وسلمه اليها فقال سعيد « اضربي عليه لحن كذا »

فأخذت تضرب وهو يشير عليها ان تصلح هذا الوتر وتشده او ترخيه وتغير هذه النقرة او تلك وهي تفعل وافكارها تائهة لانها ما زالت مشغولة الخاطر في امر أخيها والتنجيم

ولم يكن هو اقل اشتغالاً بها وود لو انها تزيح ذلك الستر ليراها وندم لانه لم يشترط على الناصر مجالستها ورؤيتها لكنه اومأ الى جوهر ان يحتال في ابرازها . فاخذ جوهر يظهر الضجر من ثقل الدرس بينهما وقال « ان التعليم على هذه

الصورة لا يفيد يا قوم »

وكان لقوله وقع استحسان عند كليهما فقال سعيد « لو استأذنت امير المؤمنين في ان نتقابل لم يمنعنا . . واذا امرت الزهراء بذلك الآن كان الامر لها »

فقال جوهر « لا اظن سيدتي تمانع في ذلك ونحن في هذا الجناح من القصر وحدنا ليس من يسمع أو يرى » ودخل اليها يخاطبها همساً ثم عاد وقال « ان سيدتي تأمر برفع الستر على شرط »

قال « وما هو ؟ »

قال « بلغها انك عالم بالتنجيم ... »

فقطع سعيد كلامه قائلاً « ومن ابلغها ذلك ؟ »

قال « علمت والسلام . . وانا اعلم ايضاً . فالشرط ياسيدي ان تستطلع امراً شغل بالها منذ عدة اعوام . فاذا فعلت واصبت كشفت الستر وقابلتها . فهل تقبل بهذا الشرط » قال ذلك وهو يتلوى ويتماجن

فقال سعيد « اما وقد امرت فلها عليَّ ذلك » ثم وجه خطابه اليها فقال « ما الذي يريدين كشفه يا سيدتي ؟ »

قالت وصوتها يتلجلج « لا اقول ما هو ولكنني اقول اني فقدت شخصاً منذ اعوام كثيرة ولا اعلم ما صار اليه امره فاذا كنت تعرف التنجيم حقيقة قل لي من هو واين هو ؟ »

فاستخرج سعيد كتابه واخذ يقلب فيه وقد استولى السكوت على المكان لايسمع فيه الا حفيف صفحات الكتاب ثم قال « انك تبحثين عن اخ شقيق »

فلما سمعت الزهراء قوله لم تتمالك ان صاحت « نعم اخي شقيقي لله درك . . هل هو حي ؟ اخبرني حالاً »

فاعاد التقليب وقال « نعم انه حي ؟ »

فاستغربت حكمه السريع وشكت في صدقه وقالت « اتعرف اسمه ؟ »

قال « اي اسميه تريدين ؟ »

قالت « وهل له اسمان »

قال « نعم له اسم تعرفينه واسم جديد لا تعرفينه »

قالت « ما هو اسمه الذي اعرفه ؟ »

قال « سالم »

فصاحت « نعم سالم .. سالم .. قل لي هل هو حي ؟ قل رعاك الله »

قال « نعم انه حيٌّ ولكنه ... »

قالت « ولكن ماذا ؟ »

قال « ولكنه تحت خطر القتل »

فلما رأته صدق في معرفة الاسم وانه شقيقها اعتقدت قوله عن الخطر المحدق به وأخذت ترتعد وقالت « واي خطر واين قل لي . . . فان امير المؤمنين ينقذه منه اكراماً لي »

قال « يا حبذا ذلك . . ولكن الخطر عليه من امير المؤمنين نفسه »

الفصل الخامس والخمسون

كشف الحجاب

فلم تعد الزهراء تستطيع استبقاء الحجاب بينها وبين سعيد فنهضت واطلت من وراء الستر وقد ارخت على راسها خماراً مزركشاً وعيناها تلمعان من الدهشة فنهض سعيد عند رؤيتها كانه وقف احتراماً لها فقالت « الخطر عليه من امير المؤمنين ؟ » قالت ذلك وحالما وقع نظرها على سعيد تراجعت وحولت بصرها عنهُ لحظة ثم اعادت النظر اليه وتفرست في وجهه كانها تعرفه او تعرف رجلاً يشبهه ولكنها احست بقشعريرة

اما هو فنظر اليها بهدوء وقال بصوت خافت « لا تضطربي يا حسناء انا اخاك سالماً لا بأس عليه ولو كان الخليفة خصمه »

فلما سمعته يناديها باسمها القديم اجفلت وزادت رعدتها ولم تعد تقوى على الوقوف وقالت « لست منجماً ولكنك نبيٌّ »

فضحك وحول وجهه عنها ليهدأ روعها وقال « لست نبياً ولا منجماً »

فغطت وجهها بكفيها وقالت « ماذا ارى ... ويلاه ... هل انا في يقظة اوفي منام؟ »

قال « بل انت في يقظة يا حسناء »

فرفعت كفيها عن عينيها ثم اعادتهما وتحولت مسرعة الى وراء الحجاب وهي تقول « نعم في يقظة . ياليتني كنت في منام »

وكان جوهر واقفاً يسمع ما دار بينهما وقد اخذته الدهشة فلما رأى الزهراء

عادت الى وراء الستر تبعها وقال لها « ما بالك يا سيدتي ؟.. اساليه اين أخوك الآن . . اتمي الحديث »

فدفعته بيدها فاظهر انه استلقى على ظهره من عظم الدفعة واخذ يتماجن فقال « الحق علي لاني خالفت امر مولاي واذنت بخروجك الى المعلم »

اما سعيد فانه ظل واقفاً لا يتكلم ثم تقدم وازاح الستر بيده فرأى الزهراء قاعدة وقد جعلت رأسها بين كفيها واطرقت كانها أصيبت بالجمود فقال لها « ما بالك يا سيدتي هل عدلت عن الاستفهام ؟ هل اذهب ؟ »

فادارت ظهرها له وانزوت وراء الستر وقالت « نعم اذهب ... اذهب .. لا .. لا تذهب »

فقال « اذهب ؟ ام لا أذهب ؟. اذهب لاني قلت لك الحق ؟ اني ذاهب » وارخى الستر من يده وتحول فوثب جوهر اليه وامسك بردائه وقال « تعال .. الى اين انت ذاهب »

فاشار سعيد الى جوهر ان يخرج من الغرفة ويتركهما فخرج

فلما بقي سعيد وحده وقف والستر لا يزال مسدلاً بينه وبين الزهراء وقال لها «والآن ياحسناء ماذا تريدين ؟ نحن الآن في خلوة .. اخرجي الي وانظري في وجهي»

فلم تجبه فرفع الستر ودخل فرآها واقفة وهي مطرقة تنظر في الارض وقد امتقع لونها وتبدلت سحنتها وتوالتها الرعدة فقال لها « انظري الي »

فرفعت يدها كانها تتقي بصره بكفها وقالت «دعني لا أقدر انظر اليك .. قل لي من انت ؟ »

قال « قولي انت من انا ؟ كما قلت لك من انتِ »

فقالت « قل من انت ... »

قال « انا سعيد الوراق يعني امير المؤمنين لاعلمك غناء اهل العراق »

فرفعت بصرها اليه وتفرست فيه وهي تتجلد وقالت « كلا بل انت لصٌّ غادر »

فضحك وقال « لست لصاً ولكن اللص من يخون ولي نعمته ويختلي بالغرباء يأتي بهم الى قصر الخليفة بأثواب النساء »

فصاحت « ويلك .. انك شيطان بل انت عفريت من العفاريت »

فقال بصوت هادىء « انا من انا .. فالافضل لك ان ترجعي الى رشدك وتتكلمي عليَّ اذ ليس لك من يفرج كربك سواي »

فتماسكت ووقفت وهي تفرك عينيها ولا تصدق انها في يقظة وصاحت به وقالت « قل لي . قل من انت حالاً »

قال « اقول .. ام تكتفين بما قلته ؟ »

قالت « قل .. قل سريعاً » وعيناها تبرقان من الدهشة وشفتاها ترتجفان من الغضب وقد شخصت فيه

فقال « انا سليمان »

فلما سمعت اسمه صرخت ووقعت مغشياً عليها فبادر الى رشها بعطر كان معه حتى افاقت وحالما فتحت عينيها ورأته تراجعت وغطت وجهها بيديها وقالت «انت سليمان!. انك اصل بلائي .. سوف اريك عاقبة عملك .. الا تزال تتعقبني وكنت السبب في ضياع اخي .. » قالت ذلك ونهضت وهمت بالخروج كأنها تريد ان تستعين عليه باحد فامسك بيدها واوقفها وقال « تمهلي ولا تلقي بيديك الى التهلكة .. اعلمي ان حياتك وحياة اخيك في يدي »

الفصل السادس والخمسون

الدهشة

فوقفت وهي تنظر اليه وتتفرس في سحنته وهو يرنو اليها بلطف وسكينة ثم قال « لا تغضبي يا حسناء . . ولا تسقمي عليَّ فاني ارتكبت العظائم في سبيل حبك . اني احبك .. » قال ذلك بلحن المحب الولهان

فلم يزدها ذلك الا غضباً وقالت « انا لا احبك .. يكفي ما جررته عليَّ من البلاء »

قال « لم اجرر عليك بلاء . ولا ذنب لي عندك سوى اني احبك وقد عرفتك قبل ان عرفك صاحب هذا القصر »

قالت « وتتجاسر على جارية امير المؤمنين .. الا تعلم انك اذا اطلع الناصر على حقيقة امرك امانك حالاً ؟ »

قال « لا تجعلي للطيش سبيلاً الى عقلك ... تذكري اخاك وان حياته في يدي اذا شئتُ قتلته في هذه الساعة »

قالت « كذبت . . قد عرفت الآن انك تحتال عليَّ وتحماني على خيانة مولاي

ومولاك الناصر .. فلا تطمع بنيل مرامك — انك مائت لا محالة دعني والا صرخت صرخة جمعت عليك اهل القصر فيسوقونك الى حتفك »

فترك يدها وقال « يظهر انك لم تصدقي قولي ان اخاك حيٌّ وانه تحت خطر القتل ولا ينقذه من الموت شيء غير استرضائي . . لا تتهوري . . . اذا كنت تعتقدين كذبي وانك قادرة على اذيتي فهذا لايفوتك في اي وقت اردته فلا تتعجلي فتعود العائدة عليك . . ان لامير المؤمنين ثقة فيَّ وفي تنجيمي لاتتزعزع »

فقطعت كلامه قائلة « انا اخبره انك خائن واطلعه على حقيقة امرك »

فقال « هل تظنينه يصدقك ؟ »

قالت « نعم يصدقني »

قال « لا .. ومع ذلك فان الخطر يبقى على اخيك لان الناصر حالما يعلم به يبعث فيطلب راسه .. فالاحسن ان تتبصري »

فاقشعر بدنها وخافت على اخيها وتجلدت وكظمت وقالت « ها اني متبصرة قل ما هو خبر اخي »

فتقدم نحوها ونظر الى عينيها نظر الاسترضاء وقال « اني اشكو اليك غرامي بك واستهلاكي في خدمتك وانت تشمئزين وتهددينني . انظري الى الفرق بيننا ! . أما اخوك فقد سألتني عن اسمه وقلت لك ان له اسمين ذكرت لك احدهما ولم تسأليني عن الآخر »

قالت « وما هو الآخر ؟ »

قال « اسمه الآخر صاحب النقمة »

وكانت تعلم ان ذلك اسم رجل من اشد اعداء الناصر واكثرهم سعياً في خلعه . وقد قام لتحريض العرب والبربر على مناوأته واخراج الدولة من يده . وقد بذل الناصر الاموال وبث الجواسيس في البحث عنه فلم يظفر به .. ولا شك عندها ان الناصر حالما يسمع به يأمر بقتله ولو عرف انه اخوها . وقد يغضب عليها من اجله — لكنها مع ذلك ما زالت تظن سعيداً يكذب تخويفاً لها . فلما ذكر اسم اخيها هذا اظهرت الاستخفاف وقالت « لايمكن ان يكون هذا الرجل اخي انك تخدعني ترويجاً لغرضك .. دع عنك هذا وارجع .. وانا اعدك اذا رجعت عن غيك وافدتني عن حقيقة حال اخي (وتنهدت) اني اعفو عنك واكتم امرك »

قال « يا سيدتي .. او يا حبيبتي .. اني لا اكذب .. ان صاحب النقمة هو اخوك

سالم نفسه واذا شئت اتيتك بالدليل المحسوس »

قالت « وما دليلك ؟ »

قال « دليلي قريب .. الا تعرفين خط اخيك ؟ »

قالت « اعرفه »

فمدّ يده الى جيبه واستخرج رقاً ملفوفاً في منديل . تناولهُ وفتحه وقال « اقرئي »

فقرأت سطراً مكتوباً بالدم هذا نصه :

انا سالم صاحب النقمة اعاهد نصراء الحق اني ابذل حياتي في سبيل قتل عبد الرحمن الذي يسمي نفسه الناصر ؟

كتبه سالم
صاحب النقمة

فاخذت تقرأه وتعيد قراءته وتتفرس في الخط فاذا هو خط اخيها نفسه فرفعت بصرها الى سعيد فحدق هو نظاره فيها عنوة فاحست بمجرى كهربائي تسرب في عروقها فاضعف عزيمتها فتولاها الخوف على نفسها وعلى اخيها فوقفت مبهوتة لا تبدي حراكاً ولف سعيد الرق في اثناء ذلك ووضعه في جيبه وهو يقول « مارأيك الآن ياحسناء ؟ »

فشعرت بخوار قواها ولم تعد تستطيع الوقوف فقعدت على البساط واطرقت وظلت ساكتة

فقال « هل رأيت اني ناصحك واني اتيت لانقاذك وانقاذ اخيك ؟ الا ترين اني قادران اقتله بكلمة واحدة ؟ .. ارجعي عن جفائك وقساوة قلبك وارحمي قلباً كاد يذوب شوقاً اليك .. ان سليمان الذي رايته على ظهر تلك السفينة يوم خروجك من صقلية رجل يحبك ويهواك ـ وما انا ربان السفينة ياحسناء ولا انا خادم فيها وستعلمين متى اخلصت الحب لي اني ادل لمحبتك .. قد ركبت الاخطار وتعرضت للموت من اجلك . وقد فعلت فعل المحب المتفاني في سبيل حبيبه . لو علمت ما الذي فعلته من اجلك لم ترفضي طلبي وسوف تعلمين .. ولا يغرنك ما ترينه من القصور والزخارف انها لا تلبث ان تذهب ولا يبقى غير الحب ... ها اني اعرض هذه النعمة عليك فلا ترفضيها »

الفصل السابع والخمسون

الرجوع الى الصواب

فوقعت في حيرة ولم تعد تعلم بماذا تجيب وترجح لديها ان اخاها في قبضة سعيد ولا نجاة له الا بمسايرته . ولكنها ما زالت تكرهه وتود قتله لكنها لا سبيل لها الى ذلك فعمدت الى الملاطفة فقالت « والآن ما العمل . . هل اخي قريب من هذه الديار ؟ »

قال « بل هو في هذه الديار في مخبأ لا يعرفه احد سواي »

قالت « وما السبيل اليه كيف العمل ؟ »

قال « سأخبرك عن السبيل في فرصة اخرى انما ارجو منك الآن ان تثقي بي . . ولا اظنك تفعلين . فان لم تفعلي فدمك ودم اخيك على رأسك . . اني نصحتك وفعلت كل ما تطلبين مني فما رأيك ؟ »

فاطرقت واعملت فكرتها في ما وقعت فيه فلم تجد لها سبيلاً غير الملاطفة ريثما تحتال في النجاة فعادت الى رشدها وتعقلها ورباطة جأشها لكنها احست بتغيير طرأ على احساسها بعد تلك النظرة التي اخترقت احشاءها وهزت اعصابها وقضت على ارادتها وخيل لها من تلك اللحظة انها طوع ارادته ولم تعد تملك رأيها فقالت « نصبر كما قلت . . واخشى ان تكون خدعتني »

قال « دعي عنك الشكوك »

فسكتت وهي تعمل فكرتها ثم قالت « وكيف التقي باخي هل تستدعيه الى هنا »

قال « كيف يقدر على دخول هذا القصر . . الافضل ان تذهبي انت اليه ومتى اجتمعت به تقنعينه بالرجوع عن الثورة ونحتال في استرضاء الخليفة عليه واظننا ننجح ثم نقيم هنا معاً وانت في منزلتك ولا يعلم احد بما جرى .. والآن لا ينبغي ان نفترق قبل ان نحسن التفاهم . . فهل انت واثقة بما اقول ؟ »

فطأطأت رأسها « ان نعم »

فقال « سنتفق على وقت نخرج فيه خلسة الى مقر اخيك ... لا اقدر ان اتصور فرحك به ساعة اللقاء . . وسيخبرك هو كيف انه مدين لي بحياته ولولاي لم يبقَ حياً »

فكان لهذا التعبير وقع حسن على قلبها فابتسمت وقالت « انت كنت السبب في

حفظ حياته ؟ شكراً لك »

قال « لا فضل لي في شيء من ذلك لاني فعلت ما يدفعني اليه شعوري فان حبك ياحسناء قد استولى على كل جارحة من جوارحي . الا افعل ما يرضيك وهل يكون لي فضل اذا فعلته ؟ والآن دعني اعلمك لحناً تغنينه للناصر اذا سألك عما تعلمته »

قالت « حسناً » ونادت جوهر فاتى وعاد الى خدمتها فعلمها سعيد لحناً ثم ودعها على موعد المجيء في الغد لتعليمها ومضى وقد مالت الشمس الى المغيب . وسار توًّا الى غرفته وكان الخليفة قد نزل الى قرطبة في ذلك النهار لاحوال سياسية اقتضت مقابلة بعض السفراء من ملوك النصارى المجاورين . وكان يفضل ان يقابلهم في قصر قرطبة

اما سعيد فمكث في غرفته فجيء اليه بالعشاء فتناوله ولم يخرج من تلك الغرفة لانه احب الخلوة ليعمل فكرته في تتميم الحيلة للفرار بالزهراء من تلك القصور

الفصل الثامن والخمسون

الواقع

ذهب سعيد الى فراشه وقد انهكه التعب لشدة ما اثرته تلك المحادثة في نفسه وهو ينتظر هذه المقابلة منذ اعوام عديدة وقد سعى فيها وبذل كل مرتخص وغال في سبيل الوصول اليها ـ وهو يعلم الخطر المحدق به ولكنه جن بحب الزهراء ولم يعد يحسب للحياة حساباً . ورغم ما رأيت من تعقله ودهائه فان حبه الزهراء غلب على عقله واخذ بمجامع قلبه — وليس للعقل سلطان على قلوب المحبين . فقد تجد الرجل العاقل يقيس الامور ويستخرج اسبابها ونتائجها وقد اوتي الحكمة وفصل الخطاب . فاذا تولى الحب على قلبه ارتكب من الهفوات ما ينزه عنه الجهلاء وهو يرى انه عاجز عن تجنبه . واذا تأمل في ما يأتيه من الخفة والطيش في سبيل ذلك الحب خجل من نفسه ولا يرى له مندوحة للخلاص من تلك الشراك

كان سعيد قد أحب الزهراء وافتتن بها منذ رآها في صقلية وكان قد جاء تلك الجزيرة بمهمة سياسية من قبل المهدي صاحب افريقية فغلبت على عقله واراد ان يستأثر بها لنفسه وركب السفينة معها على ان يحتال في اجتذاب قلبها ثم يرى السبيل للفرار بها اما هي فالما وقع نظرها عليه احست بنفور منه وصار كلما تقرب منها ابتعدت عنه .

وهي تزداد نفوراً حتى فضلت ان يأخذها اللصوص على ان تبقى بقرب ذلك الرجل

أما هو فاخذ اخاها معه ورباه على الغرض الذي اجمع عليه العبيديون في افريقية وهو كره آل مروان في الاندلس والسعي في الاستيلاء على مملكتهم . وكان سعيد من كبراء هذه الشيعة وله نفوذ كبير عند المهدي العبيدي ومن جاء بعده على عرش الخلافة الفاطمية في القيروان . وقد عهدوا اليه باغراضهم وكانوا قد بثوا هذه الروح في كثيرين من كبار القواد في الاندلس نفسها . ومنهم الجمعية التي كانت تجتمع في قرطبة سراً كما رايت

جاء سعيد الى قرطبة بمهمة سياسية من عدة اعوام . وكان قد علم بالبحث والتدقيق ان حسناء التي عرفها في صقلية صارت الى الناصر في قرطبة وسماها الزهراء — عرف ذلك بدهائه واهتمامه وكتمه عن اخيها وجعل همه الوصول اليها . واقام حولها الجواسيس وكاتبها باساليب مختلفة يستعطفها وهي تستخف به وترذله وهو يزداد شغفاً بها حتى اصبح يسعى في الوصول اليها ولو نكاية فيها واسترداداً لكرامته ودفعاً لاهانته . وكان يعلم تعلقها باخيها فاتاها بهذه الحيلة

قضى سعيد بضع ساعات في غرفته على الظلام وهو غارق في بحار الهواجس وقد فرّ النوم منه وتولاه الارق لعظم ماجاش في خاطره في ذلك اليوم

الفصل التاسع والخمسون

موعد آخر

وهو جالس على فراشه في العتمة وبصره متجه الى نور يظهر له من نافذة تطلّ على داخل القصر وقع نظره على شبح يتمشى هناك بخفة كأنه يحاذر ان يسمع احد وقع خطاه. فتفرسه فاذا هو ساهر وعليه لباس الوصفاء كما رآه المرة الماضية . فنهض واقتفى اثره فرآه يلتمس غرفة الزهراء . فما زال في اثره حتى رآه دخل الغرفة وقد وقفت الزهراء لاستقباله وهي لا تزال بثوبها الاعتيادي كانها كانت على موعد منه . فثارت الغيرة في قلب سعيد وجعل يغالب نفسه فلم يستطع صبراً على ما شاهده فمشى حتى دخل الغرفة ولم يشعر به احدٌ منهما . فرأى ساهراً جاثياً امام الزهراء وهو يقول لها بصوت المحب

المفتون « مريني ياسيدتي فانا رهين امرك وليس اشهى على قلبي من ان انفذ ارادتك ويكفيني شرفاً وسعادة ان تقع اوامرك في اذني »

فاجابته هي « انهض يا ساهر .. بارك الله فيك .. اني مسرورة من مروءتك وصدق مودتك .. قل لسيدك اني لولا حبي له لم اطلب مقابلته ولا بأس عليه من اهل هذا القصر .. فليأت على عجل .. » ولما وصلت الى هنا لمحت سعيداً داخلاً فبغتت وبانت البغتة في عينيها ولحظ ساهر تغيرها فالتفت فلما رأى سعيداً تنحى ثم انصرف

اما سعيد فظل ماشياً وهو يتجلد ويتماسك حتى صار بين يدي الزهراء وهي تنظر اليه والغضب ظاهر في عينيها فقالت له « ما الذي جاء بك ياسيدي ؟ »

قال وهو يتلطف في التعبير « جئت لأتمتع برؤيتك قبل الذهاب الى الفراش .. وقد تمتعت بما يذهب عني النوم » وتمخنح

فقالت بلحن الاستخفاف « ما كان اغناك عن هذا المجيء .. كانك تتلصص عليَّ وتراقب حركاتي ومن يدخل او يخرج من عندي ؟ . ان امير المؤمنين لم يفعل ذلك »

فقطع سعيد كلامها وقال « لان امير المؤمنين لا يحبك مثل حبي .. » قال ذلك وتنهد

فقالت وهي تبالغ في الاستخاف « صدقت ان الناصر لا يحبني ابداً .. ولكن انت وحدك تحبني .. ما كان اغناني عن هذه المحبة بل ما احوجني الى بغضك .. » قالت ذلك وحرقت اسنانها

فلما رأى جفاءها تقدم نحوها وهو يتكلف الاسترضاء وقال « سامحك الله يا حسناء كلما شكوت اليك غرامي وذلي زدتِ نفوراً وجفاء ؟ »

فلما دعاها باسمها الاصلي تذكرت اخاها فخافت عليه فعادت الى التجلد والملاطفة فقالت « لقد اسأت اليَّ بمجيئك على هذه الصورة حتى اغضبتني وحملتني على ما قلته . ونحن كما تعلم قد تواعدنا واتفقنا . . . »

قال « انما حملني على المجيء حبي لك وغيرتي عليك .. »

فمدت يدها نحوه كأنها تستوقفه وقالت « لا فائدة من الغيرة وانا في هذا القصر . وعما قليل اكون لك .. لا تسألني عن شيء »

فلما سمع قولها استخفه الفرح وصاح « تكونين لي ؟ قبلت بذلك وعفا الله عما مضى »

قال ذلك وهو ينظر في عينيها وقد نسي الغيرة والشك وتناول يدها كأنه يهمُّ

بتقبيلها فاجتذبتها منه ونظرت اليه نظر العتاب والتوبيخ وقالت « امضِ الآن ولا تجعل للناس سبيلاً الى الظنون »

فتحوّل وخرج وهو يحسب انه نال اهم اسباب السعادة بما سمعه من وعودها . فدخل غرفته واستلقى على فراشه فعادت اليه هواجسه فاخذ يفكر في حاله فاستغرب انقياده الاعمى لداعي قلبه ونسيانه المهمة الاصلية التي قام من اجلها وقد قامت معه افريقية كلها وعوّل خليفتها عليه ووضع ثقته فيه حتى لو كتب اليه ان يجرد جيشاً لفعل فكيف يشتغل عنه بحب جارية لا تحبه ؟ . فاحس بصغر نفسه وضعف ارادته كأنه عبد لعواطفه فاخذ يوبخ نفسه على ذلك الضعف ويهمُّ ان يرجع الى رشده ويعدل عن الغرام الى طلب العلى بمجد الحسام فلما تمثل له الزهراء ويتصوّر انها طوع ارادته تحل عزائمه ويذهب حماسه

الفصل الستون

طارق آخر

وهو في تلك الهواجس وقد اخذه الارق ولم يبقَ في ذلك المكان ساهر سواه واستولت السكينة على القصر ولم يعد يسمع فيه الا خرير الماء في برك الحديقة وفي البركة الداخلية في بيت المنام وسعيد يحمل نفسه على الرقاد ويحاول نسيان تلك الافكار عبثاً ـ وهو في ذلك الهدوء والظلام سائد سمع حركة في غرفته فجلس فرأى شبحاً داخلاً عليه عرف حالاً انه عابدة . وما زالت تمشي الهوينا حتى رأته جلس على فراشه فاسرعت اليه وجثت بين يديه وقالت « بالله يا سعيد . . الى متى تضحك مني ؟ »

فاظهر الاستغراب وقال « اضحك منك ! ما هذا الكلام ؟ »

قالت وصوتها مختنق « نعم تضحك مني وتهزأ بحبي . . »

قال « دعي عنك الاوهام . . »

قالت « يكفيني ما قاسيته من الصبر على وعودك . . قل لي اني لا احبك ودعني امضي لسبيلي . . . »

قال « كيف اقول لك ذلك وانت تعلمين اني احبك ولكننا لم نفرغ من مهمتنا بعد . . . وانت على بينة من كل شيء »

قالت « نعم انا على بينة من كل شيء . . . ولذلك لم اعد استطيع صبراً »

فادرك انها تشير الى اطلاعها على شيء يكتمه عنها فقال « ما ذا تعنين ؟ »

قالت « اعني انك شغلت عني ونسيت عابدة المسكينة ؟ » واجهشت بالبكاء

فاثر بكاؤها في قلبه واحس انه اساءها ولكنه ما لبث ان تصور الزهراء حتى نسي اساءته وجعل همه اتمام معدات الوصول اليها فقال « دعي عنك هذه الاوهام . من يشغلني عنك ؟ واذا رأيت مني تقرباً الى احد سواك فما ذلك الا سعياً في الوصول الى الغرض المطلوب الذي تعلمينه »

فتنهدت تنهداً عميقاً ورددت قوله « الغرض المطلوب ! ! آه من ذلك الغرض . . ما كان اغنانا عنه . . ولا اظننا نصل اليه مع ما يحدق بنا من العوائق »

فاظهر انه استاء مما القته من الشك في سبيل ذلك الغرض وقال « لا تضعفي املي بنيل المطلوب . . » وخفت صوته وقال « سيأتي يوم نكون فيه ملوك هذه الجزيرة وتكونين انت ملكة عظيمة الشأن »

قالت « دعني من ذلك دعني . . . ان السعادة ليست في السيادة ولا في الثروة . . . ان السعادة في الحب . . . » قالت ذلك وصوتها يتلجلج خجلاً وبلعت ريقها ثم قالت « لو كنت اعلم انك تحبني مثل حبي لك لكنت اسعد امرأة على وجه الارض . . آه من يقول لي الحق ؟ »

فقطع كلامها وقال « انا اقول لك . . صدقيني . . وسوف تحققين صدق قولي »

فوقع كلامه على قلبها برداً وسلاماً واحست انها في نعيم وقالت « صحيح ؟ صحيح انت تحبني ؟ »

فمد يده الى يدها وقبض على انامليها فاحست عابدة بمجرى كهربائي انتفضت له اعصابها وغلبت على امرها وقالت « صحيح انك تحبني . . فانا سعيدة . . . »

قال « بقي ان اسألك انا هل تحبينني ؟ »

ولم يتم سؤاله حتى تناثر الدمع من عينها وقالت والبكاء يخنقها « اتسألني اذا كنت احبك ؟ امثلي يسأل هذا السؤال . . لم يبقَ فيَّ جارحة لم تفتتن بك . . الا يكفيك من الادلة ما انا فيه ؟ ما الذي حملني على ارتكاب هذه الاخطار ؟ »

فقال « لم ترتكبي خطراً بعد . . ان وجودك في هذا القصر من اسباب السعادة يتمناه كل انسان . . ولكننا سنصل الى الخطر قريباً وعند ذلك يظهر الحب الصادق ولا شك عندي انك ستبرهنين على صدق محبتك لي وللامام العبيدي صاحب افريقية

الذي نحن في خدمة مصلحته »

قالت « آه يا سعيد كل شيء بسهل في سبيل حبك . . دعني اغتنم هذه الظلمة واصرح لك بما يكنه فؤادي من الشغف بك . لو كنا في النهار او كانت هذه الغرفة مضيئة لخجلت ولكن العتمة تستر . . اني احبك الى حد الجنون ولا اراك تحبني وتهتم لامري مع اني اتفانى في سبيل مرضاتك . . افعل ذلك من كل قلبي ويلذ لي العذاب اذا كان فيه سرورك . . . فهل عندك مثل الذي عندي ؟ او مثل نصفه او ربعه يا ترى ؟ »

فضغط على يدها ثانية وقال « كفى يا عابدة شكوكاً . . وقد دنا الوقت ولا نبرح ان نتفرغ لما نريده . لم يبق من المهمة التي جئنا من اجلها الا خطوة واحدة — وهي عليك »

قالت « مر بما تشاء »

قال « الا يزال ذلك الحق معك ؟ »

فضربت كفها على صدرها وقالت « هو هنا في اصون مكان »

فقال « الي به »

فدفعته اليه فاستخرج من جيبه ورقة قطعها نصفين وصب ما في ذلك الحق فيهما وهو مسحوق ابيض لامع ولف كل واحدة على حدة ودفعهما اليها وقال « احتفظي بهاتين الورقتين جيداً لوقت الحاجة »

قالت « وما فيهما . . هل من بأس علي اذا تناولت منهما شيئاً ؟ . . »

فابتدرها قائلاً « احذري ان تفعلي . . » وضحك يوهمها انه يمزح

فضحكت وقالت « لم اكن اجهل ذلك . . . ولكنني ارجو ان لا احتاج الى تناولهما . . . »

فتجاهل مرادها وقال « احتفظي بهما حتى آتيك غداً او بعد غد »

فاحست انها ينبغي ان تنصرف فوقفت وودعته وهي تتفرس في وجهه والظلام يحجب لوائح المكر والغدر عنه ولو لم يحجبها فان عابدة لم تكن ترى في سعيد غير الكمال لانه استهواها بمغنطيسيته

الفصل الحادي والستون

الهواجس

خرجت عابدة من عند سعيد وعادت اليه بلابله باشد مما كانت عليه فتصور كيف انه يخادع هذه الفتاة المخلصة ويغريها على المخاطرة بنفسها بمواعيد كاذبة ويراها شديدة الثقة به وهو ينوي خيانتها — فرجع الى تعقله فرأى انه يفعل افعالاً لا يرتكب مثلها المجانين انه سيرتكب جريمة القتل تحت اشد الاخطار. وعاد الى التفكير في مهمته السياسية الاصلية وكيف انه كاد يفوز بها لولم يله عنها بحب الزهراء . . ولما تذكرها خفق قلبه واعمل فكرته في امرها وقال « قد يكون سعيد من قلب الزهراء مثل عابدة من قلب سعيد . فانا اداجي عابدة واعدها فهل الزهراء تداجيني ؟ . . ولكن سعيداً غير عابدة . . ان من يرتكب ما ارتكبته ويعمل ما عملته لا يشق عليه ان ينتقم من تلك الجارية . . اني اريها العذاب الوانا . . لا . لا . لا افعل ذلك مع الزهراء انها حبيبتي ولكن لما ذا انا مستسلم لها — اتركها وشأنها والنساء كثيرات وهذه عابدة المسكينة تتمنى رضاي .. ان حبي الزهراء سبب بلائي وسيكون سبباً في ضياع امة برمتها . . ألم يضع الامام العبيدي ثقته فيَّ واهل افريقية ينتظرون نتيجة سعيي ؟ . » ولما فكر في ذلك هبَّ من فراشه كالمجنون ووضع كفيه على عينيه كانه يستحث قريحته لاعمال الفكرة في حقيقة حاله . . ووقف لحظة ثم عاد فقعد على الفراش وقد تمثلت له الزهراء في اشهى ما يتمناها فيه فقال « ان نظرة في حسناء تساوي العالم برمته وما لذة الانسان من المناصب والمراتب اذا لم يكن له حبيب يحبه — الزهراء تساوي كل شيء ولا بد من المخاطرة في نيل الاماني — وما فاز باللذات غير الجسور . اما عابدة فاني اشغلها بسواي وارضيها . . »

قضى بقية ذلك الليل في مثل هذه الهواجس ولم ينم الا قليلاً وافاق في الصباح على نقر الباب ففتح عينيه فرأى ياسراً داخلاً فجلس له وحياه ورحب به . فقال ياسر « اظنني اقلقتك من رقادك »

قال « كلا بل انا في شوق الى رؤيتك »

قال « وانا ايضاً . . وقد استبطأتك وكنت احسبك تبعث اليَّ باكراً لتقص عليَّ ما جرى بالامس »

فعلم انه يعني ما جرى بينه وبين الزهراء لان ياسراً يكرهها ويريد ان يوقعها في شر يحقرها في عيني الناصر انتقاماً منها لما يتوهمه من عقوقها ونكرانها الجميل وهو يعتقد انه كان السبب في ادخالها بلاط الناصر فلم تعرف له هذا الجميل . وظهر له من حديثه مع سعيد مرة انه يوافقه على ذلك وكان يظنه يستطيع باستنجيم معرفة سبب اجتماعها بعبدالله ويفشيه للناصر فيغضب عليها وربما طردها — وادرك سعيد كل ما كان يجول في خاطر ياسر فقال « ان امر هذه الجارية حيرني ولم استطع كشف سرها تماماً مع اني قضيت ليلي البارح ولم انم الا قليلاً افكر في امرها . ولما رأيتك داخلاً ظننتك اتيت لتدعوني الى امير المؤمنين لانه اكثر الناس تطلعاً الى ذلك »

قال « انه لم يعد من قرطبة »

قال « هل بات هناك ؟ ولماذا ؟ »

قال « لانه ذهب لمقابلة بعض وفود ملوك فرنسا وايطاليا وهو يفضل ان يستقبلهم في قصر قرطبة . فلما ابطأ في الرجوع بات هناك وقد اوصاني قبل ذهابه ان افتح عيني واراقب كل حركة »

فضحك سعيد وقال « يظهر انك لم تكن ساهراً »

ففهم مراده فقال « كنت ساهراً وقد رايت ساهراً دخل القصر بلباس بعض الوصفاء فسهلت له الدخول على امل ان تتورط هي فتقع وقعة لا قيام لها منها »

فاطرق سعيد وفكر في نتيجة وقوع الزهراء في الذنب فرأى ان الناصر يغضب عليها فيتوسط هو في الاصلاح فيكون له فضل عليها يساعده على قبولها به . ويحب من الجهة الاخرى اذا كان بينها وبين عبد الله تواد ان يكون قصاصها على يد الناصر . فقال سعيد « ومتى يعود الخليفة من قرطبة ؟ »

قال « لا ادري ولعله يعود في هذا المساء وقد يبيت هناك الليلة ايضاً ويأتي غداً وعلى كل حال اني انتظر رجوعه بفارغ الصبر »

فقال « ما تظن الناصر يفعل اذا تحقق ما بين الزهراء وابنه من العلائق ؟ »

قال « اظنه يطردها ان لم يقتلها »

فسكت واظهر انه يهتم بالنهوض فنهض ياسر وخرج وهو يقول « وفق الله سعينا »

فلما خلا سعيد بنفسه اعمل فكرته فرأى ان سعي ياسر ضد الزهراء يفيده في كل حال طالما كان حائزاً على ثقة الخليفة بدبره كيف شاء فمتى يترقب الفرص

اما ياسر فجعل همه في ذلك اليوم مراقبة الابواب لعله يرى عبد الله داخلاً ليشي به الى الخليفة وهو مجتمع بالزهراء . ولكنه كان يخاف ان يأتي عبد الله ويعود قبل رجوع ابيه من قرطبة فبعث بعض الخصيان يسأل في قرطبة عن رجوع الخليفة متى يكون فعلم انه عائد بعد الغروب فاعطى الاوامر ليكون القصر في تأهب لاستقبال صاحبه وعاد الى مراقبة الابواب

الفصل الثاني والستون

حديث ذو شجون

غربت الشمس ولم يأت احد وبعد الغروب رأى ياسر ساهراً ومعه رجل بلباس الخصيان دخلا من باب القصر ولم يعترضهما احد من الحراس كانهم كانوا على موعد . فعلم ياسر ان احدهما عبد الله وتنحى ريثما مرّا وراقب جهة مسيرهما فرآهما ظلا سائرين نحو قصر المؤنس الى الحديقة التي اجتمعا بها في المرة الماضية . فسار من جهة اخرى بحيث يتحقق ان الزهراء نزلت لمقابلة عبد الله فلما تحقق ذلك اصبح همه ان يأتي الناصر قبل تفرقهم ليرى الاجتماع بنفسه فيكون ذلك ادعى الى غضبه وسرعة انتقامه

فرجع الى الباب الخارجي الذي يدخل منه الناصر اذا عاد من قرطبة واخذ يتشوف عن بعد وقد دنا العشاء واظلمت الدنيا لكن قصور الزهراء كانت تنار ليلاً بالمصابيح من كل اطرافها . ورآهم ينيرون الطريق بينها وبين قرطبة استقبالاً للخليفة ولم تمض هنيهة حتى رأى الخصيان والفرسان وعليهم الجواشن مسرعين يليهم سائر الموكب وفي وسطه الخليفة والى جانبه تمام رئيس الخصيان زميل ياسر . ولم يكن بينهما تحاب شأن المتنافسين في المناصب في كل زمان ولكن الناصر كان يقدم تماماً في اكثر الاحيان ويقلل من نفوذ ياسر . وهذا يعتقد ان الزهراء هي التي جعلت الناصر يتغير عليه ولذلك زاد رغبة في الانتقام منها . ورأى هذه الفرصة اثمن الفرص ليظهر اخلاصه للناصر وتفانيه في خدمته ليغير ما في نفسه من تفضيل تمام عليه

فلما رأى الناصر في موكبه وتمام الى جانبه لم يعد يصبر عن التصدي لمخاطبته قبل الوصول الى القصر مخافة ان يذهب الى قصر آخر غير المؤنس ثم يشق عليه استقدامه في تلك الساعة

فلما وقع نظر الناصر على ياسر توسم في وجهه خيراً فانفرد عن الموكب نحوه فمشى ياسر في ركابه حتى دنا من قصر المؤنس وترجل الخليفة واشار الى الناس بالانصراف وظل مع ياسر فقال له « ما وراءك يا ياسر ؟ »

قال « ما ورائي غير الخير وكنت اود ان لا يعلم مولاي الا بما يسرّه لو لم اعلم انه راغب في معرفة سر ذلك الاجتماع »

فانتبه الناصر حالاً الى انه يعني اجتماع الزهراء بعبد الله فقال « هل جاء ولدنا عبد الله الى هنا ؟ »

قال « نعم يا سيدي ولو انه جاء كما يجيء سائر اخوته واهله لم يكن بأس من مجيئه ولكنه يأتي متنكراً . . . »

قال « وكيف يأذن الحراس بدخوله ؟ »

قال « يأذنون له بامر الزهراء فانها توصيهم بذلك على يد احد خدمتها »

فغضب الناصر وقال « والآن اين هو ؟ »

قال « هو في الحديقة المعهودة وهي معه »

فاطرق الناصر حيناً ثم ضرب الارض برجله وقال « كأن عبد الله ينتقم مني لاني حبست عابدة عنه ؟ . الى هذا الحد بلغت جسارته ان يتعدى على جاريتي الزهراء نفسها ؟ »

فسر ياسر من غضب الناصر واحب ان يمكنه من الغضب عليها وحدها فقال « لا اظنه يطلب انتقاماً ولكنها خدعته والنساء لا يخفى على امير المؤمنين حالهن »

فمد الخليفة يده الى جيبه واستخرج ورقة وقال « هذا كتابه جاءني في الامس الى قرطبة ولم يصبر عليّ حتى اعود الى هذا القصر فيخاطبني »

فقال ياسر « هل يطلب عابدة ؟ »

قال « بل هو يهددني اذا انا لم اعدها اليه ولم افهم معنى تهديده . . فقد فهمت الآن انه يريد ان ينتقم مني باخذ الزهراء ... ولكن كيف تقبل هي موافقته ؟ »

فقال ياسر « ان النساء . . »

فقطع الناصر كلامه وقال « احب ان اراهما واسمع حديثهما ولي بعد ذلك راي فيهما » قال ذلك والغضب بادٍ في اسرته

ففرح ياسر لهذا التهديد واسرع بين يدي الخليفة وبعث الاوامر الى خدمة القصر ان يخلوا هذا الجناح منه لان امير المؤمنين سيمر فيه . ولم تمض بضع دقائق حتى لم

يبق هناك احد . فمشى ياسر بين يدي الناصر حتى وصل الى غرفة لها شرفة تطل على الحديقة فوجداها مقفلة فقال ياسر « انها اقفلتها حتى لا يطل احد منها عليهما » ـ واخرج من جيبه مفتاحاً فتحها به بخفة بحيث لاينتبه احدلفتحها ودخل واعد للناصر مقعداً بجانب الشرفة يطل منه على الحديقة

فراى الناصر الزهراء جالسة هناك على مقعد من الحجر وقد كشفت عن وجهها كانها مع بعض اهلها وعبد الله جالس امامها وقد رفع اللثام عن وجهه فبان على نور المصباح جلياً ولم يبق عند الخليفة شك في انه ابنه وانها الزهراء جاريته فاضطرب وثارت غيرته لكنه صمت كانه اصيب بالجمود . اما ياسر فكاد قلبه يطير من الفرح لنجاح مهمته

وكان اول شيء سمعاه قول عبد الله « انت تعلمين يا زهراء منزلتك عندي قبل الآن »

فاجابته « نعم اعلم . .ولذلك فاني بعثت اليك لاخاطبك بهذا الشأن ولولا حبي لك لم افعل »

قال « ان رضاك عزيز عندي ولكن طفح الكيل ولم اعد استطيع صبراً ..»

فقالت « مهما يكن من طفاح ذلك الكيل لا ارى ما يوجب هذه النقمة »

فقطع عبد الله كلامها قائلاً « كيف لا انقم وقد عاملوني معاملة العبد المملوك . لم يكف انهم سلبوني ولاية العهد حتى اصبحوا يسلبونني اسباب راحتي ـ هذه جارية اتتني واستلطفتها وطلبها اخي مني فاعتذرت له فشكاني الى ابي فبعث يطلبها ليراها فارسلتها فحبسها عنده لنفسه »

قالت « اهذا يوجب كل هذه النقمة حتى تنصر الغرباء على ابيك ؟ اليس هوولي نعمتنا ؟ اليس هوامير المؤمنين وارواحنا حلال في قبضة يده ؟ ـ يجب ان تعلم اني احبك لاني حالما علمت بتغير قلبك على ابيك بعثت اليك انصح لك . ولولا حبي وغيرتي على سيدي الناصر ولي نعمتي لم يكن اسهل عليَّ من ان ارفع امرك اليه وهو لا يعجز عن القصاص ... »

قال « انه لم يتصرف معي كما يتصرف مع سائر اولاده وقد قال لي ابن عبد البر الفقيه وهو اعلم فقهائنا ان من كان مثل اخي الحكم لا يليق للخلافة لاشتغاله عن امور الدين بالدنيا »

فقالت « كانك تطمع ان تكون ولاية العهد لك ؟ »

قال « وما المانع ؟ الم يحدث ذلك في الاسلام ؟ .. ان الخليفة غير مقيد بمبايعة أكبر اولاده بل هو يجب ان يلاحظ اخلاقهم وقدرتهم »

فقطعت كلامه قائلة « ليس في ولي العهد ما يمنع مبايعته .. ثم لم اكن انتظر منك ان تخالف ابك في شيء والا تكون قد ايقظت الفتنة .. فانا قد تحملت تهمة الريبة من سيدي الناصر لاني خاطبتك المرة الماضية على انفراد وقد هددني فلم افه بشيء خوفاً عليك.. فاصغِ الى قولي وارجع الى رشدك فما انت اولى من اخيك بولاية العهد ولو كنت اهلاً فان طاعة مولانا الناصر واجبة وهو الذي اختار اخاك اما اذا كنت تنوي الخروج عليه فذلك امر آخر .. وانت اعجز من ان تستطيعه .. »

وكان الناصر وهو جالس يسمع ذلك الحديث ترتعد فرائصه وقد اخذته الدهشة من عظم الاستغراب وكان يسترق اللحظ مرة بعد اخرى الى ياسر فيرى الفشل بادياً في محياه وكانه اسقط في يده ومع ذلك فان اشتغال ذهنيهما بتتمة الحديث لهاهما عن كل شيء

اما عبد الله فلما سمع استخفاف الزهراء به هز رأسه وقال « اتظنين اني وحدي ناقم عَلَى والدي ؟ ـ اني آخر الناقمين لانه اساء الى كل الاحزاب واستبد بالسلطة واستبدل رجال الدولة من العرب والبربر بالخصيان من الصقالبة فلذلك نقم الناس عليه .. ولو قلت كلمة لالتف حولي الوف من اهل الحرب فيهم كثيرون مثل صاحب النقمة »

فلم تتمالك الزهراء عند سماع ذلك الاسم عن الوقوف ثم شغلت نفسها عنه وقالت « لله انت من امير مغرور . اعلم اني نصحتك واعيد النصح ثانية فاذا لم تقبل فاني موعزة بامرك الى ابيك لاني اضن بهذه الدولة ان تذهب فريسة الغرور وقد بناها ابوك عَلَى هام الرجال فاحيا بها دولة المسلمين وعزز الاسلام .. فلا تهدمها بطيشك .. واشير عليك قبل ان تقدم عَلَى هذا العمل ان تستشير العقلاء »

فقاطعها قائلاً « قد استشرت الفقيه ابن عبد البر وهو اعلم الفقهاء وان كان والدي قد رذله وفضل عليه سواه »

قالت « احسب هذا الفقيه هو الذي اغراك عَلَى ابيك انتقاماً لنفسه من الفشل الذي اصابه يوم ذاك الاحتفال اذ امتنع عليه الكلام »

فضحك وهو ينهض وقال « انا اعقل من ان انقاد لسواي .. وسترين »

قالت « لا بل ارجو ان ترجع الى رشدك وتعدني انك تائب من هذه الساعة والا فانك غير خارج من هذا المكان قط »

قال « تهددينني ؟ »

قالت « لا تستخف بي او تطمع باسترضائك فاني اضحي حياتي في نصرة مولاي ومولاك . . »

فهزّ عبد الله رأسه استخفافاً ومشى فصاحت الزهراء « ساهر »

فجاء ساهر باسرع من لمح البصر فاشارت اليه ان يقبض عَلَى الامير عبد الله فهجم عليه وقد اعد وثاقاً شد بهِ يديه وعبد الله ينظر اليه مستغرباً وهو يقول « اخسأ ياغلام . . . الا تعلم من انا ؟ »

فلم يجب ولكن الزهراء اجابت « انا اعرف من انت ولا يغرنك انه كان خادماً لك فقد كان عيناً لي عندك خوفاً من مثل هذا الطيش ان ينال شعرة من مولاي الناصر »

فلم يتمالك الناصر ان صاح من عَلَى الشرفة « لله درك يازهراء »

فعرفت الزهراء صوت الخليفة وكانت قد توثقت من القبض عَلَى عبد الله فانسلت واختفت اما عبد الله فانه اسقط في يده وجمد الدم في عروقه ولم يعد ينفعه الندم فساقه ساهر الى سجن خاص واقفل عليه

الفصل الثالث والستون

المشورة

اما الناصر فنهض ومشى و ياسر بين يديه وقد تولته الدهشة وبان الفشل واليأس في وجهه ولم ينبس بكلمة . وظل الناصر ماشياً حتى دخل غرفته وقد اعدوا له المائدة فذهب اليها فأكل وهو لا يتكلم لعظم ما قام في نفسه من الامر الخطير وقد جاءه الخبر بغته فلم يدر كيف يتصرف . وكان عَلَى موعد من لقاء سعيد بعد ان ارسله الى الزهراء بالامس يستطلع سر اجتماعها بعبد الله فخطر له ان يستقدمه ليمتحن معرفته ويستشيره في الامر لانه اصبح شديد الثقة بهِ

اما سعيد فكان في غرفته في ذلك المساء ينتظر رجوع الناصر فعلم من حركة اهل القصر انه جاء فلبث ينتظر وصوله وبعد ساعة اتاه ياسر وقد امتقع لونه من الدهشة والفشل وقص عليهِ ما كان وهو يأسف لان مهمته ضد الزهراء لم تنجح وكان يحسب سعيداً يشاركه في الاسف او يشير عليهِ في شيء فتظاهر سعيد بمشاركته في ذلك ولكنه وقع الرعب في قلبه

مخافة ان يبيح الامير عبد الله بخبره فيذهب سعيه ادراج الرياح و يصبح في خطر القتل فاشار عَلَى ياسر ان يذهب و يكتم ما دار بينهما فمضى و بقي سعيد وحده واخذ يعمل فكرته وقد غلب عليه القلق والخوف ولا بد من المبادرة او الفرار

وهو في ذلك جاءه غلام الناصر يدعوه اليهِ حالاً فخفق قلبه خوفاً لئلا يكون الناصر قد اطلع عَلَى شيء من سره ولكنه تجلد ووضع كتاب التنجيم في جيبه ومشى بقدم ثابتة حتى دخل عَلَى الناصر فرآه في فراشه وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً وهو يظهر السكون والتكتم فوقف سعيد بين يديهِ متأدباً ينتظر امره كالعادة فاشار اليه ان يجلس فجلس عَلَى البساط جثوًا واطرق فقال له الناصر « اظنك استبطأتني »

قال « نعم وقد كنت انتظر رجوع مولاي بفارغ الصبر »

قال « ولماذا ؟ »

قال « لاتبرك برؤيته ولأنقل اليه نتيجة المهمة التي عهد بها اليَّ »

قال « اظنك تعني خبر الزهراء وما دار بينها و بين ولدنا عبد الله »

قال « نعم يا مولاي »

قال « ما الذي دلك عليه علمك ؟ »

قال وهو يبتسم « لم أجد الا كلَّ ما يحسن بالجارية الامينة المحبة »

قال « هذا لا يكفي ان كنت تعرف التنجيم قل ما هو الحديث الذي دار بينهما ؟ »

فأطرق سعيد واخذ يقلب الكتاب بين يدية و ينظر الى الناصر خلسة والناصر متكئ عَلَى جنبه الايسر وخدهُ عَلَى كفه اليسرى وهو يراقب حركات سعيد فلما رآه يتردد قال له « مابالك ؟ قل الذي رأيته »

فاظهر سعيد انه يخشى التصريح فقال الناصر « قل كل ما سمعته . . لا بأس عليك »

قال « سمعت شيئاً لااجسر عَلَى التفوه بهِ واكاد اكذب تنجيمي ولا اصدقه لغرابته »

فضحك الناصر وهو يعتدل في مجلسه وقال « لا تكذب تنجيمك بل كذب ظنك بالناس خيراً . ألم تقل لي مرة ان الأذى يأتيني من اقرب الناس اليَّ ؟ »

فقال « يظهر ان مولاي الخليفة قد اطلع عَلَى السر من سواي »

قال « نعم . قل اذاً صريحاً ولا تبال . »

قال سعيد وهو يظهر الاهتمام « اما وقد اطلع مولاي عَلَى ذلك الامر الفظيع فلا اكتمه ما ظهر لي من الاسرار المتعلقة به . . »

قال « قل ارشدني اني مضطرب البال من العتب وليس من الخوف »

قال « يحق لمولاي ان يعتب عَلَى ابنه اذا اراد الغدر بهِ »

فلما رآه كشف السر بالتنجيم حسب اعتقاده عظم سعيد في عينيه وعزم عَلَى استشارته والعمل برأيه فقال « قل الذي دلك عليه علمك ولا تحاذر »

قال « دلني علمي عَلَى ان الزهراء حفظها الله اجتمعت بالامير عبد الله لتردعه عن فظيعة كان يحاول ارتكابها ضد امير المؤمنين »

قال « صدقت وما العمل الآن ؟ . قل اني عامل برأيك »

فانشرح صدر سعيد لهذا النجاح وعوّل عَلَى قطع السبل المؤدية اليه فاعاد النظر الى كتاب التنجيم ورمى البخور في النار ثم اطرق يفكر و يقلب صفحات الكتاب والناصر ينتظر فراغه من التعزيم والتبخير ورأى عينيه تحمران وتدمعان وقد تبدلت سحنته . واخيراً وضع الكتاب من يده واشار بيديه جميعاً اشارة القبض وقال « اقبض عليه حالاً . . اقبض عليهِ وعلى رفيقه في منزله انه شريكه في جرمه . . واقبض عَلَى رجل ثالث كان معك الليلة . . فاذا قبضت عَلَى هؤلاء بادر الى الاعدام . . الى الاعدام ان بقاء واحد منهما يفضي الى الفتنة . والحازم من اجتث شجرة الشر من جذرها . . هذا هو رأيي قلته بصراحة وقد نفضت يدي من خطر المستقبل ان لم يعمل امير المؤمنين برأيي »

وكان الناصر يسمع كلام سعيد و يتفهمه جيداً وهو ينوي ان يعمل بكل حرف منه بعد ان تحقق تنجيمه وسداد رأيه مراراً

اما سعيد فلما فرغ من كلامه اظهر انه تعب واخذ يرتعش كانه اصيب بالبرداء فقال له الناصر « ما بالك يا حكيم ؟ »

قال « اني اخاف ان يتأخر مولاي وتأخذه الشفقة فيذهب بالدولة الى الخراب — يقبض الآن عَلَى فقيه الامير عبدالله الذي يئس من منصب القضاء فتقدم عَلَى الخليفة ولا دخل للبر في شيء منهُ سوى اسمه . . و يقبض ايضاً عَلَى رفيق امير المؤمنين الليلة فانه شريك في الامر واذا سأل امير المؤمنين نفسه يعلم ان هذا الاخير من اكبر الاعداء مع انه من اقرب المقربين . و يفعل ذلك سريعاً وسرًّا فان لم يفعل فاني اول المائتين »

فحمل الناصر منهُ هذا التعبير محمل الغيرة الشديدة عَلَى الدولة وخاف ما خوفه منه وخصوصاً لان كلام سعيد عن كل من الثلاثة وافق ما في نفسه فامر بعض غلمانه ان يقبض عَلَى ياسر حيثما كان و يزجه في السجن و بعث اخرين الى قصر مروان للقبض عَلَى ابن عبد البر وحمله الى قصر الزهراء حالاً

الفصل الرابع والستون

الانتقام السريع

وظل سعيد جالساً ينتظر امر الناصر بالانصراف فلم يأمره فاظهر انه يبكي فقال له الناصر « ما بالك يا حكيم »

ففرك عينيه وقال « لا شيء يا سيدي »

قال « لا بل انت تبكي لامر ما »

قال « ابكي على الامير عبد الله فاني كنت احبه وقد خسرته ولكن امير المؤمنين خير منه .. الا يرجو سيدي رجوعه ؟ . »

قال « كيف ترى انت ؟ »

قال « لا ارى دواء لهذا الامر غير السيف واذا خفت الحية فاقطع رأسها والا فانت في خطر منها . اني ارى رأي عبد الملك بن مروان مع سعيد بن الاشدق وقد صار اليه وصار من اعوانه بعد ان خرج عليه وحاربه اما عبد الملك فلم ير خيراً من قطع الرأس فدعا ابن الاشدق اليه وقتله فامن الفتنة بعده ـ تلك سياسة بني امية في الشام من معاوية فما بعده وكذلك فعل جدك عبد الرحمن الداخل وغيره من رجال الحزم والدهاء ـ اذا خفت جماعه فاقطع راسهم والذي يظهر من تنجيبي ان الامير عبد الله يوشك ان يجعل نفسه رئيس عصابة ولكن .. »

قال الناصر « يظهر انك تخاف ان يغلب عليّ الحنو فاستبقي عبد الله . . . كلاّ . . ثم كلاّ اني قد سمعت تهديده باذني واما ابن عبد البر الضعيف الساقط فلابد من قتله لانه من جملة المحرضين واما ياسر فقد تعبت من دسائسه وشكاويه وكأن الزهراء قتلت اباه فلا ينفك يشكو منها او يعرض بها وقد تبين اليوم تحامله عليها .. اني قاتل اولئك الثلاثة قبل ان يطلع النهار »

قال « يعجبني سداد رأي امير المؤمنين . تلك كانت سياسة الدهاة من اسلافك اذا خافوا رجلاً قتلوه سرًّا فيأمنون غوغاء الاحزاب »

قال « اذهب الى فراشك ونم مطمئناً وغداً تجد لوحاً على باب القصر وقد كتب عليه ما فعلناه »

فنهض سعيد تأدبًا وهو يقول « نصر الله مولانا على اعدائه وابده بروح من عنده

ولا شك عندي ان مبادرته الى القصاص عَلَى هذه الصورة توقع الرعب في قلوب اولئك الاغرار الذين يتعرضون لبطشهِ واذا امر مولانا ان يكتب عَلَى ذلك اللوح عبارة تهديد يشار بها الى سائر العصاة كان فيها رهبة لهم فيأمر امير المؤمنين ان يكتب عَلَى ذلك اللوح « وهذا جزاء الخائنين وسينالهُ من يحذوهم وخصوصاً صاحب النقمة »

قال « اصبت بورك فيك » وتزحزح اشارة للانصراف فخرج سعيد وهو ينظر الى السماء و يداه مرفوعتان يدعو للخليفة بالنصر وذهب الى فراشه وهو يخاف ان يعدل الخليفة عن قتل اولئك الثلاثة قبل ان يبوح احد منهم بامره

واصبح اهل القصر في الصباح التالي فرأوا عَلَى بابه الكبير لوحاً قد كتب عليه ما معناه :

« قد أنفذ حكم الشريعة الغراء بالقتل عَلَى الامير عبد الله بن امير المؤمنين ومحمد بن عبد البر الفقيه و ياسر الفتى رئيس خصيان القصر قصاصاً عَلَى خيانتهم وخروجهم عَلَى امير المؤمنين حامي حمى المسلمين ومؤيد الدين وعَلَى ولي عهده . قتلوا خوف الفتنة وهذا جزاء الخائنين . ولكم في القصاص حياة يا اولي الالباب . فليعتبر بهم كل من سولت لهُ نفسه الامارة بالسوء ان ينبذ الطاعة ويخرج عن الجماعة واولهم ذلك الخائن صاحب النقمة »

لم يطمئن سعيد حتى قرأ اللوح وتحقق نجاته من الفضيحة

الفصل الخامس والستون

الندم

اما الناصر فبعد خروج سعيد من عنده امر بقتل الثلاثة [1] حالاً بدون ان يراهم وبعد قليل جاءه الجلاد انهُ فعل فأمر بكتابة اللوح وتذكر الزهراء وفضلها وصدق مودتها وكان الليل قد مضى معظمهُ فلم يصبر عن رؤيتها فبعث اليها يستقدمها اليهِ ليشكرها و يبشرها انهُ قتل الخائنين وكانت قد نامت فنهضت واصلحت من شانها واتت اليه وهي تستغرب تلك الدعوة المستعجلة

دخلت عليه فرأته جالساً على السرير و بين يديه لوح يقرأه و يهز رأسه فلما دخلت وضع اللوح الى جانبه ورحب بها قائلاً « مرحباً بالحبيبة الصادقة »

فاكبت هي على يده تقبلها فقبلها وامرها ان تجلس الى جانبه فجلست مطرقة فقال لها

(١) نفح الطيب ٩٧٧ ج ٢ وابن خلدون ٤٣ ١ ج ٤

« قد أسأنا الظن بك وانت بريئة من اسباب الريبة »

فقالت « اني جارية امير المؤمنين وهو ولي نعمتي افديه بروحي ولا فضل لي »

قال « بل لك الفضل فانك اصدق مودة اليّ من ابني . . ذلك الخائن . قد سمعت ما دار بينكما باذني . . . لله درك من صديقة أمينة وتباً له من خائن مارق . . »

قالت « كيف عرف سيدي بوجود ابنه هنا وعهدي انك في قرطبة »

قال « داني عليه ياسر الخائن حال وصولي وقد اراد الايقاع بك فاخذني الى تلك الشرفة وارانيكما تتحدثان فلما رأى براءتك من التهمة التي وجهها اليك خجل ولكنه نال جزاءه »

قالت « اما عبد الله فاني سأعود الى مخاطبته وانا على ثقة من ندمه ورجوعه لان في فطرته شيئاً من طيب عنصر والده وانما اغتر باقوال المفسدين كالفقيه ابن عبد البر وامثاله اما هو فانه طيب القلب حسن الاسلام كما لا يخفى على امير المؤمنين »

وكان الناصر طروباً بحديثها لانه كان يطرب لكل حركة من حركاتها فلما اثنت على عبد الله وقالت انها كانت ترجو اصلاحه احس بتسرعه في قتله وشعر بالندم لكنه تذكر الخطر الذي كان يهدده لو لم يفعل فبادر الزهراء قائلاً « انا لا ارجو صلاحاً ممن يخون اباه واخاه وعلى كل حال فقد قضي الامر » ورفع اللوح بيده ووجهه نحوها لتقراه فما اتت على بعضه حتى صاحت « ويلاه قتلت عبد الله .. » ولطمت وجهها ونظرت الى عيني الناصر وتفرست فيهما كأنها تستفهمهما فرات الشرر يكاد يتطاير منهما فأعادت قراءة اللوح حتى بلغت الى اسم صاحب التهمة فاقشعر بدنها لانها تذكرت اخاها وانه سيقتل مثل تلك القتلة فغلب عليها البكاء للسببين معاً فظنها الناصر تبكي على عبد الله فقال « ما بالك تبكين ؟ »

فقالت « ابكي على شباب عبد الله . »

قال بلحن الغضب « اتبكين على الخائن وانت اعلم الناس بخيانته؟ »

قالت « او ليس هو بضعة من امير المؤمنين ؟ فكيف لا ابكيه وقد كنت احسبني ارجعه عن خطائه »

قال « انت امرت بالقبض عليه بعد ان يئست من اصلاحه »

قالت « قبضت عليه ارهاباً ولم يكن عندي ريب من ندمه في الغد ... ولكن ويلاه ... هل قتل عبد الله فعلاً ؟ »

قال « نعم قتل وكذلك سيقتل امثاله الخائنون .. فبعد ان يعلموا اني قتلت ابني

لهذه الخيانة فلا يلومن الا انفسهم اذا وقعوا في يدي فاني قاتلهم جميعاً والقتل انفى للقتل »

فتذكرت اخاها وما يكون من امره اذا وقع في قبضة الناصر فاحبت ان تستطلع راي الخليفة في العفو عن امثاله فقالت « واذا رجعوا تائبين ؟ »

قال « اقتل ابني واعفو عن سواه ؟ لا يقع في يد واحد من الخائنين الا قتلته اياً كان »

فوقع قوله في نفسها وقعاً شديداً لانها تعرف شدة الناصر وبطشه وزادت خوفاً من ذكر اسم اخيها ورات تأجيل طلب العفو له الى فرصة اخرى . وهي لا تعلم مع ذلك اذا كان اخوها يرضى بطلب العفو فرات ان تقنعه اولاً بالرجوع ثم تتوسط له بالعفو عنه

وبعد قليل امر الخليفة بانصرافها وبعث اللوح لتعليقه بالباب وتوسد يطلب الرقاد فتذكر ما دار بينه وبين الزهراء فتصور له ابنه عبد الله عند آخر نظرة فغلب عليه الحنو واخذ الندم يتسرب الى اعتقاده شيئاً فشيئاً وهو يغالبه ويتحل الاسباب التي تسوغ السرعة في القصاص تخلصاً من الفتنة لكنه مع ذلك غلب عليه الارق وتولاه القلق فلم يغمض له جفن وهو يتقلب كانه نائم على الشوك

ولما طلع النهار احس بضعف وانقباض فاستدعى طبيبه سليمان بن تاج فأتاه مسرعاً فشكا اليه حاله وكان سليمان قد قرأ اللوح المعلق بالباب فعلم سبب ذلك الانحراف فوصف له بعض المنعشات او المبردات في اصطلاحهم وقال « لا يخفى على امير المؤمنين سبب هذا الانحراف والعلة تزال بضدها . فيستحسن ان يلهو سيدي بما يشغله عن التفكير »

قال « وكيف ذلك ؟ »

قال « تأمر جارية مغنية تغنيك الحاناً مفرحة .. فان من الالحان ما يبعث على الحزن ومنها ما يبعث على الفرح . وعرفت فيلسوفاً من ابناء مهنتنا اخترع الحاناً تضحك واخرى تبكي والحاناً تفرح او تغضب لغير سبب موجب للضحك او البكاء او الفرح او الغضب وانما يجري ذلك من وقع الالحان على النفس .. واظن ذلك الفيلسوف قد مات الآن ولا اعلم اذا كان علم احداً هذه الالحان »

فتذكر الناصر ان عابدة تحسنها فقال « ان جاريتنا عابدة تعلمت هذه الالحان من معلمها سعيد الوراق .. »

فقال ابن تاج « ان سعيداً هذا من عجائب الدنيا لا يوجد شيء من العلوم

لا يعرفه حتى الموسيقى ! فاذا شاء مولاي امر جاريته عابدة تجالسه فتسقيه هذه المرطبات وتغنيه على انفراد فاني ارجو شفاءه عاجلاً »

الفصل السادس والستون

عابدة

فاستحسن الناصر هذا الراي واشار اليه ان يمضي لتحضير العلاج وارساله وبعث بعض الغلمان الى سعيد فاتى فقص عليه ما اشار به الطبيب فاظهر موافقته على ذلك العلاج واستأذن في الذهاب لاستقدامها وقلبه يكاد يطير من الفرح لسنوح هذه الفرصة ليتم بها غرضه

وكانت عابدة في غرفتها وعندها بعض الجواري يتحدثن بما هو منشور على ذلك اللوح وهن يستغربن وقوعه بهذه السرعة فلما رات سعيداً قادماً اسرعت اليه وقد زادت ضربات قلبها وعلت الحمرة وجنتيها وابرقت اسرتها . فمشى هو امامها الى غرفته فلما دخلت سلمت عليه فهش لها واستدناها فأجلسها الى جانبه ولاطفها ووضع ذراعه على كتفيها كانه يضمها تحبباً فاحست بقشعريرة لم تشعر بمثلها من قبل . فزاد تورد وجنتيها ولمعت عيناها واطرقت خجلاً وقلبها يخفق فرحاً وهياماً فقال لها « قد آن الوقت ودنت الساعة وانما تتوقف سعادتنا عليك »

فقالت « تتوقف السعادة عليَّ ؟ عليَّ انا ؟ اني رهينة ما تريد في سبيل هذه السعادة » قالت ذلك بلهفة المحب المتفاني

قال « نعم عليك ؟ . . . اين الورقتان اللتان اودعتهما عندك . . . هل انت محتفظة بهما ؟ »

فنظرت اليه نظر العاتب وهي تبتسم وقالت « كيف لا احتفظ بوديعتك بل كيف اقدر ان اخالف لك امراً » ومدت يدها الى جيبها واستخرجت الورقتين في صرة ودفعتهما اليه

فتناول الصرة وقال « اتعلمين ما هو داخل هذه الصرة »

قالت « ورقتان »

قال « وما فيهما »

قالت « احسب فيهما سماً .. فهل هذا صحيح ؟ »

قال « الصحيح ما اقوله لك الآن » وحدق في عينيها فحولت بصرها عنه واحست كان سهماً اخترق احشاءها او مجرى كهربائياً تسرب في عروقها فاطرقت وهي تنتفض

فاتم سعيد كلامه قائلاً « ان في هذه الاوراق مخدراً ينام صاحبه نوماً طويلاً »

فقالت « نعم »

قال « فهمت ؟ ان في هذه الاوراق منوماً لا يقظة لنا بدونه »

فرفعت بصرها الى فيه ولم تجسر ان تنظر في عينيه وقالت « لم افهم مرادك ياسيدي »

قال « الا تذكرين اني سألتك يوماً ونحن في الارباض اذا كنت تحملين خطر القتل من اجل الحب »

قالت « نعم واذكر اني قلت لك ان اتحمل كل خطر . وانا الآن اعترف بذلك وافتخر به »

قال « اعلمي ان الخليفة يشكو من ارق وانقباض فوصف له الطبيب من يسامره او ينادمه بالغناء بالحان مطربة وذكر له الالحان التي استنبطها الفارابي للضحك والطرب والخليفة يعرف انك تحسنين هذه الالحان فطلب اليّ ان ادعوك اليه وافهمك ما يلزم فها اني قلت لك » وسكت

فظلت ساكتة تنتظر تتمة الحديث فرأته شغل عنها بحك عثنونه فقالت « ماعلاقة هذا بالخطر ؟ »

فنهض وقال « لا علاقة بينهما صدقت . . دعي هذه الاوراق معي وقومي لمنادمة الخليفة فاني اخاف ان يستولي عليك الضعف »

قالت « لا تخف من شيء فان امرك يبث فيّ قوة وشجاعة »

وهو يعلم ان امره نافذ عندها ولو بغير ارادتها وقد اختبر ذلك مراراً فاذا امرها وشدد امره ونظر في عينيها وهي تنظر في عينيه استهواها فتعمل ما تؤمر به حرفياً وهو ما يعبر عنه علماء اليوم بالتنويم المغناطيسي . ولم يكن تعليله معروفاً في ذلك العصر او ربما عبروا عنه بالسحر — فلما قالت له ذلك امسك يدها بين يديه وحدق في عينيها وامرها ان تنظر في عينيه ففعلت فدفع اليها الورقتين وقال لها « اني آمرك ان تسقي ما في هذه الورقة للخليفة الناصر في هذا اليوم »

فارتعشت وغلبت على امرها وقالت « سأفعل ذلك يا سيدي »

قال « اسمعي ياعابدة ضعي هذه الورقة في جيبك واذهبي الآن الى الخليفة وهو

في غرفته على فراشه ومعك القانون والعود وغنيه واطربيه واسقيه من الشراب الذي وصفه الطبيب . . فهمت ؟ »

قالت « نعم » وهي تحدق في عينيه ويدها ترتعش بين يديه

قال « فاذا سمعت اذان نصف الليل اعمدي الى هذه الورقة صبي ما فيها في كأس الشراب وقدميه للخليفة . وبعد ان يتناوله ببضع دقائق يغلب عليه النوم ويبقى نائماً الى الابد »

فقالت « نعم . . ما ذا افعل بعد ذلك »

قال وهو يخرج الورقة الاخرى « وبعد ذلك تأتين الى هذه الغرفة فاذا لم تجديني فيها فانك تجدين قدحاً فيه ماء صبي فيه هذه الورقة واشربيه فتنامين ريثما آتيك وقد اعددت كل ما يلزم للفرار الى محلنا حيث نكون قد قنا بما علينا وقد دبرت كل شيء »

فتناولت الورقتين وخبأتهما في جيبها ولم يبد عليها اضطراب او خوف لكنها قالت « هذا آخر سعينا في سبيل السعادة ؟ »

قال « نعم . . امضي وانتبهي لاذان نصف الليل »

فنهضت وتناولت العود وسارت الى غرفة الخليفة واخذت تغنيه وتسقيه كما اوصاها الطبيب

الفصل السابع والستون

الفرار

اما سعيد فمكث بعد ذهاب عابدة مدة صامتاً يفكر بخطارة الامر الذي يعتها به وكيف انها طاوعته بلا تردد فلم يبق عليه الا ان يفر بالزهراء واراد ان يقتل الناصر مخافة ان يبعث في طلبه بعد فراره باحب جواريه اليه . وان يقتل عابدة ليبقى امره مكتوماً

فذهب الى الزهراء في غرفتها فقابله جوهر بالباب فسأله عنها فقال « انها ما فتئت منذ علمت بمقتل الامير عبد الله ورفيقيه وهي منقضية النفس لاتكلم احداً . فعلم سعيد انها مضطربة الخاطر على اخيها لما قرأت اسمه على لوح الاعلان باعدام هؤلاء فقال

« استأذن لي بمشاهدتها » فاجاب، مطيعاً وقد علمتَ انه من رجال سعيد وقد ادخله بلاط الناصر جاسوساً فهو يستهلك في خدمته ويحتفظ بسره

عاد جوهر واشار الى سعيد ان يدخل فدخل وهو يمشي الهوينا كانه يفكر في شيء شغل خاطره فوجد الزهراء جالسة على وسادة وقد اسندت خدها بكفها واستغرقت في التفكير فلما شعرت بدخوله رفعت راسها اليه فتفرست فيه لحظة ثم عادت الى الاطراق

فتقدم نحوها وقال « هل رايت صدقي ؟ »

فلم تجبه

فقال « يا حسناء قولي . هل علمت اني قلت لك الصدق عن اخيك ومحضتك النصح في كيفية انقاذه ؟ »

فرفعت بصرها اليه وقد تلألأ الدمع في عينيها وبدت ملامح العتب والاسف في محياها وقالت « آه ليتك لم تقل شيئاً ولو بقيت جاهلة امر اخي لكان خيراً لي من ان ارتكب في سبيل انقاذه خيانة سيدي وولي نعمتي »

قال « اراك تزدادين حباً به »

قالت « كيف لا ولم ارَ منه شراً بل لم اسمع منه كلمة تسوءني . وقد رفع منزلتي وقدمني على سائر نسائه وبنى هذه القصور حباً بي . . كيف لا احبه ؟ بل كيف لا اعبده ؟ . هذه هي المحبة الخالصة و . . . » وسكتت كانها همت ان تقول شيئاً وامسكت نفسها حياء

ولم يفته انها كانت تشير الى محبته غير الخالصة فقال « تعيرينني بمحبة الناصر يا حسناء ؟ لماذا لا يحبك وانت تتفانين في خدمته ؟ واما القصور فقد بناها لنفسه وحاشيته . واما المحب الصادق فهو الذي يرى فتورك ويأبى السعادة بعيداً عنك يرفض الملك ويحترف التنجيم والتعليم للوصول اليك يعرض حياته للخطر من اجل حبك .. هذه هي المحبة الخالصة وهذا هو المحب الصادق .. دعينا من هذا الآن وقولي هل انت عازمة على انقاذ اخيك ام لا ؟ وقد رايت اليوم بنفسك مقدار غضب الناصر عليه »

فاجفلت وقالت بلحن الانكسار والذل « نعم عرفت »

قال « اذا كانت نجاته لا تهمك فذلك امر آخر »

قالت « انت تعلم ان نجاته تهمني كثيراً ولكن الطريق وعر »

قال « ولابد دون الشهد من ابر النحل . ومع ذلك فاني لا ارى مشقة عليك في

الخروج من هذه القصر ليلة واحدة وتعودين في الصباح واخوك معك وتستعطفين الناصر عليه ثم تستقدمينه كما تشائين .. اذا كنت عازمة على الخروج معي قولي والا فانا ذاهبٌ » قال ذلك واظهر انه يريد الخروج فابتدرته قائلة « وتهددني ايضاً ؟ اهكذا تكون الاريحية ؟ الأني في حاجة الى خدمتك تتهرني ؟ » واغرورقت عيناها بالدموع

فجثا بين يديها وتظاهر بالتأثر من قولها وقال « حاشا لله ان اهددك فاني انما التمس رضاك وابذل حياتي في سبيل حبك . . انت صاحبة الامر قولي وانا فاعل ما تريدين حتى الموت اني مستعد لاستقباله باسمك ـ آه لوكان لك قلب مثل قلبي فتدركين مقدار حبي لك ولكنك قاسية القلب . . وطالما وصفتك بهذا الوصف »

فتنهدت تنهداً عميقاً وقالت « سامحك الله على هذه التهمة اني اكاد اكون مجبولة بالحب . . واذا احببت فالى حد التلف ـ ولك من حديثي بالامس مع قتيل هذا النهار احسن مثال »

فقطع حديثها قائلاً « يظهر انك لم تبغضي احداً سواي ؟ »

قالت « اعترف لك ياسيدي اني لم احبك ولكن اذا صدقت الخدمة في انقاذ اخي فاني احبك ولو من قبيل الامتنان »

فنظر اليها شذراً وقال « اقول اني ميتٌ في حبك وقد ركبت كل مركب خشن في سبيله وانت تشترطين في حبي الف شرط ؟. آه قد احوجتني ان ابوح لك بذنب ارتكبته في هذا النهار من اجل حبك »

قالت « وما هو »

قال « انت تعلمين حبي للامير عبد الله وقد كنت عندهُ معززاً مكرماً ولكنني اعلم انه عارف بمقر اخيك فخفت اذا استنطقه الخليفة ان يدله عليه فيقتله . فاشرت على الناصر ان يبادر الى قتل عبد الله وقتل رفيقيه بدون استنطاق وقد فعل . . . الا تعدين ذلك فضلاً لي ؟ »

فانطلت حيلته عليها وصدقته وقالت « صدقت »

قال « وتقولين انك ربما تحبينني اذا انقذت اخاك ؟ »

قالت « اتريد ان اخدعك ؟ هذا ما اشعر به وسترى »

قال « لا افعل شيئاً لا يرضيك وسترين... وانا راض بتأجيل الحب حتى تظهر خدمتي . فقولي الآن هل تذهبين ؟ »

قالت «الى اين؟ ومتى؟»

قال «تذهبين معي الليلة الى ارباض قرطبة حيث تلاقين اخاك كما قلت لك»

فرفعت نظرها اليه وقالت «كيف اذهب؟»

فحدق في عينيها تحديقاً شديداً وقال «تذهبين متنكرة على بغلة بثياب صاحب البريد ومعك جوهر الخادم وانا الاقيك خارج هذا القصر ونذهب معاً وسترين اني صديق صادق تولي نعم.. قولي لا تكوني خائفة فما فاز باللذات غير الجسور»

فاحست بضعف الارادة فنهضت وهي تتنهد وكانها تتأهب للخروج وقالت «متى اخرج؟»

قال «اخرجي بعد الغروب وفي ركابك جوهر»

قالت «وبعدئذ؟»

قال «وبعد ذلك اخرج انا من باب آخر ونلتقي معاً خارج هذه القصور في الطريق المؤدي الى قرطبة ثم نترافق الى اخيك»

قالت «هل انت واثق اني اجده هناك؟»

قال «نعم»

قالت «هذا آخر اجتماع لنا هنا؟»

قال «لا حاجة الى الاجتماع بعده هنا فقد تم الاتفاق بيننا اخرجي انت مع جوهر الا تثيقين بامانته؟»

قالت «نعم»

قال «فاخبريه بعزمك على الخروج الليلة لمشاهدة امر يهمك ولا تحبين ان يعلم احد القصر بخروجك واشيري عليه ان تتنكري بثوب صاحب البريد فان صاحب البريد لا يسأل عن خروجه ودخوله وخصوصاً اذا كان معه احد غلمان الزهراء وتولي له ان يهيء لك الثياب والبغلة»

فوقفت هنيهة وهي مطرقة تعمل فكرتها كانها تتردد فخاف ان تعدل عن عزمها فقال «اذا كنت تخافين الخروج فما انت اهل للحصول على اخيك»

فلما ذكر اخاها عادت اليها جسارتها وقالت «نعم اذهب. وسنلتقي بعد العشاء في الموقف الثاني في الطريق بين الزهراء وقرطبة»

فقال «بارك الله فيك وانا ذاهب لنلتقي هناك» وخرج

الفصل الثامن والستون

الارباض

وكان حراس باب القصر في ذلك المساء جلوساً يتحدثون بما علموه من مقتل الامير عبد الله وابن عبد البر و ياسر و يستغربون وقوعه وقد التهم الاوامر المشددة بالانتباه الى من يدخل القصر أو يخرج منه . وهم في ذلك سمعوا قعقعة لجام البريد ثم رأوا البغلة وعليها راكب بثياب صاحب البريد وقد تلثم . والى جانبهِ جوهر على بغلة فهمَّ الحرّاس ان يعترضوا فقال لهم جوهر « هذا بريد مولاتنا الزهراء » ففتحوا لهما فخرجا

فلما صارت الزهراء خارج القصر منفردة غلبت عليها الوحشة والتفتت الى ما حولها فاذا هي وحدها في صحراء رملية وكلما بعدت احست بالظلام لان انوار تلك القصور كانت تؤانسها حتى اذا وصلت الى الموقف المعهود وقفت وادار جوهر بغلته نحوها وسألها عما تحتاج اليهِ

فقالت « الى اين نحن ذاهبون ؟ . . ما هذا ؟ . كيف خرجت من قصري وانا فيهِ كالملكة المتسلطة حتى على الملك نفسه . . . »

فقطع جوهر كلامها قائلاً « لا تزالين يا سيدتي صاحبة السيادة وفي الند تعودين الى قصرك ومعك اخوك وتخلصينا من انقباضاتك وعبساتك . . »

وكان جوهر خفيف الروح وهي تستأنس بكلامهِ فاعجبها تعبيره فقالت « هل ألاقي اخي ؟ يا حبذا ذلك »

قال « لا بد من لقائه . . والا فلماذا خرجت ؟ »

وهمت بالجواب وعيناها شاخصتان في منتهى الطريق تنتظر مجيء سعيد و بغلتها تتحرك تحتها فشغلها شبح ظهر عن بعد من ناحية القصر فاسرع جوهر ببغلته لملاقاته . ثم عاد مسرعاً و بشر الزهراء انه سعيد فلم تدر اتفرح أم تحزن لانها كانت لا تحبه ولكنها لا ترى بدّاً منهُ أملاً بلقاء اخيها فظلت صامتة حتى وصل سعيد اليها فحياها وقال « هل انت مرتاحة ؟ . . »

فاجابت برأسها « ان نعم »

فأومأ لها ان تسوق بغلتها بجانبه وساروا . وكانت قد تعوّدت الركوب لان الناصر كثيراً ما كان يصطحبها في خروجه للصيد أو التنزه وركوب البغال سهل

ساروا برهة لا يتكلمون حتى اطلوا عَلَى الجسر المؤدي من قرطبة الى ارباضها فوق الوادي الكبير فسمعوا دوي الطواحين . وكانت الزهراء لم تسمعها من عهد بعيد لانها لم تمر عَلَى ذلك الجسر من عدة اعوام — قطعوا الجسر وقد مضى هزيع من الليل فأشرفوا عَلَى الارباض وهم سكوت . وكانت الزهراء كلما بعدت عن القصر خطوة اقتربت من انسدم خطوتين . فلما دخلت الارباض ورأت ما هنالك من المنازل الحقيرة احست بانقباض نفسها واستوقفت بغلتها وقالت « الى أين نحن ذاهبون ؟ »

فبادر سعيد اليها وقال « الى سالم »

قالت « أرى سفرنا طال كثيراً »

قال « لم يبقَ الا القليل »

وظلوا سائرين فرأت انهم تجاوزوا الارباض فتصوّرت ان سعيداً يخدعها . فأوقفت بغلتها وقالت « أرانا خرجنا من حدود قرطبة »

قال « نحن عَلَى مقربة من المكان لا تخافي » و بعد قليل اطلوا عَلَى الوادي الكبير ثانية حتى صاروا عند الشاطئ . عرفوا ذلك من لمعان سطح الماء عن بعدٍ وانعكاس صورة السماء عنه

ثم وصلوا الى بيت منفرد فترجل سعيد وترجل جوهر واعان الزهراء في النزول فنزلت واخذت قواها تضعف من الخوف وكادت تعتقد انها وقعت في الفخ ولكنها تجلدت واطاعت سعيداً والتفتت الى ما حولها فاذا هي في بساتين قليلة العمارة . وقد ساد السكون في ذلك الليل فلا يسمع فيهِ غير خرير ماء الوادي . ثم مالبثت ان رأت كلباً كبيراً خرج من ذلك البيت وأخذ يحوم حول سعيد ويقفز عليهِ — وهو سلام المعرفة عند الكلاب . فعلمت الزهراء من ذلك انهم وصلوا المكان المقصود وصارت تتوقع ان ترى أحداً او احداً يأخذها اليهِ

الفصل التاسع والستون

الخوف

و بعد ان ترجلوا تناول جوهر ارسان البغال واخذ في شدها الى بعض جذوع الشجر هناك . واشار سعيد الى الزهراء بان تمشي معه فمشت وهي تحاذر ان يمسها ذلك الكلب بسوء وقلبها يخفق حذراً من الخديعة . أما سعيد فكان يلاطفها حتى دنت من البيت فتناول من

جيبه مفتاحاً فتح به الباب ودخل والظلام حالك فتراجعت وقالت « لا ادخل على الظلام »
فنار مصباحاً هناك ودعاها فدخلت الى بيت مفروش فرشاً بسيطاً فشار اليها ان تجلس فقالت « اين اخي ؟ »

قال « ليس هو هنا وانما اردت ان تستريحي هنيهة »

فاجفلت وقالت « استريح ؟ كنت افضل ان نظل سائرين حتى نصل اليه فقد مضى معظم الليل وسيدركنا النهار و ينبغي ان نكون في القصر في صباح الغد »

فضحك وقال « لا بأس سنكون هناك كما تقولين » قال ذلك وخرج

فالتفتت حولها فلم تزدد الا وحشة واخذت تفكر فيما انتهت من الطيش في تسرعها ولكنها لم تشعر انها كانت مخيرة في ذلك . وارادت ان تصيح وتستغيث فخافت العاقبة فرجعت الى رشدها واخذت تتجلد وتعمل فكرتها . فحدثتها نفسها ان تستغيث بجوهر لعله ينقذها فنهضت ومشت الى الباب فرأت سعيداً واقفاً الى جانبه يكلمه ثم اشار اليه فاسرع نحو الشاطئ وعاد سعيد نحو البيت والكلب يقفز حوله

فرجعت الزهراء الى مقعدها واحست انها وحيدة هناك وقد اصبحت في قبضة سعيد يعمل بها ما يشاء فأخذ قلبها بالخفقان وجاش الحزن في صدرها واحست بالحاجة الى البكاء ولم تستطع ان تحبس دمعها فبكت . ثم دخل سعيد فلما رآها تبكي ضحك وقال « ما بالك تبكين ؟ »

قالت « اخاف ان تكون قد خدعتني »

قال « كيف اخدعك او أريد بك سوءاً وانا انما أريد سعادتك وقد تركت الدنيا كلها من اجل لقائك »

قالت « اين نحن الآن ؟ اين اخي ؟ بالله ارني اياه ثم لا ابالي بعد ذلك ما يصيبني »

قال « تمهلي انك ستريينه وتكونين في اوج السعادة »

وهما في ذلك سمعا صفيراً فاجفلت الزهراء وجعلت تتلفت وهي مذعورة فقال لها سعيد « لا تخافي »

فقالت « وما ذاك ؟ »

قال « هذا ربان السفينة يخبرنا بوصولها »

قالت « واي سفينة ؟ »

قال « سفينة لنا في هذا النهر سننتقل بها الى المكان الذي يقيم فيه اخوك وليس هو بعيداً »

فصفقت وصاحت « ويلاه . . الى اين تذهب بي يا سليمان ؟ الم تعاهدني على الذهاب

الى اخي ؟ »

قال « نحن ذاهبون اليه في الماء وذلك اهون من السفر بالبر »

فقالت « بالله دعني . . ارجعني الى القصر قد استغنيت عن رؤية اخي او غيره . . ويلاه ما هذا ! . اين انا ؟ » قالت ذلك واطلقت لنفسها عنان البكاء

فتقدم سعيد اليها وامسكها بيدها وقال « لا تظني سوءا يا حسناء نحن ذاهبون الى اخيك . . تعالي اخرجي انظري الى السفينة فانها ستحملنا الى منزل تجدين فيه اخاك فتحققين صدق قولي . . »

فاجتذبت يدها من يده وتراجعت ثم اعملت فكرتها فرأت نفسها منفردة هناك وندمت ندماً شديداً على مجيئها ولكنها لم تقطع الامل من لقيا اخيها فتجلدت واطاعت سعيداً في الخروج الى السفينة فرأت الشراع منصوباً فدعاها للنزول فنزلت ولم تجد في السفينة احداً من النوتية وما لبثت ان رأت السفينة تخترق عباب الماء وليس فيها احد غيرهي وسعيد وجوهر

الفصل السبعون

الفشل

فلنتركهم يخوضون الماء ونرجع الى عابدة عند الناصر وهي تسقيه المرطبات وتغنيه وتنادمه . قضت بقية ذلك النهار عنده وهو يتلاهى بالحديث والشراب . فلما اقترب العشاء كأن الشراب والغناء والخلوة نبهت فيه ذكرى ابنه عبد الله فتصور ما كان من تسرعه في قتله وكيف ان الزهراء قالت له انه كان في امكانها اقناعه واستبقاؤه حياً ولامته على تسرعه فاحس بشوق لرؤيتها ومحادثتها فبعث في طلبها فلم يجدها في غرفتها فالح في البحث عنها فلم يقف لها احد على خبر . فغضب وغلبت عليه الحدة فامر برفع المائدة واخرج عابدة وطلب الانفراد ليناجي نفسه في ما فعله هل اخطأ بقتل ابنه ام كان يقدر ان يستبقيه . فقضى بقية تلك الليلة في امثال هذه الهواجس لا يجسر احد على مخاطبته

اما عابدة فكان اخراجها من حضرة الخليفة صدمة قوية للغرض الذي كانت تهيئ نفسها له وسارت توًّا الى غرفة سعيد فلم تجده هناك ولاحظت من حال الغرفة انه خرج

منها خروج المسافر ومكثت على ذلك وهي تصبر نفسها لعله يأتي فمضى هزيع من الليل ولم يأت فخرجت تلتمسه عند الزهراء فوجدت مربيتها وكانت قد تعرفت اليها فسألتها هل رأت سعيداً فقالت « لا هو ولا الزهراء »

فاجفلت عابدة للحال ودلها قلبها على مكيدة فقالت «وكيف اتفق خروجهما معاً؟»

فهزت كتفيها كأنها تتصل من تبعة ما خطر ببالها فادركت عابدة ان تلك الوصيفة تشك في ذلك الامر ثم شاع في القصر كله خبر ضياع الزهراء ولم تبق وصيفة ولا وصيف ولا خادم ولا خادمة الا عرف به وبعث تمام رئيس الخصيان للبحث عنها في سائر القصور فلم يقف لها على خبر

اما عابدة فانها عادت الى غرفة سعيد لتعيد النظر وتتفرس في الاشياء فلم تزدد الا اعتقاداً بفراره فانقبضت نفسها وتولاها اليأس فجلست على المقعد هناك وقد انحلت عزائمها واسترخت كأنها اصيبت بغيبوبة واستغرقت في الهواجس واخذت تراجع تاريخ حياتها مع سعيد وكيف كانت متيمة به وهو يعدها بان يتزوجها وكيف جعل شرط الزواج فوز العبيديين على الامويين واستخدمها في كثير من الاحوال لتنفيذ اغراضه وآخرها دخولها قصر الزهراء على ما علمت وكيف اراد ان يستخدمها في الفتك بالخليفة وكيف انها قبلت بذلك على ان تكون هذه المهمة آخر العقبات في سبيل نيل مرامها ثم هو يفر من القصر بالزهراء . ولما تصورت فراره بها اجفلت وجلست على المقعد والظلام حالك فغلب عليها الانقباض فاركنت الى البكاء

وهي مستغرقة في البكاء سمعت الآذان وعلمت انه آذان نصف الليل فتذكرت وصية سعيد ان تسقي الخليفة العقار وتشربه في تلك الساعة فغلبت عليها الطاعة للاستهواء فنهضت واستخرجت الورقة من جيبها وعمدت الى الكأس وفيه الماء وصبت العقار فوقه واخذت تتأمله وتقول « هل الموت مختبيء في هذا الماء ؟ . . الموت ولا هذا العذاب . . . ولكن لا . لا . ربما صدق سعيد فيأتيني بعد قليل . . . كيف يأتي وقد فرّ بالزهراء ؟ . . لا . لا اظنه يفعل بل هو يشفق على قلبي لانه يعلم مقدار حبي له . »

ثم وضعت الكأس من يدها واسندت رأسها على الحائط فغلب عليها النعاس من فرط التعب فنامت فتوالت عليها الاحلام المزعجة ولم تستيقظ الا على اذان الصبح فنهضت مذعورة لصوت الاذان ورأت الكأس لا يزال كما هو فتناولته وكان الاستهواء قد ذهب تأثيره فانتبهت لنفسها وقالت « اين ذهب سعيد ؟ . هل يعود ويشفق على قلبي . . . سامحك الله ما اقسى قلبك . . واذا لم ترجع فهل ابقى حية ؟ تباً للحياة بعدك . الافضل

ان اموت . . ان الموت في هذا الكأس »

ورفعت الكأس وتأملته وهمت ان تضعه على شفتها فاذا بيد قبضت على ذراعها فوقع الكأس الى الارض وانسكب ما فيه فاجفلت والتفتت فرأت ساهراً بوجه عبوس يقول لها « اين معلمك ؟ . . اين سعيد الوراق الخائن ؟ »

قالت « لا اعلم . . اين هو اني ابحث عنه »

قال « قبحه الله من خائن . . قد وشى بالامير عبد الله والفقيه وعجل قتلها وهو هو سبب خروجها على الخليفة وانتِ معه لانك رفيقته »

فقالت « انا ؟ . انا المسكينة الذليلة ؟ انه خانني قبل كل واحد . . »واطلقت لنفسها البكاء . . فرق ساهر لها وقال « خانك انتر ؟ »

قالت « قد عذبني عدة اعوام وهو يعدني بالزواج فاطمعته الى هذه الساعة ثم ظهر لي انه فرّ . . الم يفرّ ؟ »

قال « يظهر انه فرّ والزهراء معه وقد علم الخليفة بذلك وبعث الي فأمرني ان ابحث عنه فلما وجدتك هممت بالقبض عليك لانك رفيقته »

قالت « ويلاه من ذلك الظالم الخائن . . آه لو القاه لاقتله بيدي قد كنت لهذه الليلة اتعشقه واستهلك في حبه اما الآن بعد ان تحققت خيانته فليس في الدنيا ابغض الي منه ولو تأتى لي ان امتص دمه لفعلت . . » قالت ذلك وهي ترتعد من التأثير وتحرق اسنانها

ومن نواميس الحب انه يزداد بالتبادل او بالامل فالمحب يزداد تعلقاً بحبيبه اذا تحقق انه يحبه او استدل من تصرفه انه سيحبه فيحيا بالامل. فاذا علم بعد ذلك ان امله في غير محله وان ذلك الحبيب كان يخادعه تصيبه صدمة الفشل فينقلب حبه بغضاً ويشتد بغضه بنسبة ذلك الحب — وهكذا اصاب عابدة لما تحققت خيانة سعيد لها فانها نقمت عليه نقمة لا تقاس بها نقمة اعدى الاعداء

فقال لها ساهر « انت طبعاً تعرفين منزله ومخبآته في قرطبة وارباضها »

قالت « اعرف . . نعم اعرف كثيراً من احواله » وحرقت اسنانها

قال « اتبعيني » ومشى نحو غرفة الخليفة فلقي تماماً رئيس الخصيان « فاخبره ان هذه الجارية تعرف كثيراً من مخبآت ذلك الخائن لانها كانت معه وقد خدعها وخانها وكاد يقتلها فهي تدلنا عليه اذا امر الخليفة بشرذمة ترافقنا نذهب الآن للبحث حالاً »

فدخل تمام على الناصر وقص عليه ما قاله ساهر فامر ان يرسلوا معه شرذمة من الفرسان الاشداء ومعهم عابدة ترشدهم الى المكان فهيأوا الافراس واتوا عابدة بفرس

ركبت عليه وركب ساهر على فرس الى جانبها وقد اعجبه ما ظهر من ادبها . وكان قد استلطفها كثيراً منذ رآها في قصر مروان منزل الامير عبد الله وتولدت فيه حاسة الشفقة عليها الآن . وكان حسن السريرة مخلص الطوية شديد الحب مع انه خصيٌّ لا يرجو من وراء الحب غير تعب القلب . ولكنه كان قد احب الزهراء الى درجة العشق ويكتفي من حبها ان تبتسم له وتظهر رضاها بعمله وقد خدمها في التجسس على عبد الله خدمة حسنة ولذلك كان من اكثر الناس غضباً على سعيد لفراره بها

الفصل الحادي والسبعون

الفخ

اما سعيد فقد تركناه على ظهر السفينة ومعه الزهراء وقد تولاها الخوف واوشكت ان تيأس من النجاة لكنها صبرت نفسها لترى عاقبة الصبر . فجرت السفينة بهم ساعة والريح خفيفة وسعيد يحاول استرضاء الزهراء وهي لا تزداد الا اضطراباً تنتقل في السفينة من جانب الى جانب تتطلع الى الشاطيء والظلام يحجب الشاطئين عنها لولا ما تراه من بصيص الانوار في بعض الاماكن

وكان جوهر في اثناء ذلك متشاغلاً لا يتكلم . فرأت سعيداً يغافل جوهراً ويدور من ورائه وبيده كيس معلق بحبل قد حمله سعيد ومشى الهوينـاء وجوهر مشتغل بربط حبل الشراع الى السـارية وقد وقف على حافـة السفينة والظلام حالك والرجل في غفلة فاستغربت الزهراء ذلك التلصص ولم تفقه له معنى . على انها لم يطل نظرها في الامر حتى رأت سعيداً وثب على جوهر فجعل ذلك الحبل حول عنقه ورفسه برجله فسقط في الماء الى قاع النهر فصاحت الزهراء « ويلك ماذا فعلت ؟ » ووقفت وركبتاها ترتجفان وهي تنظر الى الماء تتوقع ان يعوم جوهر فلم يعم لان في الكيس حجراً اغرقه الى القاع . فصاحت « ما هذا » فتجاهل سعيد ثم قال « لعل جوهراً وقع في الماء »

فقالت « تقول ذلك وانت اغرقته ؟ »

قال « ما لنا وله دعينا وحدنا »

فايقنت عند ذلك وقوع الخطر فصاحت فيه « ويلك يا خائن .. كيف قتلت

الرجل وهو خادمك الامين . ما اسهل القتل عليك .. »

وكان سعيد قد قبض على الدفة وجعل يديرها نحو الشاطيء فلم يجبها حتى رست السفينة فنهض اليها وتناولها بيده وقال « اطلعي الى البر »

فتراجعت وقالت « الى اين ؟ لا . لا اطلع »

قال « اتريدين البقاء في السفينة ؟ »

قالت « بل القي بنفسي في الماء . الموت خير لي من رفقتك » واجتذبت يدها من يده وهمت ان تلقي نفسها في النهر

فمنعها وهو يقول « الا تريدين ان تلاقي اخاك ؟ قد وصلنا الى مكانه وخلصنا من التعب »

فلما سمعت قوله عادا اليها املها واطاعته فنزلت الى البر وقد بان الفجر فالتفتت الى ما حولها فاذا هي في بستان في وسطه بيت كالذي كانت فيه منذ هنيهة وراث البغال هناك ايضاً ثم شاهدت الكلب الذي رأته بالامس واذا بسعيد قد تناول المفتاح وفتح الباب واشار اليها ان تدخل فتحققت انها في البيت الذي كانت فيه منذ بضع ساعات وان سعيداً لم يركب السفينة الا ليغرق جوهراً في الماء فاصبحت ترتعد من فظاعة ذلك العمل ولما دعاها للدخول ابت وقالت « لا ادخل او تقول لي اين اخي ؟ »

قال « يظهر ان اخاك وسائر رجالنا فروا من هذه الديار لما بلغهم مقتل الامير عبد الله والغالب انهم رجعوا الى القيروان اذ كان موعدنا من اول الامر انه اذا احسسنا بالفشل ونحن في اي مكان رجعنا الى القيروان . فما علينا الآن الا ان نذهب الى هناك »

قالت « الا تزال تخدعني . قد انكشفت لي خيانتك ولكن ويلاه بعد ان ضاعت حياتي .. » قالت ذلك وقعدت على الارض واخذت تبكي وتلطم وجهها

فامسكها سعيد واراد انهاضها وهو يقول لها « لا تستسلمي الى الظنون .. ما انا والله خائن وانما انا محب عاشق . اقلعي عن هذا الجنون وتعالي معي الى القيروان فتشاهدين اخاك وبعد ذلك اذا شئت الرجوع به الى قرطبة والا بقينا هناك بارغد عيش »

قالت « الا تزال تذكر الحب والغرام وقد ظهرت خيانتك ؟ »

فامسك بيدها وقال « ادخلي الى البيت وافعلي ما شئت .. لا فائدة من بقائك هنا .. قومي ادخلي »

فاطاعته ونهضت حتى دخلت البيت وعرجت الى اقرب الغرف فوقفت الى الحائط وهي في غاية الاضطراب

فجثا امامها جثو المتضرع وقال « آه يا حسناء والله اني احبك .. احبك . وتحبك كل جارحة من جوارحي ... قد ركبت الخطر واقترفت الذنوب واتيت الفظائع طمعاً بالوصول اليك . ايعقل اني اخونك ؟ سترين مني ما ينسيك هذا العذاب — نعم اني اسأت الى كثيرين ولكنني فعلت ذلك في سبيل حبك ارحمي متيماً دنفاً لايطلب من الدنيا سواك » قال ذلك بتذلل ويكاد الدمع يتناثر من عينيه وهو شاخص اليها

الفصل الثاني والسبعون

اليأس

اما هي فكانت تسمع كلامه وهي مطرقة فلما فرغ من قوله دفعته بيدها وقالت « اتعترف بجرائمك وذنوبك ثم تطلب اليّ ان احبك ؟ اني لا احبك ولا اقدر ان احبك .. »

فتململ واعتدل في مقعده وقال « نحن هنا وحدنا وترينني استعطفك واتذلل لك فلا تستبدي بي واسمعي نصحي .. »

قالت « ان من يزعم انه محب لا يكذب حبيبته ولا يخونها »

قال « انت حبيبتي ومتى خنتك ؟ »

قالت « الم تأت بي الى هنا لمشاهدة اخي فاين هو ؟ »

قال « قلت لك انه رجع الى القيروان ودعوتك للذهاب اليه فلم تقبلي »

قالت « هل يعقل فرارهم جميعاً ؟ »

قال « نعم هذا كان موعدنا انه متى شعرنا بالفشل ننتقل الى القيروان .. فلما سمعوا بمقتل عبد الله وابن عبد البر ويلسر واطلاع الناس على امرهم فروا — وقد اخطأوا لانهم لو انتظروا مجيئي الآن لعلموا ان عدوهم الاكبر قد مضى »

قالت « من تعني ؟ »

قال « اعني اكبر عدو نخافه ونخشى بأسه »

قالت « لا اعرف احداً تعنيه الا ان يكون الناصر »

قال « هو اعني »

فاجفلت وقالت « ماذا تعني بانه مضى ؟ »

قال « لا تعجبي . . اعني انه مات »

فتراجعت وصاحت « الناصر ! الناصر مات ؟ خسئت ان باعك اقصر من ان تناله »

فوقف وهو يهز كتفيه ويقول « سواء صدقت او لم تصدقي فقد قلت لك الواقع ومع ذلك فهو بعيد عنا ولا شيء يمنعني مما اريده واذا بقيت على عنادك جعلتني اعمد الى العنف »

فتفرست في وجهه وقالت « لك ان تقتلني وتقدر ان ترميني في هذا الماء كما رميت ذلك الخادم الامين ولكن لا يمكنك ان تحول بغضي الى حب وانت قد ارتكبت ما ارتكبته حسب قولك التماساً لحبي وانا لا احبك . . لا احبك . . فافعل ما تشاء . . اقتلني . . »

فنظر اليها نظر الاستغراب وقال « اظنك لم تفهمي مرادي . . انك اذا اقلعت عن هذا العناد واطعتني ليس فقط تلاقين اخاك بل تعيشين عندي عيشة الملكة الآمرة الناهية . . »

قالت « فهمت كل ما تقوله ولكني لا اقدر احبك — اقول ذلك مع علمي ان موتي وحياتي بين يديك . فافهم »

فقال « يا لله ما هذه الوقاحة »

قالت « لا تكثر الكلام . ليس عندي غير ما قلته لك وان ما تزعم انك فعلته في سبيل حبي لا يزيدني الا بغضاً لك واذا خيرت بينك وبين الموت لاخترت الموت عليك الا يكفيك هذا التصريح اقتل ثم اقتل » قالت ذلك وقد احمرت عيناها من البكاء والغضب واخذت ترتعد وقد اصطكت ركبتاها ولم تعد تستطيع الوقوف فقعدت وقد خارت قواها واسرع تنفسها واوشكت ان تصاب بنوبة عصبية . ثم انقلب ذلك الغضب بغتة الى حزن فغلب عليها البكاء فاخذت تندب نفسها وتلطم خديها وتقول « ويلاه يا زهراء . . . اين انت يا سيدي الناصر . . . نصرك الله على اعدائك واذا علمت بموتي فاعلم اني مت على ولائك . فاني محبة لاحبائك عدوة لاعدائك الى آخر نسمة من حياتي . . آه . آه . . تباً لك يا سعيد او يا سليمان او كما تسمي نفسك . . قد ارتكبت آثاماً كثيرة الم يكن الافضل لك ان تقتل نفسك وتخلص الناس من شرك ؟ امن اجل هذا الحب الذي تزعمه ارتكبت هذه الآثام — انت تكلفني ان احبك ولا طاقة لي بذلك . .

دعني . . او اقتلني وليس لك مأرب ثالث » ولما فرغت من قولها كان قد انهكها التعب وهي لم تنم طول الليل الماضي فضلاً عن الغضب والخوف فخارت قواها وهي لا تزال في ثوب صاحب البريد

اما سعيد فكان يسمع توبيخها وتعنيفها وهو صابر براعي حركاتها وسكناتها ويتردد بين ان يبقى على المحاسنة او يأتيها بالعنف فلما رآها استلقت منهوكة القوى وقد امتقع لونها وكاد يغمى عليها قعد امامها ومدَّ يده الى راسها واراد ان يمر يده على جبينها لعله يؤثر عليها بكهربائيته او مغنطيسيته فحالما لمست يده جبينها نهضت مذعورة كأنها وخزت بحربة ونفرت منه فنهض وقد اخذه الغضب وجرى في اثرها وهو يحاول ان يحوق خصرها بذراعيه وهي تحاشى ان يمسها فافلتت منه وقد تدلى شعرها على كتفها وهمت ان تخرج من البيت الى البستان فسبقها واقفل الباب فاصبحت سجينة ولكنها احست بقوة لم تعهدها في نفسها من قبل والتفتت الى سعيد وقالت « اهذا ما تزعمه من حبك! تثب عليَّ كالوحش الكاسر والله انك لا تأخذني الا جثة هامدة »

فتراجع وقال « كم توسلت اليك وتذللت لك فلم تقبلي وهل يليق بي وانا لا يعجزني قلب المهالك وتفريق الجنود ان اعجز عن اخضاعك ؟ »

قالت « قلت لك يمكنك ان تقتلني فقط . هذا كل ما يمكنك ان تفعله معي والقتل لا يهمني . . اقتلني كما قتلت سواي وعش هنيئاً . . ماذا ينجيك من غضب امير المؤمنين الى اين تفر من سيف نقمته ؟ »

فضحك ضحكة ضج لها المكان وقال « قلت لك ان الناصر مضى الى حال سبيله »

فصاحت « ان يدك اقصر من ان تناله »

قال « يظهر انك لم تعرفي من انا بعد وسوف تعلمين »

الفصل الثالث والسبعون

شد الوثاق

قال ذلك واراد ان يتحول عنها ليتناول شيئاً في غرفة أخرى فسمع نباح الكلب نباحه اذا استغرب قادماً فاجفل سعيد وانصت واذا بدبدبة خيول قد تعالت فتركته الزهراء مشتغلاً بالتنصت وفتحت الباب ووثبت الى الخارج فعثرت بالعتبة ووقعت لكنها

عادت فنهضت واذا بعشرات من الفرسان قد ملأوا البستان وفي مقدمتهم فارسان عرفت منهما ساهراً فصاحت «ساهر . . ساهر . . لله درك . . عليكم بهذا الخائن احيطوا بالمنزل واحذروا ان يفلت منكم »

فهرولوا بافراسهم حول المنزل وجاء بعضهم من ناحية الباب فخرج اليهم سعيد وقد تبدلت سحنته وجحظت عيناه وقال لهم « لا تزعجوا انفسكم ها اني بين ايديكم لا احمل سيفاً ولا سكيناً ولا تخافوا فراري » قال ذلك بهدوء وسكينة كأن لم يكن شيء مما كان

فتقدم اليه ساهر ووراءه جماعة قد صوبوا بسيوفهم الى سعيد وقال له ساهر « تسمح لي ان اشد وثاقك ؟ »

فمد يديه وقال « افعل »

فاخذوا يشدون وثاقه وهو ينظر الى ما بين يديه فرأى عابدة بينهم فقال «عابدة ! وانت ايضاً ؟ »

فلم تجبه ولكنها تقدمت الى الزهراء واخذت تخفف عنها فسألتها الزهراء عن الناصر فقالت « هو في خير وكيف انت وكيف جئت معه ؟ »

قالت « اتيت معه لأرى اخي »

قالت « ومن اخوك »

قالت « يسمونه صاحب النقمة »

قالت « صاحب النقمة اخوك . . الم تريه ؟ »

قالت « لم اجده هل تعرفين مكانه ؟ »

قالت « نعم اعرفهُ »

فصاحت « بالله اين هو ؟ خذيني اليه »

فاشارت اليها ان تنتظر والتفتت الى ساهر وكان قد شد وثاق سعيد وعمد به الى اربعة يحرسونه وجاء في الحال الى الزهراء ووقف متأدباً وقال « هل تأمرسيدتي بشيء اجريه اني عبدها المطيع »

قالت « بورك فيك من شهم لقد جئتني بالفرج في ابان الضيق جزاك الله خيراً »

فابتسم وقال « ان هذه الكلمة من فيك تساوي عندي كل اموال العالم — ولا تنسي ان لعابدة الفضل الاكبر لانها دلتنا على هذا المكان ولولاها لم نعمل شيئاً »

فالتفتت الزهراء الى عابدة وضمتها الى صدرها وقالت « ولا انسى فضلك ياعزيزتي ويزداد ذلك الفضل اذا استطعت ان تهديني الى اخي »

قالت « انا اعرف مخبأه لكنني لا اقدر ان ادعوه فانه لا يصدقني بل ربما فتك بي »

فقال ساهر « انا اسير اليه . قولي اين هو مكانه »

قالت « ولا انت فانه يسيء الظن بكل رجال الناصر وكل اهل الاندلس وخصوصاً الآن بعد شيوع مقتل الامير عبد الله »

قال « ما الحيلة اذاً ؟ »

قالت « الحيلة ان نأخذ اليه كتاباً او علامة من سعيد فانه يأتي سريعاً لانه يحترمه احترام العبادة . . »

فقال ساهر « لا اظن سعيداً يعطينا كتاباً أو علامة »

قالت عابدة « انا اكلمه . . دعوني ادخل اليهِ وحدي »

قالت ذلك ودخلت عليهِ وهو مشدود الوثاق في احدى غرف ذلك البيت . وكان جالساً وقد اقطب حاجبيه واطرق كانه يفكر وبان الاهتمام في عينيه فلما لمح ظلها رفع بصره اليها فلم يتمالك عن ارسال دمعتين فلما رأته يبكي خفق قلبها وتذكرت ما كان له من المنزلة الرفيعة في نظرها وكيف قضت عدة سنوات وهي ترى السعادة في رؤيته والموت والحياة بين شفتيه فتأثرت من منظره وغلب عليها الحنو فقالت « يسوءني يا سيدي ان أراك في هذه الحال . وانا الجانية عليك لاني دللتهم على مكانك ولكنك اذهبت رشدي باعمالك »

فقطع كلامها قائلاً وهو يظهر التجلد « لا ذنب لك يا عابدة وانما الذنب لي . . انا لا انسى ما اقترفته من اسباب الشقاء لك وكم عرضتك للموت . . اعرف هذا كله ولذلك فلا لوم عليكِ مهما فعلت وسيسوقونني الى الخليفة او غيره وسيقتلني طبعاً . فهذا كله لا يهمني لان الحياة لم تعد تحلو لي . . . » وسكت هنيهة ثم قال « ماذا فعلتِ بالناصر هل اصابهُ سوء ؟ »

قالت « لا . لاني لم اقدر على تنفيذ امرك »

فتنهد تنهداً عميقاً وقال « الحمد لله . . اشعر الآن ياعابدة كاني صحوت من رقاد او افقت من اغماء . . فاذا كنتِ قد تعمدت نجاة الخليفة فان لك الشكر ؟ »

قالت « الحق يقال اني لم اتعمد ذلك قط » وقصت عليه ما وقع بالاختصار ثم قالت « لعل الخليفة اذا تأكد رجوعك وتوبتك يعفو عنك ليستفيد من علمك ودهائك »

فهزّ رأسه هزة الانكار والاشمئزاز وقال « لا . لا احب البقاء بعد الآن لان نفسي لا ترضى بدون منصب الملك او الخليفة . اما وقد تعذر ذلك فالقبر اولى . . وقد خدعتك وخدعت سواك وفتكت وغدرت رغبة في ذلك المطمع فاسقط بيدي فاحب الآن

ن اخدمك بشيء تريدينه »

قالت « لا أريد شيئاً . . سوى ان الزهراء . . . وهذه قد لحقها منك عذاب شديد (فخرق اسنانه عند سماع اسمها) فاذا كنت تشعر بذلك فكرمها بايصال اخبارها اليها. وانا اعرف مكانه لكنني اعلم انه لايصدق سواك ولا يثق بغيرك فارسل اليه علامة منك او كتاباً ان يحضر الى هنا ومتى جاء كنت وسيلة في تعريفه الى اخته وهذه كفارة عن كل سيئة تك معها . . »

قال « افعل ذلك . . مدي يدك الى هذا الخاتم تناوليه من اصبعي واذهبي الى المنزل الذي تعرفينه واطلبي سالماً ولا تسمه صاحب النقمة فمتى جاءك اعطه هذا الخاتم واسأليه ما شئت »

فمدت يدها واستخرجت الخاتم من يده واخذت وهي تستخرجه ببرودة اطرافه فتجاهلت ولما ارادت الخروج ناداها فعادت فقال لها « انت تعلمين ان القوم الذين اغريناهم على الثورة لا يزالون يجتمعون هنا ك وتعلمين ان الذنب في ذلك ذنبي انا فهؤلاء لا تزال الدولة تعدهم اعداءها فاذا عرفت مكانهم ربما فتكت بهم فتزيد ذنباً آخر الى ذنوبي فينبغي ان تذهبي انت وحدك وتحتفظي بهذا السر وتأتيني بصاحب النقمة وحده وانا ارشده الى الحقيقة. وهذا المفتاح في جيبي لتفتحي به الباب الخارجي وهو يعود فيقفل تلك الجمعية ولا يعرف احد بها ولا تجدين الآن منهم احداً هناك كما تعلمين »

قالت « حسناً » واستخرجت المفتاح ورجعت الى الزهراء وقالت لها « هذه هي العلامة وانا اذهب بها لآتيكم بسالم ومتى جاء فان سعيداً يتم المعرفة »

الفصل الرابع والسبعون

صاحب النقمة

تنكرت عابدة بلباس رجل ومشت حتى دخلت ذلك الدهليز واتصلت منه الى الباب وطرقته الطرقة التي عرفتها تخرج اليها شاب ملثم الوجه وقال « من الطارق »

فقالت « افتح وخذ الرسالة » ففتح كوة صغيرة في الباب فمدت الخاتم منها وحالما رآه فتح الباب ودعاها للدخول وهو يحسبها رجلاً فقالت « ان صاحب هذا الخاتم يدعوك اليه الآن انه على مقربة من هذا المكان »

قال « هل هو في ضيق ؟ »

قالت « لا . . ولكنهُ يحب ان يراك وحدك »

فدخل وغير ثيابه وخرج معها حتى تجاوزا الدهليز وهو يتفرس فيها لانه طرب لرخامة صوتها وشعر انها امرأة فقفى مسافة الطريق وهو يسألها الاسئلة ولو بغير باعث ليسمع صوتها وكلما سمعه زاد استئناساً بهِ وقد تذكر انه سمعه قبلاً وطرق باب قلبه

وبعد قليل اقتربا من البستان فسمع سالم صهيل الافراس وعلم انها افراس صقالبة الناصر فوقف وقال لها « اخاف ان يكون في الامر دسيسة يارجل او يا امرأة »

قالت « كلاَّ يا سيدي وسترى ذلك حال وصولك »

قال « لا . . لا اخطو خطوة من هذا المكان قبل ان ترفعي عنك هذا القناع »

قالت « اخاف ان تعرفني » قالت ذلك وازاحت اللثام

وحالما وقع نظره عليها عرفها فصاح « عابدة ! اين سعيد ؟ ماذا ارى »

قالت « لا تخف يا سالم . . اما وقد عرفتني فلم يبقَ باعث عَلَى الحذر وعما قليل ترى سعيداً وهو يقصُّ عليك خبراً جديداً »

وكان سالم قد خرج وعليه عباءة وتحتها السيف والخنجر وكان طويل القامة عظيم الهيبة جميل الخلقة يكاد الشرر يتطاير من عينيه لا يهاب العشرة اذا لقيهم وحده وقد تعوَّد الضرب والطعن فلما سمع قول عابدة وهو يعلم منزلتها عند سعيد واختبر غيرتها عَلَى احزابه . مشى معها حتى وصلا الى باب البستان وكانت الزهراء قد اختبأت في احدى الغرف ريثما يقابل اخوها سعيداً ويمهد السبيل للتعارف

فمشت عابدة بين يدي سالم في البستان ومشى هو في اثرها مشية البطل الباسل لا يبالي بما هنالك من الخيول حتى وصل باب البيت فسبقته عابدة الى سعيد وانبأته بمجيئه وكلفته ان يخاطبه ليستأنس به لئلا يستنشها فصاح من الداخل « سالم ! »

فلما سمع صوته وثب اليه وهو يقول « لبيك ياسيدي » وما عتم ان رآه موثقاً عَلَى تلك الصورة حتى صاح « ماذا أرى » واستل سيفه وقال « تفديك روحي من اوثقك ؟ »

فاجابه سعيد بهدوء وسكينة « تمهل يابني نحن في حال آخر . انا اوثقت نفسي وانما دعوتك لاعترف لك اني خدعتك »

فاستغرب سالم قوله وقال « خدعتني ! معاذ الله »

قال وهو يفص بريقه « نعم خدعتك وخدعت آخرين . مالنا ولذلك احب ان انصحك نصيحة الوالد . اعلم ياسالم ان المشروع الذي قمنا له فشل وقد تعلم فشله من مقتل

الامير عبد الله ورفيقه لانهم اتهموا بالانتماء الينا . . والصواب الآن الرجوع عن هذا الامر . . »

فصاح « نرجع عنه ؟ . انا لا ارجع . . خصوصاً بعد ان جاهر ذلك الخليفة برغبته في الاقتصاص مني فقد بلغني انه كتب ذلك على اللوح الذي اعلن فيه الاعدام »

قال « نعم قد فعل ولكن لا فائدة من مقاومته وليس من الحكمة مقاومته عبثاً فالرجوع الى الصواب اولى . . اخبر بذلك سائر الرفاق »

قال « لا حاجة الى اخبارهم فانهم تفرقوا من الامس خوفاً بعد اطلاعهم على ذلك الخبر »

قال « وانت »

قال « كنت عازماً على البقاء والمثابرة على السعي في هذا السبيل عملاً بما بثثته فيَّ من الانفة وطلب الحق .. ولكن . . »

قال « قد قلت لك رأيي في هذا الشأن »

قال « وانت الى اين ذاهب بهذا الوثاق »

قال « اني ساساق الى الخليفة ليحاكمني »

قال « وكيف تقبل بذلك — دعني انجيك من الآن بحد هذا الحسام »

قال « لا تفعل . . »

قال « اذهب اذاً معك للمحاكمة او القتل ولا اتخلى عنك »

قال « تأتي معي ولكن لتكون سعيداً صاحب القول الفصل والكلمة النافذة في بلاط الخليفة »

فدهش لهذا القول ولم يفهمه فقال « ما ذا تعني . . ان الناصر لا يكاد يقع بصره عليَّ حتى يأمر بقتلي لاني كنت اكثر اعدائه مجاهرة بعداوته »

قال « نعم . ولكن لك شفيعاً لا ترد شفاعته »

قال « من هو ذلك الشفيع ان لم يكن انت »

قال « الا تذكر اختك حسناء »

فقال « دعني من ذكراها فقد مضت عدة اعوام لم اذكر اسمها ولكنها لم تبرح صورتها من ذهني . . ما الذي بعث الى ذكرها الآن »

قال « لانها ستكون شفيعة لك عند الخليفة »

فصاح قائلاً « اختي حسناء ! هل هي حية باقية ؟ اين هي . . ام انت تعني شيئاً آخر »

قال « اختك حسناء حية وهي الآن صاحبة المقام الاول عند الناصر »

الفصل الخامس والسبعون

اللقاء

فاطرق سالم وهو يفكر في ما سمعه ولا يصدقه . ثم رفع بصره الى سعيد وقال « اصدقني الخبر ياسيدي . . فقد فهمت منك مراراً انها ماتت »

قال « نعم قلت لك هذا ولذلك اعترف لك الآن اني خدعتك فان اختك لا تزال حية وهي اقرب الناس من الناصر »

قال « يا للعجب . . ماذا اسمع ؟ . كيف غاب عني هذا الامر كل هذه الاعوام وانا على مقربة منها ؟ . »

قال « لانك لا تعرف اسمها الجديد فكما غيرت اسمك من سالم الى صاحب النقمة غيرت هي اسمها من حسناء الى الزهراء »

فصرخ وقد دهش وقال « الزهراء ! . . الزهراء حظية الناصر اختي ! . . ماذا تقول ؟ »

قال « نعم ان الزهراء اختك وهي تتفانى في حبك »

قال وقد جحظت عيناه « هل تعلم هي بوجودي ؟ »

قال « كانت تحسبك ميتاً الى الامس فاخبرتها بوجودك حياً فهربت من بيت الخليفة واتت معي ليلاً لتراك وتنصح لك بالرجوع الى طاعة الناصر »

فصاح وقد اخذته الدهشة « اين هي ؟ »

قال « هي قريبة منك » واشار بعينيه الى ذلك المكان

قال « هي هنا الآن ؟ » وتلفت حوله

وكانت الزهراء ساعة رجوع عابدة مستلقية في بعض غرف البيت للراحة من عناء ذلك الليل فدخلت عليها عابدة وحدها فنهضت وسألتها عن سالم فقالت « انه سيأتي بعد قليل لانها تركته في بيته يتأهب للمجيء »

فقالت « اصدقيني . . اظنك لم تجديه او لعله فرّ أو مات ؟ قولي »

فقالت « وحياتك هو حيٌّ وسيأتي بعد قليل »

فصدقتها وصبرت نفسها وهي كلما سمعت حركة أو صوتاً تحسب اخاها قادماً وعابدة تشاغلها ريثما يفرغ سعيد من التعريف . . واذا بالزهراء نهضت فجأة وقالت « اسمع صوت اخي . . . هذا صوته يرن في اذني . . . » وهرولت نحو الباب فمشت عابدة معها ولما دنت من الغرفة التي كان سعيد فيها سمعت كلاماً فقالت « اسمع سعيداً يتكلم . مع من ؟ »

قالت « ستعلمين بعد قليل »

قالت « اظنه يكلم اخي . . » واقتربت من الباب وكان مغلقاً فسمعت اخاها يقول « هي هنا الآن ؟ »

فعرفت صوته ففتحت الباب وكان هو يقول ذلك ويتلفت حوله فوقع بصره عليها وهي لا تزال بلباس صاحب البريد فلم يعرفها . اما هي فوقفت لحظة تتعرف ملامحه وتتفرس فيه . وما عتمت ان القت نفسها عليه وهي تصرخ « اخي . . اخي سالم ! »

فلما سمع صوتها عرفه فضمها اليه وتعانقا وتضاما وعابدة وسعيد ينظران اليهما نظر الاشفاق وسعيد كانك ابدلته بسواه فقد تغير قلبه وتبدلت عواطفه وأحس بالفظيعة التي اوشك ان يرتكبها لولم تتداركه عابدة بالجند ويقبضوا عليه . فانه كان عازماً على الفتك بها وباخيها !اذا هي لم تبادله الحب والغرام . فلما راى تعانقهما والدموع تتساقط من عينيهما فرحاً بذلك اللقاء شعر بخطر الذنب الذي كان عازماً على ارتكابه واحس بلذة الاحسان في هذا اللقاء لانه كان وسيلة التعارف بين الاخوين مهما كان قصده فجعل يتأمل حركاتهما فكانا يفترقان لحظة ريثما يتأمل احدهما بوجه صاحبه ثم يعودان الى العناق

أما عابدة ففرحت لانها كانت الوسيلة في انقاذ الزهراء واخيها وسرها على الخصوص انها لم تقتل الخليفة ولا هو علم انها كانت عازمة على قتله وان لم يكن ذلك العزم من ذنبها

أما سالم فانه بعد ان قبل اخته مراراً تباعد ونظر الى ما حوله ثم نظر الى اخته وقال « لا ازال احسبني في منام لاني كثيراً ما ضممتك في منامي وقبلتك مثل هذه القبلات ثم استيقظ فلا اجد احداً »

قالت « انت في يقظة ياحبيبي وقد تمت سعادتي الآن بلقياك »

فقال « اليس الفضل في هذا الاجتماع لصديقنا سعيد ؟ »

قالت « نعم له فضل . . » وتنهدت فصاح فيها سعيد وقال « انا اولى بهذا التنهد ياحسناء » قال ذلك وهو مغلول اليدين فلم يستطع سالم مشاهدته على تلك الحالة

فقال لاخته « حلوا وثاق سعيد واذا كان له ذنب فهو لا يفرُّ »

فاعترضه سعيد قائلاً « لا . لا اريد ان يحل وثاقي . . »

فحوّلت الزهراء انتباهه الى عابدة وقالت « ان الفضل الاكبر في هذه اللقاء حقيقة هو لهذه الاديبة اللطيفة . هل تعرفها ؟ »

فهزَّ رأسه مجيباً وقال « نعم . . نعم اعرفها »

قالت « وهل عرفتها قبل الآن ؟ »

قال « عرفتها مع سعيد الوراق . . . يا للعجب ما ذا أرى ؟ اهذا سعيد صاحب الراي الصائب والقول الفصل . . . »

أما عابدة فكانت قد توسمت في ملامح سالم وحركاته تودداً اليها واعجاباً بها فتحرك قلبها وهي اول مرة تحرك قلبها لغير سعيد فغضبت لتحركه خوفاً من ان يسوقها الى بلاء جديد فاحبت ان تلهو عن ذلك بشيء آخر فقالت للزهراء « وهل نسيت يا سيدتي ساهراً ؟ . . . »

قالت « لا انسى فضله من وجوه كثيرة . . . أما لقاء اخي فانا مدينة به لك بنوع خاص . . »

ثم نادت ساهراً وكان في طرف البستان مع سائر الخصيان فاتى ووقف متأدباً فقالت له « هذا اخي صاحب النقمة »

فاجفل وصاح « اخوك ! . هذا اخوك ؟ وتقولين صاحب النقمة . . اليس هو طلبة امير المؤمنين . . اعوذ بالله كيف يكون اخاً لاعز الناس عنده ؟ »

فقالت « وسيكون هو من أعز الناس عنده لانه اخي . . »

فحنى رأسه موافقاً وقال « نعم سيكون . . . والآن ياسيدتي الا نعود الى القصر فان اهله في قلق شديد لغيابك »

قالت « نمضي حالاً »

فخرج وامر الصقالبة ان يتأهبوا للركوب ويجعلوا سعيداً محفوراً وهو معهم . وسار الجميع قاصدين القصر

الفصل السادس والسبعون

المحاكمة

أما القصر فكان اهله في وجل لغياب الزهراء . وقد علموا بذهاب ساهر والصقالبة للتفتيش عنها والخليفة اكثر الجميع قلقاً وغضباً ولو أُخذت الزهراء وهو في ريب من اخلاصها لكان وقع المصيبة عليه اخف كثيراً . اما الآن بعد ان ظهر له من حبها واخلاصها في خدمته ما ظهر فضلاً عن تعقلها ورويتها فاصبح شديد التعلق بها يفديها باعز ما لديه

فقضى معظم ذلك النهار في قلق لا يرتاح له بال وهو يرسل الوصيف اثر الوصيف يتشوفوا الطريق عن بعد وصعد هو على منارة من منائر جامع الزهراء ليشرف منها على الطريق المؤدي الى قرطبة فلم يرَ شيئاً

وفي الاصيل جاء البشير برجوع ساهر والصقالبة ومعهم سعيد والزهراء وعابدة ورجل آخر لم يعرفوه فأمر ان يؤتى بهم الى بيت المنام في قصر المؤنس وجلس لهم مجلسه يوم جاءته عابدة وسعيد حيث البركة وعليها التماثيل الذهب وغيرها

فادخلوا عليه اولاً الزهراء وهي لاتزال بلباس صاحب البريد . فلما رآها استغربها فكشفت عن وجهها واكبت على يده قبلتها فلما عرفها صاح بها « ويلك ما هذا ؟ »

فقالت « هذا الثوب الذي تنكرت به ساعة الفرار »

فاقطب حاجبيه وقال « ساعة الفرار ؟ . . لماذا تفرين ارأيت مني انكاراً لحقك ؟ وانت اعز الناس عندي لما تأكدته من صدق مودتك واخلاص طويتك ... كيف تفرين ؟ . »

قالت « فررت الى اخ لي كنت قد اضعته ثم بلغني انه موجود في مكان بالارباض فذهبت لأراه »

قال « وما كان اجدرك ان تطلبي احضاره فيجيئك ولو كان وراء سد ياجوج »

قالت « نعم اعلم ذلك ولكني اخاف على اخي من امير المؤمنين »

قال « تخافين على اخيك مني ؟ »

قالت « نعم يا سيدي . . انما خوفي منك وحدك وليس من سواك »

قال « الى هذا الحد تسيئين الظن فيَّ ؟ هل اكافئك على صنيعك الجميل باذى

اخيك ؟ »

قالت « ايعدني امير المؤمنين اذا جاءه اخي وكان مذنباً ان يعفو عنه »

قال « لك ذلك »

قالت « ولو كان ذنبه كبيراً ؟ »

قال « ما ذا عسى ان يكون ذنبه نحوي ؟ »

قالت « قد يكون من الخارجين على الدولة . . »

قال « اعفو عنه اكراماً لك ولو كان صاحب النقمة »

قالت « هو صاحب النقمة يا سيدي بعينه »

فاستغرب قولها وقال « وكيف يكون صاحب النقمة اخاك ؟ »

فقصت عليه حديثها عن اخيها باختصار وما كان من امر سعيد وكيف احبها ولم تحبه وما فعله الى ان فرّ بها بالامس وكيف انقذها ساهر وعابدة

وكان الخليفة يسمع كلامها باستغراب ودهشة فلما فرغت منه انجات اشياء كثيرة لم يكن يفهمها وتبين له امور كثيرة تزيد ثقته بالزهراء فقال لها « لقد عفونا عن اخيك ابن هو . ؟ »

فامرت احد الغلمان ان يدعو سالماً فخرج وعاد به فدخل سالم وهو يمشي مشية الشجاع مع احترام فاعجب الناصر بما في وجهه من دلائل البسالة والجمال فاشارت اليه الزهراء ان يقبل يد الناصر ففعل ووقف فقال له الناصر « انت صاحب النقمة ؟ قد بلغنا خبر خروجك علينا في جملة الخارجين فما الذي رايتموه من الناصر حتى خرجتم عليه ؟ »

فخافت الزهراء ان يقول اخوها كلمة تغضب الناصر فيعود الى الانتقام فقالت « الم يعف امير المؤمنين عنه ؟ »

قال « عفوت ولكنني لا افهم ما يحمل هؤلاء على الخروج وكان الاسلام على وشك السقوط فانهضته وكانت الدولة مبعثرة فجمعت شتاتها وقهرت اعداءها . الم ارفع شأن الاسلام بعد ان كادت هيبته تذهب بما اتاه اصحاب بغداد من اسباب الضعف فأتاني ملوك النصارى يتزلفون ويتقربون وهاداني اكبر ملوك النصرانية وخطبوا مودتي . اليس في ذلك عز للاسلام والمسلمين من استطاع ذلك من الخلفاء قبلي ؟ . وانتم مع ذلك تتآمرون وتتواطأون » وكان يقول ذلك وصوته يرتجف من الغضب حتى خافت الزهراء غضبه ونظرت الى اخيها مخافة ان تبدو منه كلمة تبعث على هياج الناصر

فسمعت من الخارج صوتاً يقول « لا ذنب لاحد من المتآمرين انما الذنب لواحد منهم »

الفصل السابع والسبعون

موقف هائل

فعرف الخليفة صوت سعيد فأمر بادخاله فادخل وهو موثق اليدين وليس على وجهه شيء من مظاهر الخوف وانما كانت عيناه حمراوين يكاد الشرر يتطاير منهما فلما وقع نظر الخليفة عليه هاب منظره وامر ان يحل وثاقه فتقدم بعض الحرس الى حله ووقف بضعة منهم الى جانبيه بالسيوف المسلولة واشار بدخول سائر القادمين فدخلت عابدة فوقفت بجانب الزهراء ودخل ساهر ووقف متأدباً بجانب سالم فامر الخليفة سعيداً ان يتقدم حتى يقف في وسط القاعة فتقدم بقدم ثابتة وجأش رابط فقال له الناصر « انت سعيد الوراق صديقنا وموضع ثقتنا ؟ »

فلم يجب

فقال « أهذا جزاؤنا لاننا قربناك واكرمناك وجعلناك مستشارنا ؟ تحرضنا على قتل ولدنا لانه خرج علينا وانت السبب في خروجه ثم تجاسر على الفرار بجاريتنا الزهراء من قصرنا ؟ هل بعد ذلك من مسوغ للرفق بك ؟ . . يسوءني والله ان اخسر مشيراً عاقلاً حكيماً مثلك ولكن يا للعجب كيف ارتكبت هذه الفظائع كيف جعلت لهذه الدنايا سبيلاً اليك فاقترفت اموراً يتنزه عنها الجهلاء واهل الطيش واموراً يستحي اهل الفجور من اتيان مثلها. اين كانت حكمتك اين كان عقلك وسداد رايك بل اين كان تدبيرك وانت تعلم ان فرارك بالزهراء لم يكن ليتم لك وعبد الرحمن حي فانه يملأ الارض عليك خيلاً ورجالاً ويأتي بك صاغراً ذليلاً . . اذا لم يكن لك شرف يعصمك عن ارتكاب الرذائل ويردعك عن خيانة من اكرمك وقدمك الم يكن لك عقل يدلك على الخطر الذي يهددك من هذه الجراة ؟ »

وكان سعيد واقفاً يسمع كلام الناصر وقد تكتف ووقف مستريحاً ينظر الى بيت من الشعر مطرز على ستارة من ستائر تلك القاعة وسائر الحضور ينظرون اليه ينتظرون ما يعتذر به عن نفسه وكلهم يعرفون قوة حجته ورجاحة عقله ورغم ما اساء به اليهم

لا تزال منزلته رفيعة في اعينهم

أما سعيد فلما سمع سؤال الناصر عن سبب جسارته وكيف يفر بجاريته ولايخشى بأسه نظر اليه وقال « اما سوء التدبير فلا اقبل التلطخ به فان تدبيري لو عرفه المولى لما وجد به خرقاً ولكن القضاء قضى بفساد ذلك التدبير لاقف هذا الموقف . »

فقال الناصر « كأنك دبرت الوسيلة لقتلي ايضاً ولم تنجح . . فكيف خطر لك ان تفعل ذلك ونحن لم نقصر في اكرامك وما الذي كنت تتوقعه من اقتراف تلك الجريمة ـ انها لم تكن لتغنيك بالمال ولا لترفع منزلتك بل قد تكون سبباً في الحط من شأنك حتى عند نفسك يوم يثوب اليك رشدك وترى انك قتلت الابرياء وأسأت الى من احسن اليك .. »

فاعتدل سعيد في موقفه ووجه خطابه الى الناصر باهتمام وجرأة وقال « يعلم امير المؤمنين انه لم يقل لي شيئاً لا اعلمه وقد اعترف لي بسداد الراي والحكمة والتعقل ولكنه يسألني عما حماني على مخالفة الصواب وتعريض نفسي لذلك الخطر . . لم يحملني على ذلك يا امير المؤمنين طمع في مال فان الاموال كثيرة عندي ولا الحياة فاني لا ارى السعادة بها ... قد ارتكبت كثيراً من الرذائل .. ارتكبت الخيانة والغدر والكذب وأنا اعلم جيداً انها رذائل وان مثلي يجب ان ينزه نفسه عنها . ولم ارتكبها طمعاً بالمال او الجاه كما قلت ولكن ... » ولما وصل الى هنا غص وتغيرت سحنته وتشاغل يبلع ريقه والجميع سكوت وقد امسكوا تنفسهم تشوقاً لسماع ما يعتذر به سعيد عن نفسه فلما سكت جعلوا ينظرون بعضهم الى بعض .

اما سعيد فرفع كمه ومسح به دمعة انحدرت على خده واستدرك فقال « لا يظن امير المؤمنين اني ابكي جزعاً من الموت اني لا ارى السعادة في الحياة كما اني لا اراها في الجاه ولا المال . »

الفصل الثامن والسبعون

الجسارة

فاستغرب الخليفة تعبيره وتشوق لمعرفة حديثه فقال له « انا اعلم انك لاتخاف الموت لان اعمالك الماضية تدل على ذلك ولكني سألتك عن سبب اقدامك على الخيانة وانت اعقل

من ان تأتيها عن جهل — ونحو امير المؤمنين ايضاً الم تخش بأسهُ ؟ »

فاجابه سعيد « ان الرذيلة التي لا يجوز ارتكابها مع امير المؤمنين لا يجوز ارتكابها مع سائر الناس . وأستاذن الامام الناصر بكلمة اقولها وانا في آخر يوم من ايام الدنيا — ان المنصب الذي يشغله امير المؤمنين انما ساقته اليه التقادير وهو غير مخير ولو وجد فيه سواه لبلغ الى مثله . . لا تغضب ياسيدي . لو لم تولد من بيت الخلافة و ينصرك الناس عَلَى قتل الناس لم تبلغ هذا المقام فانت وصلت اليه عَلَى جسر من الجماجم فوق بحر من الدم ـ واي فخر في ذلك ؟ فما رفعوا مقامك و بايعوك وجعلوك خليفة بنيت القصور واكثرت من الجواري والخصيان وامرت الناس ان يعظموك وقد علموا وهم يحسبون لك فضلاً عليهم والفضل لهم في صيانة دولتك والدفاع عن حياتك — ثم انت تنكر عَلَى احدهم جزءاً صغيراً مما تجوزه لنفسك . . ولا ذنب لك في ذلك فانها القاعدة التي جرى عليها الناس من قبل ولكنها ليست هي اسباب السعادة »

فامتعض الناصر من تلك الجسارة لكنهُ تجلد وصبر عليه حلماً وسعة وقال « ربما كنتَ مصيباً لكنك لم تجبنا عما حملك عَلَى تعريض نفسك للخطر فضلاً عن ارتكاب الخيانة وغيرها من الرذائل وانت الحكيم العاقل ؟ »

قال « لست اول حكيم عاقل ارتكب الرذائل في سبيل مطلبه »

قال « نعم ولكننا لم نفهم الغرض الذي حملك على ذلك »

قال « ان الغرض الذي حملني عَلَى هذه الرذائل من اشرف الاغراض بل هو اشرفها جميعاً لان عليه يتوقف عمران هذا الوجود بل هو سنة من سنن الله في خلقه وفضيلة من اكبر الفضائل — واما سواي فانه يرتكب الرذائل في سبيل اغراض تخالف سنة الوجود وقد نهى عنها الشرع والعرف . كم من رجل ارتكب الغدر والفتك والقتل التماساً لمنصب الملك او الخلافة وهذا المنصب نفسه مشوب بامثال هذه الرذائل لان طالب الملك متى ناله حلل لنفسه كل محرم وساعده الناس عَلَى التمادي في الاثرة وصار يحسب اموال الرعايا وانفسهم حقاً لهُ فيبني القصور ويزخرفها بالذهب والفضة مما يجمعونهُ لهُ من تعب الفقراء ويقتني الجواري على اختلاف انواعها ويتحكم برقاب الناس واموالهم كما يشاء ولا يرى لسواه حقاً بعشر معشار ذلك . . بل ويل لمن يجرأ على الاعتراض . . . ولو لم اكن على باب الآخرة لم اقلهُ . . . »

فدهش الجميع لهذه الجسارة مع ما فيها من الحكمة البالغة ولم يجسر احد قبله على مثل هذا التصريح في حضرة خليفة شديد الباس ولكنهم غضوا من ابصارهم تهيباً من الخليفة

اما الناصر فظل على اظهار الاستخفاف بما يسمعه ولم يشأ ان يجعل نفسه المقصود من

ذلك التعريض فقال « صدقت ان كثيرين من طلاب الملك لم ينالوه الا بعد سفك الدماء وهؤلاء اخواننا العباسيون اكبر شاهد على ذلك وقدوتهم ابو مسلم الخراساني الذي كان يقتل على التهمة . لكنني لا ازال انتظر ان اسمع منك السبب الذي حملك انت على ما فعلت ولم الح عليك بالاستفهام الا لاستفيد من حكمتك فقد كنت كما تعلم كثير الثقة بعلمك والاعجاب بتعقلك . . »

الفصل التاسع والسبعون

الحب

فتنهد سعيد تنهداً عميقاً واجال نظره في الحاضرين حتى وقع على الزهراء وكانت شاخصة فيه وقد غطت راسها بالنقاب واخذ منها الاعجاب به كل مأخذ فلما راته ينظر اليها حولت نظرها عنه اما هو فلما وقع نظره عليها ابتسم ابتسامة شفت عن معان كثيرة وتنهد ثانية وقال وهو يوجه كلامه الى الناصر « ان السبب الذي حملني على ما ارتكبته انما هو اشرف الاسباب بل هو الوسيلة الوحيدة لجمع شتات الناس وتأليف قلوبهم وحفظ انواعهم وهو الذي امر به الشرع واوصى به الله وقد امتدحه الحكماء وتغزل به الشعراء بل هو اكبر الفضائل — ان ذلك السبب يا سيدي هو « الحب » هذا هو الذي حملني على ارتكاب ما ارتكبته . فهل في الحب عار وقد جاء ذكره في القرآن والحديث ؟ اليس هو سبب نظام الكون ؟ »

فلما قال ذلك اجفلت الزهراء واطرقت حياء لعلمها انه يشير الى حبه اياها ولم يخف غرضه على الناصر فقال له « ولكن الله ينهى عن التعدي على نساء الآخرين »

قال « نعم يا سيدي ولكن الحق الطبيعي في الحب للمحب الاول خلافاً لما هو جار في اعمال الناس فان القوي يفوز بما يريد والضعيف يذهب حقه هدراً »

فقال الناصر « واذا كان الضعيف حكيماً ألا تقضي عليه حكمته ان يخاف العقاب فيبتعد عن عرين الاسد ؟ »

قال « نعم . اذا استطاع الى ذلك سبيلاً ولكنه غلب على امره وتمكن الحب من قلبه حتى اعمى بصيرته واصبح لا يرى للحياة معنى بدون الاجتماع بحبيبه — كما يعمى طالب الدنيا بزخرفها وكما يعمى طالب السيادة فلا يرى غير مطلبه وكما يعمى طالب الجاه

فانه يقتل ويغدر ويخون في سبيل الحصول عليه والسيادة ظلم واستبداد تخالف الحرية الطبيعية التي منحها الخالق لبني الانسان . واما الحب فانه شريعة طبيعية امر الخالق بها وقال في كتابه « ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » فلا غرو اذا اعترض طلبه فتك او قتل او غدر وخصوصاً اذا كان المحب سبق سواه الى ذلك الحبيب . . »

فلما سمعت الزهراء قوله خافت ان يظن الخليفة بينها وبين سعيد تبادل المحبة قبل مجيئها اليه فاستأذنت بالكلام فأذن لها فقالت « ولكن شرط المحبة الصحيحة ان تكون متبادلة فاذا لم تكن كذلك بطلت فضيلتها واصبح طلبها تعدياً . . »

فنظر سعيد اليها وهي تتكلم وقد ترنح لصوتها الرخيم فلما فرغت ظل ساكتاً ينظر اليها كأنه يتوقع ان تعود الى الكلام فلما علم انها فرغت قال « ان الحب فضيلة مهما اعترضه او تقلبت عليه الاحوال لانه اساس العمران والمحبون هم الفضلاء ولولاهم لخلت الدنيا من الرحمة والاحسان . ولولا الحب يا حسناء لكانت الحياة كالصحراء القاحلة ماؤها اجاج وهواءها سموم وانما يجعل ماؤها عذباً وسمومها نسيماً « الحب » آه من الحب »

ولما قال ذلك شرق بريقه ثم اجهش للبكاء والناصر ينظر اليه ويعجب وكان اول من شارك سعيداً بالبكاء عابدة فانها لم تستطع امساك نفسها لما غلب على قلبها من التذكارات الماضية وكيف كانت عالقة القلب بسعيد وهو يضحك منها ويستخدمها في سبيل سواه لكنها ما زالت تشعر بالعطف عليه فلما رأته يبكي بكت

اما الزهراء فاجابت سعيداً قائلة « ولكن اذا تأكد المحب ان حبيبه لا يحبه ولا يقدر ان يحبه ولا سبيل للوصول اليه . اليس من الحكمة ان ينساه ويتسلى عنه ؟ »

فتنهد سعيد وقال « لي عقل يحل المشكلات ورأي يرد السيل الجارف وعزم يهد الجبال الراسيات وقد تغلبت على كل انواع المشاق . لم تعرض لي مشكلة الا حللتها ولا اردت أمراً الا قدرت عليه ـ الا الحب فانه غلبني على امري وذهب بعزيمتي وقضى على عقلي وحكمتي . . »

فقالت « فماذا يفعل المحب اذن ؟ ولا حيلة له الى حبيبه ؟ »

فمد سعيد يده الى جيبه وقال « اذا تأكد يأسه من حبيبه فقد تأكد انه مائت اذ لا حياة للمحبين بغير الحب واذا عاشوا فعيشهم الشقاء فما عليهم الا الرحيل من هذه الدنيا » قال ذلك واستخرج ورقة ملفوفة ووجه كلامه الى الزهراء وقال « اني اموت فداء الحب » والتفت الى عابدة وقال « سامحيني يا عابدة فقد ظلمتك كثيراً » ونظر الى

الناصر فقال « ليس لك عندي غير هذه الروح عقاباً على جرائمي . خذها » والتقم ما في تلك الورقة

الفصل الثمانون

عابدة وسالم

فعلم الناصر انه تناول السم فصاح فيه « ويلك اتقتل نفسك ؟ . تمهل . . اني احب استبقاءك واضن بحكيم عالم مثلك ان يموت . . قد كنت احب ان استبقيك ماذا فعلت؟ »

فقال « تستبقيني لاخدمك واموت حسرة . . وقد يئست من حبيبتي ؟ لا حياة لي الا بالزهراء »

قال « اهديك مئات من الجواري اجمل منها . . »

قال « الحب يا عبد الرحمن لا يستبدل ولولا ذلك لكانت هذه (واشار الى عابدة) اولى الجميع بالبدل ولكن قلبي لا يرضى احداً غير هذه (واشار الى الزهراء) فاني أحس كأنها شطر من قلبي ولا يعيش الانسان بنصف قلبه . . فاهنأ بها انها جوهرة جمعت بين الصدق والاخلاص ولكن لك وحدك فقط . . »

فقال الناصر « كيف تقتل نفسك بيدك ؟ »

فقال « خيراً من ان يقتلني الجلاد »

فصاحت عابدة « اذا كان هذا دواء المحب اذا يئس من حبيبه فما اجدرني ان اقتل نفسي . . » واخذت تبكي فادركت الزهراء مقصودها فاقتربت منها واشارت اليها ان تسكت

اما سعيد فلم تمض لحظات حتى بدأ الالم في بطنه واسترخى فاشار الناصر ان يحمل من ذلك المكان وقد شق عليه امره لانه كان يحبه ويحترمه ولو بقي حياً لاستخدمه في بعض اموره

فحملوه وقد كاد يغمى عليه وبعد قليل مات فدفنوه

اما الناصر فبعد خروج سعيد تراجع واعتبر وزادت الزهراء رفعة عنده وازداد حباً لها والتفت اليها وابتسم فرآها تنظر في الارض كأنها تفكر فقال « كل ذلك جرى لاجلك ؟ . . »

قالت « اني حقيرة لا استحق هذه العناية ولكن الرجل قصير العمر رحمه الله »

قال « نعم انه دلنا على فضلك وصدق مودتك . . فانت اليوم ارفع منزلة عندنا من قبل . فاطلبي ما تشائين »

قالت « ان نعم مولاي متوالية على جاريته وقد تم حظي بعفوه عن اخي هذا واما اشارك هذه المسكينة بحالها لانها قاست العذاب في اثناء مساعي ذلك الرجل الغريب وكانت تحبه وهو لا يحبها وهي تخدمه وهو يخادعها فاحب ان تنال تعزية تنسيها ذلك »

فالتفت الناصر الى سالم وقال « يا سالم . . هل انت متزوج »

قال « كلا يا سيدي . »

قال « اتتزوج عابدة انها اديبة عاقلة »

فاشرق وجهه وحنى رأسه وقال « ذلك حظ كبير لي وكيف لا اختار نصيباً اختاره لي امير المؤمنين ؟ »

فأمر الناصر ان تزف عابدة الى سالم وان يخصص لهما قصر يعيشان فيه برغد وهناء فقالت الزهراء وهذا ساهر يكون في بطانة مولاي الناصر فانه اهل للمناصب الكبيرة »

قال جعلناه من خاصتنا — وانقضى المجلس على تلك الحالة

تمت الرواية

DATE DUE

JAFET LIB.
19 JUL 1990

JAFET LIB.
14 MAR 1978

J. LIB.
7 JUN 1974

892.78:Z39abc2A:c.1
زيدان، جرجي
عبد الرحمن الناصر
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01044235

892.78:Z39abc2A c.1
زيدان

892.78
Z39abc2A
c.1